حياة المفكرين والأدباء والفنانين .. بأقلامهم

التكوين

كتاب الهلال
KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٦ – شوال – فبراير ١٩٩٨ No. 566-FE-1998

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

٥ قرش

١٥٠٠ فلس– السعودية ١٥ ريالا – سلطنة عمان ١٫٥ ريال

التكوين

حياة المفكرين والأدباء والفنانين .. بأقلامهم

●

دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

تقديم

يتناول هذا الكتاب نخبة متنوعة من الشخصيات المتألقة فى مجتمعنا ذات الاسهام البارز فى حياتنا الفكرية.. تقدم تجربتها ورحلة حياتها الثرية من خلال الحديث عن تكوينها، فهم يستدعون الصور المتناثرة من هنا وهناك لنقترب من حياتهم ، ونتعرف على ملامح عصرهم ونشاهد كيف كان التكوين الفكرى والثقافى لكل منهم، وإلى أى المدارس ذهبت هذه النخبة، وعلى أى الاساتذة تتلمذت؟ وماهى الفنون التى شكلت ذوقها وحسها الجمالى؟ وماهى الكتب التى تأثرت بها؟ .

نضع هذه التجارب الثرية أمام الاجيال الشابة لعلها تكون هاديا لهم، وما أحوجنا أن نقرأ ونتعرف على طريق التفوق والنبوغ، طريق العمل الجاد المثمر الذى يكلل بالنجاح والتمييز..

فهذه تجارب لنخبة كافحت وناضلت وتفوقت وأصبحت لها بصمات مهمة فى حياتنا الثقافية والعلمية، وهى مجموعة من الشخصيات تمثل فكر وثقافة هذا العصر الذى نعيش فيه ولكنهم تتلمذوا وتعلموا فى مناخ يختلف عنا ، له سماته الخاصة.. شربوا من معين واحد تقريبا..

تغذوا فى الصبا بقصص تدور حول معنى المعاناة، والشموخ ومراعاة كرامة العلم وأهمية الدين.

رحلة هؤلاء الكتاب والمفكرين خلال الخمسين سنة الماضية فى مجالات الفكر والفلسفة والثقافة والعلوم والفنون والآداب والتدريس فى الجامعة.

كيف أحبوا اللغة العربية واللغات الاجنبية؟ ، كيف كان للمكتبة أثرها فى أن تكمل دور المدرسة والجامعة، لتكتمل رحلة ابداع هؤلاء وتتيح لهم فرصة الاطلاع على الابداع العربى الحديث والقديم ، وعلى روائع الأدب العالمى فى لغتيه الأصليتين: الانجليزية والفرنسية أو مترجما من إحداهما.

مرحلة الصبا وأهميتها فى تأسيس الهيكل الأساسى للتلقى، تنمية حب اللغة وهى الأساس لبزوغ الحس اللغوى عند هؤلاء جميعا.

تعرفوا على قراءة الأدب، ثم القراءة على اطلاقها، استكشاف محموم لقدراتهم وهوياتهم فكانت خبرة القراءة ومازالت هى رحلة خارج المكان ،، ليس لها صفحات محددة سوى إنها مشرقة ورحبة ..

فالقراءة كانت طريقا إلى عالم متكامل يكتفى بذاته، عرفوا طريقها مبكرا منذ فترة المراهقة، وظلوا على ذلك

طوال هذه السنين.. كل مافى الأمر أن بعض خصائصها وأحوالها، ازدادت مع الأيام وضوحا واستقراراً، فازدادوا تمكنا منها.

وفى شرخ الشباب كانت لديهم قدرة على الاختيار، فاختاروا كما أرادوا لا كما أريد لهم فى وقت كانت مصر فيه تموج بتيارات الفكر الاجتماعى، والسياسة تغطى الساحة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وكان العالم كله يضطرب بتيارات مماثلة، إذ كان يعيد ترتيب أموره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكان نصيب مصر من تلاطم هذه الأمواج وفيرا، لانها جمعت بين طليعة مثقفة طموحة وأحزاب تتصارع بأساليب مختلفة.

فى هذه الفترة زادت الصحف زيادة ملحوظة ونشط الأدب السياسى نشاطا ملحوظا أيضا، ونشطت الحركة الثقافية بوجه عام برموزها العظيمة مثل طه حسين - العقاد - المازنى - محمد مندور - أحمد حسين - عبدالله عنان - توفيق الحكيم - سليمان حزين - سهير القلماوى.

فالكل عاش طوال النصف الثانى من الاربعينيات ولم يكونوا بمعزل عما يجرى حولهم ففتحوا نوافذهم، فكانت الأحداث تمسهم على أكثر من مستوى، تضطرم نفوسهم

بالأفكار والتيارات ، فكانوا فى حالة مخاض يمضى الى الابداع الجماعى والفردى.

كل ذلك من خلال رحلة حياة هؤلاء الكتاب والمفكرين والسياسيين الذين قدموا لنا روافد تكوينهم الثرية، نتعرف على النظام الفكرى الذى كان سائداً فى فترة تكوينهم حيث كانت الجمعيات والنوادى الثقافية تزداد، وتقدم زاداً من المعرفة يشجع كل ذى موهبة.

الجو العام فى المدارس يوحى بالثقافة، حيث كان هناك العديد من الجمعيات من جمعية للشعر، وأخرى للأدب، وثالثة للتمثيل والموسيقى والصحافة.. إلخ.

كانت الروح الأدبية منتشرة فى ذلك الوقت وكانت الصحف تشجع هذه الحركات الأدبية .

قدموا لنا من خلال تكوينهم دور المدرسة التى كانت علاقة تحول فى حياتهم عرفوا فيها كيف تكون رسالة المدرسة ، وعرفوا فيها حلاوة التفوق والأثر البعيد للرعاية والجزاء والتقدير.. عرفوا الدراسة والتحصيل، تدربوا على التعاطى فى العلم والعكوف على المعرفة، فامتلأت حياتهم بالقراءة والكتابة والندوة والقيم الجادة.

تعرفنا من خلال رحلتهم على منهجية الصداقة الراقية ، صداقة خالصة لوجه الفكر والمعرفة والذوق الرفيع،

فتكونت المدارس الأدبية والصالونات الثقافية والتى أرست مناهج الفكر وامتدت لتشمل الفكر والأدب والشعر والعلوم والموسيقى والفنون.

ولا يسع القارىء إلا أن يلاحظ أن هذه الشخصيات من أجيال متقاربة وأن تجاربها عندما توضع كل واحدة منها الى جوار الأخرى تقدم صورة حية نابضة للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى مصر خلال القرن العشرين.

وهذا الكتاب هو الجزء الأول من التكوين ، وسنوالى نشر الأجزاء الباقية من التكوين إن شاء الله لما فيه من الخير لناشئة هذه الامة وأدبائها جيلاً بعد جيل.

ولايفوتنى أن أشكر د. أحمد عبدالله الذى ألح على نشر هذا الكتاب لما رأى فيه من فائدة للشباب وهو المهتم اهتماما حقيقياً بالشباب ، ودائم الدعوة للاهتمام بقضاياهم..

شكرى محمد عياد

مادام الحديث عن «التكوين» فلأحاول أن أتجنب أسلوب السيرة الذاتية أعنى أنى سأقاوم ما استطعت ذلك الميل الطبيعى إلى إعطاء «تأثير» معين عن نفسى . إذا كنت قد قرأت «الاعتبار» لأسامة بن منقذ أو «التعريف» لابن خلدون فستفهم قصدى بدون حاجة إلى شرح كثير . أما إذا كان هذان الكتابان لم يمرا عليك بعد فإنى أختصر لك المعنى فى كلمات قليلة . كان أسامة وابن خلدون يقرران وقائع مرت بهما ، فى حياد المؤرخ ، ولا يتخذان موقفاً من القارىء ، ولا يحاولان أن يستميلاه إلى موقف . من الصعب جداً فى أيامنا هذه ، أن تكتب بهذا الأسلوب . ولكنى سأحاول .

لماذا أحاول تلجيم انفعالاتى وإخضاع ذكرياتى لهذا النظام الصارم؟ أصارحك القول إنى صممت أولا أن أكتب عن مسلكى فى الحياة لأتطرق منه إلى الكلام عن تعليمى وقراءاتى ومنهجى فى التفكير .. فالتكوين العقلى وحده لا يصنع الإنسان . وكم من الناس فى بلادنا لم يتعلموا كثيراً فى المدارس - أو لم يتعلموا أصلاً - ولم يتح لهم

أن يقرءوا الكثير من الكتب أو لم يألفوا القراءة يوماً ، وهم لا شك يفكرون، لأنهم بشر يملكون عقلا ، ولكنهم لا يفكرون في تفكيرهم ، أى أنهم لا يملكون منهجاً . فهل تسقطهم هذه النواقص مجتمعة من حساب الإنسانية ؟ عندى أن إرادة الوجود هى ما يصنع الإنسان . وإرادة الوجود ليست إرادة الحياة فحسب ، بل قد تكون إرادة الحياة ، مجرد الحياة ، مناقضة لإرادة الوجود ، إرادة الوجود تعنى شعور الإنسان بذاته ، ومحاولته المستمرة لتشكيل مصيره - وهذه الإرادة هى التى تصنع - بين ما تصنعه - التعليم والقراءة ومنهج التفكير .

الثقة بالله

ودون أن أنزلق إلى شىء من الترجمة الذاتية ، أقول إن هذا الاقتناع قد نما معى منذ وعيت . لقد نشأت فى أسرة ريفية متوسطة ، وامتلأت حياتى ، مثل ملايين المصريين ، بالمخاوف والمكاره ، وأنا الآن ، على عتبة السبعين ، أتذكر كم وقفت على حافة العوز أو المرض أو الجنون أحيانا ، وكم حاق بى من ظلم ، وأحسب أنى ، فى هذا كله ، مثل ملايين المصريين أيضا . ولكننى تعلمت من هذه التجارب أشياء :

تعلمت أولاً أن أثق برحمة الله . وبلغت من هذه الثقة حداً أوشك أن يوقعنى فى الهلاك . لا أعنى الإسراف فى الاتكال ، بل أعنى الوهم بأن الله يولينى ، أنا بالذات ، عناية خاصة ، كأن له غرضاً من الإبقاء على

حياتى ، أو تخليصى من محنة ، أو – حتى – عقابى على خطأ ارتكبته . وما أنقذنى من هذا الغرور الموبق إلا آيتان كريمتان : «فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن» كان ذلك الوهم واحداً من الخواطر المجنونة التى خالجتنى فى بعض الأوقات ، وأحسبنى ما كنت أستطيع أن أمضى فى الحياة لولا الشعور المبهم بحضور شخصى لله فى حياتى ، ولكن ذلك الشعور لو بلغ حد الاعتقاد بأن الله أفردنى باللطف من دون سائر خلقه لفسدت علىّ حياتى أيضا . هكذا تعلمت أن الاعتدال – حتى فى عاطفتى الدينية – يجعلنى أقرب إلى الله .

وتعلمت ثانيا أن الصبر هو أس الفضائل كلها . «واستعينوا بالصبر والصلاة» فمرتبته فى الأخلاق كمرتبة الصلاة فى العبادات ، ولا أعنى بالصبر مجرد احتمال الأذى ، فذلك وجه واحد من وجوه الصبر ، ولعله أقلها شأنا ، فأما أعظمها وأكرمها فالصبر على قضاء الحقوق ، والسعى فى طرق الخير ، وانتظار حسن العاقبة وإن طال المدى ، ولا أقول إنى بلغت من هذه الفضيلة ما أتمنى أن أبلغه ، فربما جزعت للأمر الهين ، وربما غضبت حيث لا موجب للغضب ، وربما أذهلنى الشر الظاهر عن رؤية الخير الباطن ، وربما عجزت عن تصحيح الخطأ وعن التسليم به فلجأت فى مقاومته إلى الضحك المدوى ، أو السخرية المريرة وما أدرى إن كانت هذه الخصلة جديرة بأن تعد من الصبر .

وتعلمت ثالثا - وكان هذا أصعب ما تعلمت من دروس - أن أشفق على من يظلمني . ولعل أول مرة شعرت فيها شعوراً حقيقيا وحاداً بالظلم كانت يوم أن صفعني أبى أمام أغراب ، ولم أكن صغيرا ، كنت قد جاوزت الرابعة عشرة ، ولم يكن من عادته أن يضربني ، بل لا أذكر أنه ضربني قبل هذه المرة إلا مرة واحدة وأنا طفل صغير ، وكانت صفعة على الوجه أيضا ، لم أحتملها فوجدت نفسى ملقى على الأرض ، وكان سببها أنه وجدنى خارج البيت فى وقت متأخر حسب تقديره ، ولم يكن كذلك ولا كان خارجاً عن مألوف عادتى ، أما فى تلك المرة الثانية فقد كان عذره أضعف ، وكانت الإهانة أشد ، ولبثت أياما لا أكلمه حتى بدا عليه الشعور بالندم ، فتذكرت أنه شيخ مريض ، وتألمت لحاله ، وغفرت ظلمه لى وإن لم أنسه حتى اليوم . وما وقع علىّ ظلم بعد ذلك إلا تأملت حال من ظلمنى فوجدته أحق بالشفقة منى ، فأجاهد وأنا أعمل لدفع الظلم ألا أبلغ حد الانتقام .

ولا تحسبن أنى أقول ما أقول لأزكى نفسى ، فالحق أن هذه العادة أصبحت عندى أشبه بالرذيلة ، فأنا مع قلة صخبى لم أسكت عن حقى مرة ، ولكنى كنت دائماً أنظر إلى من هم فوقى بنوع من الاستعلاء ، ولا أحاول إخفاء ذلك وإن لم أخرج عن حدود الأدب المعتاد . ولا أدرى كيف كان الكبار والرؤساء ينظرون إلىّ ، ولكننى على كل حال لم أكن أرجو عطفاً من أحد ، كيف وأنا أراهم أحق بالعطف منى .

خلاصة هذا كله أن العيش على الحافة - حافة العوز أو حافة المرض أو حافة الجنون أو ما يشابهها وهو كثير - ليس بذى خطر فى نفسه إذا استطاع المرء أن يحافظ على توازنه . ويأتى بعد ذلك دور المعرفة أو الثقافة في تكوين عقله وذوقه . وقد كانت سيرتى فى هذين الجانبين أشبه بسيرتى فى سلوكى العملى : حاولت منذ وعيت أن أكون مالكاً لأمرى ، وأن أحصل ما أستطيع تحصيله بمجهودى . ولا شك أنى اعتمدت فى طفولتى على أبوى ومعلمى ، ولكن هذه المرحلة كادت تنتهى عندما بلغت سن العاشرة ، وهى السن التى حصلت فيها على الشهادة الابتدائية . وقد شاء حظى أن يكون معلمى فى مادة الحساب طوال المرحلة الابتدائية رجلاً غريب الأطوار ، كان معروفاً عنه فى المدرسة كلها أنه متزوج باثنتين ، ثانيتهما كانت خادمته ، وكان حاد الطبع لا يصبر على إفهام صغار التلاميذ ، وربما علا صوته أثناء الشرح فيشعر بعضهم - وأنا منهم - بالخوف . وكان كمعظم الناس فى ذلك الزمن وفديا وكانت وزارة محمد محمود فى الحكم ، وتبعتها وزارة اسماعيل صدقى ، فكان يضيع معظم وقت الحصة كلاماً فى السياسة ونحن - بالطبع - لا نفهم ما يقول ولكننا نخرج فى المظاهرات كى يرضى عنا . وهكذا تقدمت إلى امتحان الابتدائية سنة ١٩٣١ وحالتى فى مادة الحساب بالذات لا تبشر بخير وكان نجاحى راجعاً إلى مصادفة سعيدة لم تتكرر إلا بعد ثلاثين سنة تقريباً ، وهى أن أسئلة الامتحان «تسربت»

كما يقال ، ولم يكتشف ذلك إلا قبل الامتحان بيوم واحد ، فسوى امتحان الحساب على عجل ، وجاءتنا أوراق الامتحان مطبوعة على «الرونيو» بدلاً من أوراق المطبعة الأميرية حسب العادة ، وقد حلت محل الكسور المعقدة والمسائل المعقربة أشياء سهلة أمكننى أن أحصل فيها على درجة واحدة فوق درجة النجاح أى على ستة وعشرين من خمسين ، فى حين أن التلاميذ المتوسطين كان فى استطاعتهم أن يحصلوا بسهولة على الدرجة النهائية . فلما جاءت الشهادة كان ترتيبى حول الخمسة الآلاف من عشرة آلاف تقريبا هم تعداد الحاصلين على الابتدائية فى ذلك العام ، ومع ذلك قبلت بالمجان فى مدرسة المساعى المشكورة الثانوية لصغر سنى ولأن أبى كان مدرساً فى الجمعية .

بداية جادة

كان أبى يدرس اللغة العربية والدين فى المدارس الابتدائية التى أنشأتها جمعية المساعى المشكورة فى كل مركز من مراكز مديرية المنوفية أو محافظة المنوفية كما تسمى الآن . ومادمت قد شرطت على نفسى أن أبتعد عن أسلوب السيرة الذاتية فلن أتحدث عن حبى له أو ذكرياتى ، ولكنى أذكر فقط ما يتصل بسياق «التكوين» العلمى . لم يكن أبى يولينى عناية خاصة فى اللغة العربية ، لا فى الفصل ولا فى البيت ، وإنما كنت أسأله عن بعض أشياء فيجيبنى ، وكانت عنده كتب قليلة

بدأت أقرأ فيها عندما انتقلت إلى المرحلة الثانوية ، أذكر منها «إحياء علوم الدين» للغزالى ، و «حياة الحيوان» للدميرى ، و «المواهب الفتحية» للشيخ حمزة فتح الله ، أما بدايتى الحقيقية فى التعليم - بعد المقدمات الضرورية التى حصلتها فى المدرسة الابتدائية - فقد كانت فى «مقعد» من «المقاعد» الثلاثة فى منزلنا القديم فى البلد .

ولابد هنا من بعض الايضاحات اللغوية . فأما «المقعد» فهو حجرة فى الطابق الثانى من الدور الريفية المتوسطة ، سقوفه غالباً بالبوص ، وأما المقاعد مساحة خالية غير مسقوفة تسمى «الحضير» ويسرح فيها الدجاج وربما خصص أحد المقاعد للخزين ، أو حتى لتربية الأرانب ، مع أن الأصل فيها أن تكون للنوم فى فصل الصيف ، بينما تتخذ «قاعة الفرن» للمبيت فى الشتاء . وأما «البلد» فهو الاسم الذى نطلقه على الموطن الأصلى ، أو «مسقط الرأس» والذى نعود إليه فترات تطول أو تقصر ، حين يقتضى عمل رب الأسرة أو دراسة الأبناء أن تكون الإقامة الدائمة فى بلدة أخرى .

فى أحد «المقاعد» وجدت صندوقاً كبيرا من تلك الصناديق القديمة المزينة من أعلاها وجوانبها بصفيح ملون ، والتى كانت تكون مع السهرير الحديد كل جهاز العروس لدى الأسر المتوسطة الحال فى الريف . عندما فتحت ذلك الصندوق القديم فى تطلع الأطفال وجدت كومة من الأوراق

ووجدت بينها أعدادا من «الهلال» فى سنواتها الأولى (لابد أنها كانت من مقتنيات أبى أيام دراسته فى الأزهر – وقد عرفت فيما بعد كم كان متمرداً على التعليم الأزهرى ، حين لاحظت أنه يعرف الكُتَّاب المعاصرين ، ويعجب – مثلا – بأسلوب محمد التابعى) . وكان العدد من «الهلال» عبارة عن كراسة صغيرة من ملزمة أو ملزمتين ، وكلها تقريباً محررة بقلم جورجى زيدان صاحب الهلال . كان فى كل عدد من هذه الأعداد ترجمة لواحد من مشاهير الشرق أو الغرب ، وأذكر أن أقوى هذه التراجم تأثيرا فى نفسى كانت ترجمة أوليفركرومويل ، ذلك الثائر المتطهر الذى حول بلاد الانجليز لفترة قصيرة من تاريخها إلى النظام الجمهورى ، ومحمد رضا بهلوى ، ذلك الجندى البسيط الذى تصدى لأطماع الدول الغربية فى أرض فارس واستطاع أخيرا أن يجلس على عرش الأكاسرة . ووجدت فى هذه الكومة أيضا كتاب «سر تقدم الانجليز السكسونيين» لديمولان (ترجمة أحمد فتحى زغلول) ، وأذكر أنى قرأته بشغف ، وعرفت فيه شيئاً عن «التربية الاستقلالية» وآمنت بأن الانسان (لا أقول الطفل ، فلم أعد أعتبر نفسى طفلاً) إذا بلغ مرتبة الوعى أصبح مسئولا عن نفسه . ولم يكن أقل الأشياء التى وجدتها فى هذا الصندوق العجيب تشويقاً ولا فائدة لى فى مستقبل أيامى مجموعة من الخطابات المتبادلة بين أبى وأخوى الكبيرين (وكانا فى تلك الآونة قد

أتما دراستهما العالية وأصبح أحدهما محاميا والآخر موظفاً إدارياً . ولا تعجب لأن أباً غير ميسور الحال حرص فى تلك الأيام ، قبل مجانية التعليم بزمان ، على أن يعلم أولاده جميعاً تعليماً عالياً ، أبى على كل حال لم يبعث أحد أولاده إلى أوربا كما فعل الشيخ رجب فى «قنديل أم هاشم») . وكان معظم هذه الخطابات قديما يرجع إلى الفترة التى تلقيا فيها تعليمهما الثانوى فى طنطا لأن محافظة المنوفية كلها لم يكن فيها مدرسة ثانوية واحدة . كانت هذه الخطابات تتناول أموراً عادية جداً مثل إرسال نقود أو ملابس أو بعض الأثاث ، ولكن هذه الموضوعات العملية اليومية كانت تتناول بطريقة أعجبتنى ، وأحسب أنها كانت النموذج الأول الذى حببنى فى الكتابة الواقعية . وكانت هناك أيضا خطابات قليلة من بعض زملاء أخى الحقوقى ، وهذه كانت كلها فى السياسة وقد أثارت إهتمامى أيضا ، ولعل بعض الفضل فى ذلك راجع إلى المدرس الغريب الأطوار الذى جنى علىّ فى مادة الحساب .

من هنا بدأ تكوينى ! ولا أكتمك أنى حين دخلت المدرسة الثانوية كنت قد بدأت أستخف بالمدرسة وما تعطيه . وكان لى خال صحفى وزجال ، علم نفسه بنفسه ، فكنت أحسده لأنه نجا من سخافة التعليم الرسمى ، ولا أجرؤ أن أصارح أهلى بهذه الأفكار إذ كانت المدرسة والشهادة هما السبيل الوحيد إلى حياة كريمة مستقرة . وقد شاء الحظ

أن أمرض فى أول السنة الأولى ، وأن يطول مرضى أكثر من أسبوعين ، فلم يكن لى بد من أن أعتمد على نفسى لفهم دروسى من الكتب المقررة (كانت الدروس الخصوصية فى تلك الأيام شيئاً نادراً . لا يلجأ إليها إلا التلاميذ الخائبون أو المدللون) .

الاعتماد على النفس أولا

وسرعان ما عرفت الطريق إلى مكتبة البلدية . وسرعان ما أصبحت أهم عندى من المدرسة التى كانت تستأثر بوقتى معظم السنة . وقد حرصت على أن أداوى تخلفى فى الرياضة – ولم يكن جميع مدرسيها كذلك الذى بغض إلىّ اسمها فى المرحلة الابتدائية – وتقدمت دون عناء حتى وجدتنى ابتداء من السنة الثانية أحتل المركز الثانى أو الثالث فى الفصل (كما يقولون اليوم عن الفرق الرياضية) . وربما كان من الممكن أن أحتل المركز الأول ولو فى بعض المرات لولا أن ابن أحد مدرسى المدرسة شغله منذ هذه السنة الثانية (ولا أزعم أنه شغله بغير حق) إلى أن تركنا المدرسة .

على كل حال لم يكن الأمر يعنينى كثيراً ، فقد كان رأيى فى المدرسة هو رأيى . وكانت عطلة الصيف لا تكاد تبدأ حتى أصبح جليس المكتبة ، أقف على بابها قبل أن تفتح ، صباحاً ومساء ، ولا أغادرها إلا بعد أن ينبهنا الساعى إلى إنتهاء الوقت وأصبحت أضيف إلى ساعات المذاكرة

أثناء العام الدراسى ، ساعة قبل النوم أقرأ فيها فصلاً فى كتاب من الكتب التى كانت مكتبة المدرسة تسمح بإعارتنا إياها .

فى تلك السنوات قرأت كل ما وجدته فى إحدى المكتبتين من الأدب الحديث ، أى معظم ما نشر منه قبل سنة ١٩٣٦ ، وقرأت - بالطبع - ألف ليلة وليلة وكثيراً من الروايات المترجمة . وأتقنت طريقتين فى القراءة: القراءة المتمهلة المتأنية والقراءة السريعة القافزة . بعض الروايات المترجمة كنت أفرغ منها فى جلسة واحدة لأنى كنت أقرأ أكثر من ستين صفحة فى الساعة ، وكأنى لا أقرؤها بل التهمها بخيالى ، ولكن ثمة روايات كنت أقرؤها متمهلاً وبجدية تامة . أذكر منها «آلام ڤرتر» و «روفائيل» من ترجمة الزيات و «غادة الكاميليا» من ترجمة أحمد زكى ، أما روايات المنفلوطى فكانت فى منزلة وسطى . وكانت هناك كتب أقرؤها للدراسة ، كما أقرأ كتب المدرسة ، منها كتاب «العقل الباطن» لسلامة موسى ، و «الاشتراكية» لنقولا حداد ، وكتاب فى علم النفس من ثلاثة أجزاء لعطية الأبراشى وحامد عبد القادر . وأذكر أن المدرس الذى كان يعلمنى اللغة الانجليزية فى المدرسة الإبتدائية دخل المكتبة ذات يوم فوجدنى أقرأ فى الترجمة الانجليزية للكتاب المقدس فنظر إلىّ مستنكرا وقال : ألا تعلم أنه altered ؟ ولابد أنه خاف على دينى ، أما أنا فقد حمدت الله على أن المكتبة لا تنصحنى ولا توجهنى .

ولم تكن هذه هى النصيحة الوحيدة التى تلقيتها من مدرسى الرسميين . فقد اتفق أن أحد الطلاب - ونحن فى أواخر المرحلة الثانوية - سأل مدرس اللغة العربية عما يحسن أن يقرأه من الأدب الحديث ؟ فقال · اقرءوا «صهاريج اللؤلؤ» للبكرى . وذهبت إلى المكتبة واستعرت «صهاريج اللؤلؤ» فإذا هى قطع من النثر المسجوع المتكلف . وكان هذا المدرس هو أوسع مدرِّسى اللغة العربية فى مدرستنا أفقا وأحسنهم ذوقا وحين عزمت على أن أتوسع فى قراءاتى بالانجليزية ، ونحن نستعد لاستقبال العطلة الصيفية التى تسبق الجامعة ، سألت مدرس اللغة الانجليزية ماذا ينصحنى أن أقرأ ؟ فقال · إقرأ جون ميزفيلد .، فوضعت هذا الكاتب فى أول برنامجى ، واستعرت ثلاثة من كتبه ، دفعة واحدة ، من مكتبة الجامعة ، فكاد يصرفنى عن الأدب الانجليزى كله .

أنا ومجلة الهلال

وكان اهتمامى بإتقان اللغة الانجليزية راجعاً ، مرة أخرى ، إلى مجلة الهلال ، فقد قرأت فى أحد أعدادها استفتاء لبعض كبار الكتاب عن الثقافة التى يجب أن يحرص الأديب على تحصيلها . فقال محمد حسين هيكل أن الأديب العربى لا يمكنه أن يستغنى عن القراءة بلغة أجنبية واحدة على الأقل . فأكد هذا القول شعوراً سابقا عندى بأنى

يجب ألا أقنع بالمستوى الذى بلغته فى المدرسة من معرفة الانجليزية أو الفرنسية ، وكان الطبيعى أن أبدأ بالانجليزية إذ كانت هى لغتى الأوربية الأولى . فجمعت عدداً من الروايات التى كانت مقررة فى السنوات السابقة على طلاب السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية أو السنة الأولى فى الجامعة ، لأنى كنت أجد الكلمات الصعبة مشروحة على هوامشها بأقلام الطلاب السابقين ، فعكفت على قراء تها وحفظ معانى كلماتها طوال عطلة الصيف .

وقد التحقت بكلية الآداب يجذبنى اسم وحيد : اسم طه حسين ، رغم أنى كنت أعرف كذلك أحمد أمين وعبد الوهاب عزام من خلال مقالاتهما فى مجلة الرسالة ، ومن خلال «فجر الإسلام» و «الشاهنامه» ومن ثم كان اختيارى لقسم اللغة العربية اختياراً جازماً لا تردد فيه . وكان التخصص يبدأ من السنة الثانية ، ومرت السنة الأولى بغير عناء ، وكان معظم وقتى موقوفا على القراءة بالانجليزية وحفظ معانى الكلمات، والفضل لمعجم «القرن العشرين» الذى كنت أقرأ حروفه الدقيقة على لمبة جاز . وعدلت عن جون ميزفيلد إلى الأدب الروسى وإلى طاغور ، اللذين أصبحت لى علاقة حميمة بكل منهما . وفى عطلة الصيف قرأت تفسير النسفى والبيان والتبيين للجاحظ (أحد الكتب الأربعة التى عدها ابن خلدون أساس الدراسة الأدبية) استعداداً لدخول قسم اللغة العربية .

وفى الوقت نفسه بدأت أترجم قصصاً من طاغور نشرت فى مجلتى «الرسالة» و«الرواية» كما نشر لى الزيات قصة فى «الرواية».

صدمة !

وكان هذا كله حسناً ، أما قسم اللغة العربية فكان – ولا أكتمك أيها القارىء – صدمة . لم أجد على «الجدول» اسماً واحداً من الأسماء التى جذبتنى إليه . ولم يكن الأساتذة الذين درسوا لى الأدب العربى فى تلك السنة يفضلون كثيراً صاحب «صهاريج اللؤلؤ» . بعد ذلك – بطبيعة الحال – نلت عاقبة الصبر وجلست بين يدى أولئك الأعلام . ولكن ...

تبين لى بعد قليل أن ما أتعلمه من كتبهم خير وأبقى مما أتعلمه بين أيديهم ، لا استثنى من ذلك طه حسين نفسه ، وإن كان له «حضور» رائع ، لسحر شخصيته وخلابة عرضه وموسيقية صوته حين يحاضر . وكنت أرى من زملائى من يصطنع سؤالاً أو يبدى تعليقاً ليلفت نظر الاستاذ إليه ، وربما لحق به مهرولاً بعد المحاضرة وفى يده قلم وكراسة ليدون ما يلقيه إليه وكأنه يلتقط الدر . فتقشعر نفسى .

ولعل الدين الكبير الذى أشعر به نحو أستاذين بالذات – أمين الخولى وإبراهيم مصطفى – راجع إلى أنى لم أجد فى كتبهما ما ينوب عن شخصيتهما . فأما إبراهيم مصطفى فكتابه «إحياء النحو» – ولا أعرف له غيره – لا يمثل إلا جانباً صغيرا من علمه بالنحو وذوقه فيه ،

فضلاً عن أنه قارئ للشعر القديم خبير بدروبه الخفية ، ولا شك أن العناية بالدقائق عادة عقلية عند النحاة ، فإذا انضمت إليها حساسية بالفروق والدلالات خرج النحوى عن مجرد كونه نحوياً وأصبح شارحاً للشعر - ولا سيما الشعر القديم - قديراً على كشف غبار الزمن عن جماله الغريب . وأما أمين الخولى فكان دائماً «يحاور» ، وكان دائماً «يحاول» .. وكان بمحاوراته السقراطية يكسر قشرة الموضوع عن لبابه ، ويعلم طلابه أن يحذوا حذوه . وكان فى جميع مشروعاته العلمية يحاول غاية هو أول من يعلم أن دركها بعيد ، ومن ثم يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً لمن بعده . وقد وجدت نفسى قريباً من هذين الأستاذين الجليلين دون أن أتمسح بهما ، أو أهجم بجهلى على علمهما . واستمرت صلتى بأمين الخولى وتوثقت إلى أن لحق بربه ، وعندما عدت إلى الجامعة لأتعلم من جديد مع طلابى سرت على دربه ، حتى أذن الله فعدت مرة أخرى وأخيرة إلى حبى الوحيد : الكتاب .

طــــارق البشــــرى

يصعب الحديث عن «التكوين» دون أن يمتد الكلام إلى الذكريات ، ومازلت رغم تقدم السن بى معلق البصر بالمستقبل وما يصلح به وما ينبغى فعله ، وهذا التوجه لايتلاءم مع الالتفات إلى الماضى واستدعاء الذكريات ولا تزال أجهزة الاستقبال لدى أقوى من أجهزة الارسال .

ومن جهة أخرى لم أعتبر التفكير فى نفسى ، أرى ذلك نوعا من إطالة النظر فى المرآة مما لا أحبه ، والموقف المثالى فى ظنى أن تنظر فى شأن آخر ، أى لن «تفنى» (بتعبيرات الصوفية) فى موضوع تدرسه أو عمل تؤديه ، حتى وإن كان عملا يدويا ، ومن باب أولى لا أسيغ الحديث عن نفسى ، يركبنى الحياء وأشعر بعدم الجدوى ، وأنى أستنفد جهدى ووقت الآخرين فيما لاينفع وما كنت أقوم على هذا الموضوع لولا أن حيائى من «مجلة الهلال» غلب حيائى من الكتابة .

ثلاثة أمور أتصور أنها كانت بالنسبة لى «بداية التكوين» أو هى التكوين بمراعاة أن ماجاء بعدها كان نموا وتكملة وليس «التكوين ذاته» لأولها طابع وجدانى خالص ، ويتعلق ثانيها بالبيئة الخاصة المنزلية والأسرية ، وأما الأمر الثالث فهو تفتح الادراك على قضايا المجتمع ،

هى ثلاث نقلات ، من لفائف الطفولة المطوية فى مشاعر ما قبل التمييز ، إلى بداية التفاعل مع البيئة المحيطة ، إلى بداية قراءة الواقع الاجتماعى العام .

●●●

أول ما استطيع أن أستدعيه من قاع ذاكرتى ، عدد من الصور المتناثرة عشت حتى أواسط العمر لا أعرف معناها ولا أذكر سياقها ، ولا تنتظم مفرداتها فى حادث بعينه ، صورة لصوانى العشاء الكبيرة الملونة ، وصورة بيتنا الكبير وحديقته الواسعة الجرداء (الا من بعض شجرات الكافور الضخمة) مضيئة بالليل ، وصورة أبى فى حلته الكاملة يقف بالنهار تحت إحدى نوافذ البيت ودموع تسيل على خده دون أن تهتز له خلجة ، وصورة ابن عم لى شاب وسيم يقف على عتبة السلم بين شقتنا وشقته وتعبير الألم يعتصر وجهه ، ثم صورة عمتى فى شقتها الأرضية تجلس على أحد سريرى غرفة نومها وتستند بكفيها على ذراعيها وتتمايل بجزعها كله يمينا ويسارا وتطلق أهة متحشرجة تنخلع لها القلوب.

ولأننى لم استطع أن أفسر هذه الصور ولا أن أجمعها فى حادث بعينه ، بقيت صورا متناثرة ترد إلى ذهنى كل منها وحدها فلا تنزاح عنى إلا وأنا فى حالة من الأسى والحزن من شىء غامض وخفى .

فهمت بعد ذلك الأمر بالمصادفة ، بعد أن شارفت الأربعين ، كنت فى دار الكتب بباب الخلق أطالع صحف الثلاثينات اعدادا لدراسة تاريخية أكتبها ، وكان أمامى «الأهرام» عدد ١٢ ديسمبر ١٩٣٧ ، ولفت نظرى صورة عم لى منشورة مع خبر وفاته ونبذة عن تاريخ حياته ، وفجأة ظهرت كل تلك الصور القديمة وتشكل منها الحدث الذى وقع وأنا فى الرابعة من عمرى ، وعرفت بعد ذلك أن مازاد حدة الألم يومها ، أن الملك فؤاد بعث من الشرطة من يفتشون منزل المتوفى يبحثون عما عسى أن يكون من رسائل الخديو عباس ، وكان لعمى صلة وثيقة به أدت إلى نفيه من مصر سنين طويلة ، ولكن الشرطة وكان معهم رئيس النيابة ، حاولوا أن يقوموا بمهمتهم البغيضة بأكبر قدر من المجاملة والذوق واللباقة واكتفوا بالجلوس طالبين أية ورقة تثبت فقط أنهم قاموا بمهمتهم ، الا أن دخول الشرطة بيتا لتفتيش فى أوراق رجل مات لتوه وبين أسرته ، وفى ظروف تماسك أسرى وثيق ، وحكاية المتوفى بين أسرته وأخواته وشعورهم بما ناله من ظلم حيا وميتا ، كل ذلك زاد الإلتهاب لهيبا ، ولحقت براعم الطفل ما لحقها من آثار هذا اللهيب.

عذبنى أيما تعذيب – فى طفولتى وصباى – هذا الشعور الحاد الحزين العميق بما وصفه القرآن الكريم بأنه «مصيبة الموت» وزاد من ذلك أن غالب من نشأت بينهم كانوا كبارا فى السن ، كان فارق السن بين أبى وأكبر أعمامى يصل إلى خمس وعشرين سنة، فكان الأعمام

والعمات من جيل الأجداد وأولادهم من جيل الآباء أو أقل قليلا ، وبينى وبين أبى أربعين سنة أو يزيد ، فلم أدرك صورته الا بملامح شيخ وحركة شيخ وأمراض شيخ ، وهكذا الآخرون من باب أولى . كل ذلك دعم الشعور بالخوف من «مصيبة الموت» وأنه أمر قريب يمكن أن يقع بين وقت وآخر .

عزلنى هذا الشعور عن أن أستمتع بما يستمتع به الأطفال ، من الجرى واللعب وما شابه ، وحد كثيرا من قدرتى على مجاراة زملاء المدرسة والجيرة في هذا الوقت المبكر ، وحفزنى على التفكير فيما لا أطيق من مشاكل وأمور تكد عقل الصبي . وقد يكون لكل ذلك أثره فى إننى صرت إلى الكتمان وإلى الخطاب الخالى ، وصار خوفى على الآخرين أقوى كثيرا من خوفي على نفسي ، وانغرزت فى وجدانى عادة الأكثار من الدعاء لله سبحانه ، وأدعوه جهرة ، وأدعوه همسا ، وأدعوه سرا ونجوى ، وأدعوه بالنقش على القلب دون أن يتحرك اللسان ، لازمنى ذلك وصار عقدا موثقا بيني وبين الله سبحانه مهما رمتنى الرياح بعيدا ، وصار زورق نجاتى من موج يعلو كالجبال يحول بينى وبين رؤية مايحيط بى . وكنت فى صباى أجهد فى إحكام صياغة الدعاء بما يضبط اللفظ على المعنى بغير التباس ، ودرب هذا عقلى على الصياغة اللفظية للمعانى والقدرة على استخلاص المعنى من اللفظ وعلى التأويل .

نقطة أخرى ، وهى أن كبر فارق السن ، الذى جاوز الأربعين مع الأب وشارف الستين مع العمة والجد للأم والأعمام ، وراوح بين العشرين والاربعين مع الأم وأولاد العم ، وجاوز المائة عام مع الجد للأب كل ذلك جعل لدى الطفل امكانية أن يراقب ثلاثة أجيال معا، جيل شباب بداية القرن وشباب ثورة ١٩١٩ وشباب الثلاثينات ، وسمع من ذكريات هؤلاء جميعا ومن وقائع حياتهم ، فتكونت لديه ذاكرة ممتدة ومركبة ، وأكسب ذاكرته عمقا خاصا واكسب مشاعره ألفة خاصة مع وقائع هذه الدهور الثلاثة ، فصار كما لو كان عاشها جميعا .

وكنت رابع الأخوة وأصغرهم ، وكنت أرد دائما فى النهاية من أى ترتيب يتبع ، حتى أمراض الطفولة ، كنت صاحب التجربة الرابعة ، ناهيك عن الدراسة وغيرها ، ومع تصميم الأب على التعامل بقاعة الترتيب بانتظام واضطرار وثبات ، أكسبنى هذا طواعية وتقبلا للانتظام والاندراج فى الترتيب متى كان ذلك بأسس موضوعية ، هذا عن العنصر الأول .

●●●

العنصر الثانى إننى قضيت طفولتى وصباى حتى بداية سنى الشباب فى العشرين من عمرى ، أى فترة الدراسة كلها حتى تخرجت

فى كلية الحقوق ، قضيتها كلها بين العمامة والطربوش ، وبين المدينة والريف ، ولست استخدم المجاز فى ذلك ولكنها الحقيقة ذاتها .

أما العمامة فكانت لجدى لأبى الذى كان شيخا للأزهر ، ولسبعة من الأعمام تخرجوا جميعا فى الأزهر وعملوا به ولجدى لأمى الذى تخرج فى الأزهر ثم عاد إلى قريته ، وأما الطربوش فكان لأبى أصغر أخوته وأول من انتقل إلى المدارس الحديثة فتخرج فى كلية الحقوق وأشتغل بالقضاء الأهلى ، ثم لأولاد الأعمام جميعا الذين سلكوا بلا استثناء إلى المدارس الحديثة فى العلوم والمهن المختلفة، ثم لكل من اتصلت بهم على مسيرة الحياة من مدرسى المدارس إلى غالب أساتذة الجامعة إلى الزملاء والقرباء وآباء الأصدقاء وغيرهم . هى ذات الشرعية الاجتماعية تنتقل من نوع تعليم إلى نوع آخر ومن عادات عيش إلى عادات أخرى . وقد شاهدت هذا الانتقال بدرجاته وصوره فى الملابس والمساكن ونوع السلوك ، وهذه الدرجات والتنويعات والظلال التى تشغل طريق الانتقال من حال إلى حال .

وعرفت كيف يكون نظر الانسان مشبوبا إلى مستقبل يحقق صور الحياة التى تملأ الرءوس المطربشة من حيث التقدم والرفاه بالصور التى راجت بين جيل أبناء المدارس الحديثة من شباب ١٩١٩ ، وكيف يعود إلى العمامة ، ولسان حاله يردد مع الشيخ مصطفى عبدالرازق ،

عندما عاد من أوروبا بالباخرة ، وفى ليلة الدخول إلى الاسكندرية رجع إلى ملبسه الأزهرى وشعر إزاء زملاء الحجرة إنه انتقل من جيلهم إلى جيل آخر ، ولكنه أشاح عن الآسى وقال «أيتها العمامة عزيزة أنت رغم كل شىء» (أو كما قال) .

عرفت هذا وذاك وعرفت أن أجل ما كان فى جيل المطربشين من شباب ١٩١٩ ، أنهم رغم شعورهم بالتفوق على ذوى العمائم فى حاضرهم ومستقبلهم ، ورغم ما اندس إليهم من وجوه الانبهار بحاضر أوروبا ، وأقصد بالانبهار هذا الشعور بالاعجاب الذى يبلغ حدا يميل بالمبهور إلى التقليد ويضعف لديه المقدرة على التوازن فى الاختيار ، رغم كل ذلك فقد كان موصول العروق بالرءوس المعممة ، مقرا ومعتزا بنبوته لهؤلاء ، وظل جيلا مشمولا فى غالبه بفكرة «القداسة» وأن العمل لايقابل الأجر فقط ، وإنما يقوم أداء «للرسالة» لذلك لم يكن غريبا أن يتردد على ألسنتهم وصف «القاعة المقدسة» سواء على دار البرلمان أو دار القضاء أو دار التعليم ، لأنه وصف استصحبوه من المهام التقليدية للمسجد ، تشريعا وقضاء وتعليما ، ورغم أن الموصوف بالقداسة لديهم كان من المؤسسات الوضعية الحديثة ذات النظم الوافدة ، فقد كانوا يجتهدون فى إخضاعها للهضم الفلسفى الحضارى الموروث .



كان الشيخ سليم البشرى شيخا للأزهر من ١٩٠٠ إلى ١٩١٧، مدة طويلة تخللها نحو أربع سنوات فصل فيها من المشيخة ، بسبب مواجهة حادة جرت بينه وبين الخديو عباس ، وجرت علنا بين المصلين بعد صلاة الجمعة ، وكانت تتعلق فى عمومها باستمساك الشيخ باستقلال الأزهر فى شئون تعيين واختيار رجاله .

لما كبرت وقرأت فى التاريخ فهمت المهمة التى قام بها الشيخ سليم البشرى فى هذه الفترة ، وفى إيجاز شديد ، كان الانجليز عندما احتلوا مصر فى ١٨٨٢ قد تركوا ثلاثة مجالات لم يأذنوا لأنفسهم أن يتدخلوا فيها تدخلا سافرا ، وهى الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف . ومع نهايات القرن ظهر لهم من استقرارهم ما شجعهم على طرق هذه المجالات ، وبدأوا بالمحاكم الشرعية ، وكانت معركة سياسية انتصر فيها الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية وقتها ، وتراجع الانجليز عن مسعاهم ، ولكنهم سعوا فَعُزِل الشيخ النواوى من منصبه ، وفصل بين مشيخة الأزهر ووظيفة الافتاء التى تبعت لوزارة الحقانية لتكون تحت إشراف المستشار القضائى الانجليزى ، وتولى مشيخة الأزهر الشيخ عبدالرحمن قطب ، وتولى الإفتاء الشيخ محمد عبده ، وذلك فى ١٩٠٠ .

عاجلت المنية الشيخ قطب بعد شهر من توليه ، فبادر رجال الأزهر

بترشيح الشيخ البشرى للمشيخة ، وبادر الخديو بتعيينه قبل أن يجمع الانجليز أمرهم على الضغط لاختيار من يناسبهم .

وأغلق الشيخ البشرى الأزهر فى وجه النفوذ الانجليزى ، وفى وقت كان النفوذ يتمدد ويتوغل فى كل مكان فى الحياة المصرية . وكان المجتمع الاوروبى قد اعترف وسلم بالأمر الواقع لبريطانيا فى مصر .

كما قام الشيخ بحراسة الأزهر من دعوات الاستشراق ونزعات التغريب ، وكان شديد الحساسية تجاه تدخل السلطات فى شئون الأزهر ، ومن هنا جاءت المواجهة بينه وبين الخديو وعبر بحدة عن رفضه تدخل الخديو فى اختيارات بعض الشيوخ بالأزهر . وفقد بذلك تأييد سلطة الخديو ، وكان فاقدا من الأصل تأييد سلطة الانجليز ، فعزل من المشيخة فى ١٩٠٢ ، وبعد نحو أربع سنين أو خمس عاد إلى المشيخة وفقا لشروطه كما جاء بكتاب «الأزهر الشريف فى عيده الألفى» وبقى فيها حتى توفى فى ١٩١٧ . وكما جاء فى هذا الكتاب أيضا كانت مواقفه تشهد بالشجاعة وبما يرفع من شأن الأزهر علماء وطلبة وأنه قاد الحركة الاصلاحية .

هذا كله تاريخ عرفته لما كبرت ، أما فى طفولتى وصباى ، فقد كانت بردة الشيخ تلف بيته بعد وفاته لأكثر من عقدين من السنين، وكانت قصة فصله تنقلها الروايات ، أكثر مما تحكى قصص وجوده ، وأن

سبب فصله هو الغيرة على استقلال الأزهر وكرامة العلم والعلماء ، وأنه فقد دخل شيخ الأزهر كراتب وحصص أوقاف، ولم يبق له إلا راتبه كشيخ للسادة المالكية ، وهو لا يصل إلى بضعة عشر جنيها فى الشهر ، لا تكفى أسرة متوسطة العدد من الطبقة الوسطى الدنيا ، ناهيك عما يلزم لأسرة كبيرة جدا والشيخ كان فى مثل سنه ومنصبه السابق وله أتباع «وبيته مفتوح» وكان عازفا عن المال وعن الدنيا ، ولما عاد إلى المشيخة براتبها وحصصها لم يفكر فى أن يكوّن أى ثروة ، وتوفى بعد نحو عشر سنوات ، ولا أعلم إنه ترك مايورث إلا بيته ، والأقدم فى حارة الشيخ سليم بالبغالة فى السيدة زينب والأحداث فى شارع البشرى بحلمية الزيتون ، حين ولدت ونموت إلى سن التاسعة عشرة .

رضعت فى طفولتى وتغذيت فى صباى بقصص تصور هذا الأمر ، وتدور حول معنى المعاناة والشموخ ومراعاة كرامة العلم وتبعة خدمة الدين ، وصار أشبه بالبداهات عندى أن القيمة الاجتماعية هى قيمة العلم والموقف ، وليست قيمة المال ولا السلطان ، كانت مسألة محسومة لا ترد عليها شبهة ، قد يكون الواقع مع كر السنين أظهر تحفظات هنا وهناك ، ولكن بقى «التكوين» مرتبطا بالمرعى الروحى والقيمى الأول .

●●●

وعن المدينة والريف ، فقد اتفق أن كانت «المدينة» تتمثل فى ضاحية حلمية الزيتون ، وكان الريف يتمثل فى قرية «الدير» بجوار شبين

القناطر وهى بلدة جدى لأمى ، وبين هذه المدينة وهذه القرية مالايزيد عن ثلاثين كيلومترا يقطعها قطار الضواحى أوْ السيارة فى زمن لا يصل إلى الساعة الواحدة . فلم تكن أى أجازة تزيد على يومين إلا ونقضيها فى القرية .

عرفت هذا الثالوث الذى تقوم عليه الحياة ، الدين والزراعة والأسرة الممتدة ، وفهمت دور حركات الطرق الصوفية فى إيصال الثقافة الدينية والتربية الوجدانية لكل المستويات الشعبية ، حتى أدناها مالا وتعليما وعملا .. ورأيت نمطين من التعليم ، نمطا يعطى الريف ويضيف إليه ونمطا يأخذ منه وينقص . الأزهر يجذب الريفى ليعلمه قدرا يكثر أو يقل ثم يعيده إلى قريته ليشكل بؤرة إشعاع ثقافى بين أهله ، والتعليم الحديث طريق الإلتحاق به هو طريق الابتعاد عن الريف ابتعادا لا رجوع بعده . الأزهر يربى للقرية صفوتها ، والتعليم الحديث يجرد القرية من صفوتها .

وعرفت المجتمع الثقافى الريفى بشيوخه المقيمين ورجال الطرق، وبالبعض من عابرى السبيل من الغرباء الذين يطرقون بابك بليل ، أو بالأصح يدخلون بلا طرق لأن الباب مفتوح ، فيجدون المأوى والمأكل والمبيت وكلمة الترحيب ، دون أن يسأله أحد من هو ومن أين أتى وإلى أين يذهب ؟ ، إلا أن يتكلم طواعية . وهم فى الغالب فقراء ، ولكن فيهم

أنصاف متعلمين أو أكثر . من الحديث مع بعض هؤلاء ، عرفت فى صباى لأول مرة من هم العرب العاربة أو العرباء ، ومن هم العرب المستعربة ، وأن إسماعيل عليه السلام كان من المستعربة ، وسمعت عن قحطان وعدنان وجدهم ، ومنهم من يروى من شعر الصوفية .

كان مايتردد عل الأفواه معا مما يتناقل بالرواية عن المناقب والمعجزات ، وفصلتنى عنه السنون ، إذا بى أفاجأ عند قراءاتى أدب الصوفية بعد نحو عشرين عاما ، أفاجأ به في كتب أمثال الإمام عبدالوهاب الشعرانى ، إلى هذا الحد كانت المعارف تنتشر بالتفاعل لتصوغ العقول والنفوس والقلوب ، الأزهر والصوفية والموالد كلها أواصر الربط الثقافى بين الثقافة التقليدية والأحياء القديمة فى المدينة والريف .

وفى الجانب الآخر ، كانت ثقافة المدينة الحديثة ، نجدها فى النخب الاجتماعية الجديدة ، وأساليبها الحديثة فى نشر الثقافة والمعارف ، والصحافة وما تنقله من صور المجتمع الغربى ، والاذاعة والأغانى العاطفية ونغمات الموسيقى الأوروبية ، والمسرح وتراجم الأدب الأوروبى ، والسينما ، السينما الأمريكية التى استهوت شباب الأربعينات بعد الحرب ثم جاء ت بجوارها السينما الفرنسية والايطالية مع بدايات الخمسينات .

من مدرسة الزيتون الابتدائية بحلمية الزيتون إلى مدرسة مصر الجديدة الثانوية إلى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، أى من السابعة من العمر إلى التاسعة عشرة والنصف ، أى من اكتوبر ١٩٤٠ إلى مايو ١٩٥٣ ، كان هذا طريقى فى مؤسسة التعليم ، طريق عادى ليس فيه جديد عن زملائى ولا غريب ولا شاذ ، بدأته أقرب للعزلة والانطواء ، وأنهيتــه وقد تجاوزت هذين الأمرين تقريبا، ولكن بقى لدى منهما ولايزال ، عرفت اتقاد العواطف وتوهج الوجدان ، ولم أجد ملاذا لى معهما إلا الأدب العربى ، سواء الشعر أو النثر الفنى ، ثم الموسيقى الغربية ، أما الأدب العربى فكنت أتلقاه وأحاول معالجته بينى وبين نفسى ويمنعنى الحياء أن أظهر أحدا على ما أكتب . وأما الرسم فكرهته وكرهنى ، وكان مدرس الرسم يكثر من ضربى فى المرحلة الدراسية الأولى ، ولم أعرف قط هل كانت قسوته بقدر فشلى أو أكثر أو أقل كل ما أعرفه إنه ترك لدى شعورا بغربتى التامة عن هذا المجال ، ولعل ذلك ماصرفنى بكل توهجى الوجدانى إلى الفنون الكلامية وحدها ، فصارت هى وسيلة التعبير الوجدانى الوحيد .

ومنذ الثانية عشرة بدأت أعرف فى القرية شعر شوقى وحافظ ، وسقط الزند لأبى العلاء وديوان المتنبى وديوان الحماسة ، وصهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى وكتابات طه حسين والعقاد وزكى مبارك

وعبدالعزيز البشرى ، ومنذ الرابعة عشرة بدأ إختيار الأصدقاء يجرى وأهم عناصره العنصر الثقافى .

فى الثانوية العامة درسنا كتاب «أوروبا فى القرن التاسع عشر» لمحمد قاسم وحسن حسنى ، وكان من أروع الكتب التى تغذت بها عضلاتنا الفكرية ورؤيتنا للتاريخ والمجتمع ، وخاصة أحداث الثورة الفرنسية ووحدة ايطاليا والمانيا ، وكان من يدرسه لنا الاستاذ محمود خفيف رحمه الله ، وهو مؤرخ وشاعر وأديب ، وكان وطنيا وكان ديمقراطياً وكان شجاعا ، وكان شامخا ، ألا ما أعذب الشموخ .

ثم جاءت مرحلة الجامعة وكلية الحقوق ، أحببت القانون ، واخترته دون تفكير فى غيره ، فكان كالقدر ليس له بديل ، ولقد لقينى ولقيته ، وأحببته وأحبنى . ما من أستاذ درست عليه إلا نفعنى الله بعلمه ، ولكن يظل للشيخ عبدالوهاب خلاف أثر خاص ، أثر تغلغل فى نسيج الدماغ وفى عضلة المخ ، ولايزال ، لم يعرفنى قط ولم يرنى قط من بين المئات الذين يحضرون له ، ولكن هكذا أثره . كان جادا دائما فيه صرامة منهج وفقه ، وفيه دقة موازين الذهب فى اختيار اللفظ ، وفيه اقتصاد هائل فى استخدام الألفاظ ،ومقاصد كالشمس واضحة .

أثناء الدراسة ، كان يوم نزهتى فى الثانوية العامة يوم أقرأ فى كتاب «أوروبا فى القرن التاسع عشر» ويوم نزهتى فى الحقوق يوم أقرأ فى كتاب الشيخ خلاف .



عدت أقرأ وأناقش لأضبط أفكارى
وأعيد اكتشاف ذاتى

عاصرت النظام الملكى الحزبى من الميلاد إلى التاسعة عشرة من العمر إلا شهورا ، واستغرقت مرحلة هذا النظام المرحلة المدرسية من عمرى، إلا العام الأخير منها ، وعاصرت نظام ٢٣ يوليو بين التاسعة عشرة وبين السابعة والثلاثين (عندما بدأت نهايته بوفاة عبدالناصر فى سبتمبر ١٩٧٠) واستغرقت سنى العمر من الشباب إلى بدء الكهولة ، ثم مرحلة ما بعد ذلك ، وهى لاتزال ممتدة ، سواء فى الحياة العامة أو فى عمرى (حتى كتابة هذا السطر) .

و «التكوين» هنا يتعلق بالمرحلة الأولى ، والباقى هو نمو أو إكمال أو تغيير أو تعديل ، يرد منسوبا إلى الأصل، والتكوين عندى تجمعت عناصره الأساسية فى المرحلة الأولى، التى تفتحت عينى فيه على صورة مصر فى الحرب العالمية الثانية ، ثم كان الحدثان التاريخيان الكبيران اللذان عرفتهما بلادنا مما أجرى على هذا التكوين تغييرات هيكلية ، وهما حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ ، أليس عجيبا هذا ، نحن الذين نأكل الطعام ونمشى فى الأسواق وننام فى بيوتنا ونردد الفكاهات، أليس عجيبا أن تكون الحرب هى العنصر الأساسى فى تشكيل مزاجنا وهويتنا ، نظرت إلى الحرب الأخيرة ، حرب الخليج فى ١٩٩١ بهذه العين ، ورأيت جيل أولادنا يولد فى حرائقها ، رأيت الحدث الكبير يدور

ويجذب إليه قلوب الشباب ، سواء الجادة أو اللاهية ، عرضها على النار ثم أعادها وهى مشحونة بما لن ندرك فحواه إلا فى الآتى من الأعوام، رعاهم الله وهداهم .

مصر والحرب العالمية الثانية ، هذه هى نقطة تقاطع المكان والزمان مع بداية تفتح ادراك الصبى بجماعته وأمته ، وأعوام ٤١و٤٢و١٩٤٣ أعوام تقدم الجيوش الألمانية فى صحراء مصر الغربية ومعارك الصحراء ومعركة العلمين ، وأعوام إغارات الطائرات الألمانية على الاسكندرية والقاهرة ، وعلى معسكرات الانجليز فى مصر ، ومعسكرات الانجليز والحلفاء فى «حلمية الزيتون» تجعل هذه الضاحية هدفا مستمرا لطائرات الألمان و«للقنبر» ، فضلا عن قرب ذلك كله لمطارات الماظة ومعسكراتها فى مصر الجديدة ، وأبى يوقظنا مع إنطلاق صفارات الانذار بالليل ، لنرتدى ملابسنا ونذهب إلى «المخبأ» المجاور الذى يفصلنا عنه شريط سكة حديد «خط المرج»، وكان يحمل معه حقيبة صغيرة ، فيها متاع قليل وبعض الأوراق ، كان هذا بداية للاحتكاك بالوعى الجماعى وبالأحداث العامة .

لم تكن مصر فى هذه الأيام محتلة فقط، بمثل ما عرفت من قبل ، لأن الاحتلال كان فى هذا الوقت فى أشد حالات الحركة. وكان ذا وجود كثيف ، وحركته تضاعف من كثافته ، فالنقود تزداد حجما بقدر سرعتها فى التداول ، ولم يكن الاحتلال انجليزيا فقط ، بل شارك الانجليز

أصناف وألوان من جند الحلفاء ، من الأمريكيين والهنود وعسكر جنوب أفريقيا ، ولم يكن يخلو شارع منهم ، ومنهم من يشاهد مترنحا من الخمر فى الربع الأول من الليل وأشجار الشوارع تطلى جذوعها بالجير الأبيض ليسير الجندى الضال على هداها إلى المعسكرات .

وكان هذا الوجود يثير القلق لدى الناس بعامة ، ويثير الفزع لدى النساء، تخفن به بعضهن بعضا ، وسيرهن مع الرجال ولو فى ربع الليل الأول يعمل حسابه ويدخل فى مجال الأمور الخلافية ، والحرب تظهر الخبئ وتكشف المستور من الحقائق ، لذلك بدا الوجود الاستعمارى بصورته الغليظة أمام العيان بغير غطاء وبغير تجمل ، وظهرت شخصيتان نمطيتان فى الوعى الاجتماعى ، يتحدث عنهما الناس حديثا متصلا وتكتب عنهما الصحافة وترسمهما خطوط الكاريكاتير ، شخصية «غنى الحرب» بجهله وفظاظته وسوقيته وغناه ، وشخصية «آرتست الحرب» بإباحيتها ودونيتها ، وكل منهما ثمرة وجود أجنبى بغيض وثمرة حرب «لا ناقة لنا فيها ولا جمل» كما تردد على الألسنة وقتها تعبيرا عن هذه الحرب .

التقط الوعى سريعا ، فى حدود قدرة ابن الثامنة أو العاشرة – ما أشكل وما لم يشكل من أحداث بلاده ، مما كان يثير خلافات بين الكبار ومما لم يثر ، أزمة حكومة حسين سرى وأزمة الخبز ومظاهرات «أقبل ياروميل» ، ثم محاصرة الدبابات البريطانية لقصر الملك وتولى النحاس

الحكم (٤ فبراير ١٩٤٢) ، خلافات الملك والنحاس ، وقصص سيطرة النحاس على الحكم وقصص فساد الملك الشاب .

وما أن اقتربت من الحادية عشرة إلا وكان خياري الوطني والديمقراطي محسوما ، وليس لي في ذلك فضل ، ولا دلالة لذلك إلا أنني كنت أسير في سياق ، وكان السياق يقود المصريين بعامة إلى هذا الخيار، أن يسقط جسم على الأرض ، فهذا لا يحتاج للتفتيش عن سبب لأنه إملاء السياق الذي تحدثه الجاذبية في كل الأجسام ، إنما ما يحتاج إلى تفكير وتدبر هو أن يحدث العكس فيطير الجسم من أسفل إلى أعلى .

بعد الحرب كانت كلمة «الجلاء» تحمل أعذب النغم ، علقت بها الشارات على الصدور ، ونسجت على أشرطة الحداد التي كانت توضع على الأكمام ، وهتفت بها المظاهرات ، وسقطت تحت وطأتها حكومات وتألفت حكومات .. كل هذا معروف مشتهر ، وأثره في «التكوين» منظور، ولكن النقطة التي قد تكون خفية ، عن هذا الجيل وعن أجيال سبقت ولحقت ، هو أن يتبلور الوعي في ظروف مفارقة تكاد تكون تامة بين المثال المحمول في الصدور وبين ما يجري في الواقع ، وأن تقوم هذه الفجوة الواسعة بين الرجاء وبين الفعل ، وليس الهول في سعة الفجوة ولكن الهول كله في حركة الاتساع والتدابر بين حوافها .

سألت نفسى مرة ، لو كنا نشأنا فى عهد ليس فيه احتلال أجنبى ، وفيه حاكم لا تجتمع الأمة على تجريحه كالملك فاروق ، هل كان نوع التربية السياسية يختلف ، والمزاج ونوع ردود الفعل تختلف ، من أعقد الأمور الاجابة على الاسئلة الافتراضية ، رحم الله فقهاء نا القدامى من الذين كانوا يرفضون الجواب على سؤال يبدأ بقول «أرأيت لو كان .. ».

★★★

انتقل للاشارة الى الوضع الاجتماعى الاقتصادى ، لقد نشأت فى أحضان الطبقة الوسطى من جهتى الأب والأم ، وأنا قاهرى المولد ابن أب قاهرى المولد أيضا ، نزح جدى لأبى من بلدته «محلة بشر» بالبحيرة الى القاهرة طلبا للعلم بالأزهر ، ولم يعد الى بلدته ، كان من أسرة ريفية فقيرة على عادة كل علماء الأزهر من قبل ، ومن بعد ، وولد أبناؤه بالقاهرة ، ومن ولد بالقاهرة لن يربطه بالريف من بعد أبيه الا أحد أمرين ، الملكية الزراعية أو المقبرة ، ولم يكن للجد ملكية زراعية ، ثم انه دفن فى مسجد السادة المالكية حيث توجد قبور الأئمة ابن القاسم واصبغ واشهب ويحيى بن يحيى الليثى والقويسنى وعليش ، وأعد لأولاده مقبرتهم عند جدار المسجد من الخارج ، أما أقارب الشيخ فكلهم شأنهم شأن غيرهم وفود من القرية الى المدينة، والأسرة كلها كبارهم

وصغارهم ، أباعدهم وأقاربهم، اتخذوا طريق التعليم والمهن ، وكلهم ممن يعتمدون فى معاشهم على رواتبهم من وظائفهم ، فهم من ذوى الدخل المحدود ورزقهم يأتيهم من عملهم الذهنى والمهنى ، لذلك يكتسبون مكانة فى المجتمع تفوق وضعهم الاقتصادى ، وكان امتلاك بيت السكن مما أبقى على الطابع الممتد للأسرة عشرات السنين ، وقد بقيت هذه الروابط بعد تهدم البيت والانتشار فى الأحياء .

والجد للأم يملك أرضا زراعية بحجم طيب جدا ، ولكنه كان وحيدا بهذا التميز فى أسرة فقيرة أفنى عليها الدهر ، وصار رجالها الى الملكيات الصغيرة جدا ، وبعضهم الى العمالة فى الأجيال التالية ، والبيت كان بيت أسرة ممتدة ، ومن علاقات القرابة ما يختلط بعلاقات العمل ، والبيت مفتوح الباب من الفجر الى مابعد العشاء ، وفى رمضان الى السحور ، المحصول يوزع أكثر من نصفه على الأقرباء، وعلاقات القرابة أقوى كثيرا من الانفراد الطبقى ، وهكذا بقيت الى النهاية حتى وفاة الجد ووفاة الخال الوحيد ، لذلك كان الوضع الاقتصادى للأسرة هو الوضع المستور للأسر المتوسطة ، وكنا نحن نعتمد فى كل حياتنا على راتب أبى الذى تدرج فى القضاء المصرى الى آخر الشوط وتوفى قبل المعاش بعامين فعشنا بمعاشه ، أما دخل الأم فكان يساعد على غير استمرار ولا اطراد على ادخال بعض التحسينات على وسائل العيش، ومن غالب ثمنه أمكن بعد ذلك تأمين بيت مملوك للسكن .

وهنا تبدو ملاحظة ، أننا عندما نتحدث عن الوضع الاجتماعى بعامة أو الوضع الطبقى بخاصة ، لابد أن يكون واضحا فى ذهننا وحدة الانتماء الاجتماعى التى نقصد بيان وضعها ، وأن وجود أسرة ممتدة تتباين فى داخلها مستويات العيش إنما يقضى إلى تداخل وحدات هذه الأسرة وتخللها لأنماط من العيش والتكوين الوجدانى ، وما يثور من خلافات اقتصادية بين وحداتها إنما ينزل منزلة الخلافات الأسرية الداخلية ، ويبقى وضعها الاجتماعى جامعا لهذا التباين متأثرا بالطابع الغالب وليس بالمفردات .

نستطرد إلى نقطة أبعد ، وهى أن تقدير الوضع الاجتماعى إنما يتأثر بنظرنا نحن للوحدة الاجتماعية التى تريد تحديد وضعها ، وقد تختلف النتائج فى تقدير واقع محدد لا باختلاف هذا الواقع ، ولكن باختلاف تحديدنا نحن للوحدة محل الفحص ، ولكى نحدد هل فلان غنى أو فقير ، ريفى أو مدينى ، علينا أن نعرف من هو ، هل هو فرد أو أسرة «زوج وزوجة وأولاد» أو أسرة ممتدة ، أو عشيرة بمعنى أن الحكم بالصورة الواقعية يتوقف على تحديد اطار هذه الصورة ، وهذا التحديد ينبنى على «فكرة» فى الأساس ، فالفكرة تحدد الاطار والاطار يعطى للواقع معناه .

مثال ذلك الحديث عن الاقليات فى المجتمع ، فالحكم على جماعة

بأنها أقلية فى المجتمع قد يكون حكما طبيعيا وقد يكون مصنوعا ، يكون طبيعيا إذا كانت الأقلية تتخلل الأكثرية في كل مواضعها ولا تنفرد عنها ، وفى أوضاع أخرى لا تكون كذلك ، فأنت مثلا ترسم الحدود السياسية لتركيا بطريقة تجعل الاكراد أقلية ، فى حين أنها لو رسمت بطريقة أخرى لكانوا فى الإطار الآخر أغلبية ، وكذلك شيعة «جبل عامل» فى لبنان ، يتوقف حسابهم كأقلية أو أغلبية على «الفكرة» التى تسقطها أنت على الواقع وترسم بها حدود دولة معينة .

★★★

لم يكن بعيدا عن ذهنى فيما أعى أن أكون ممن يقومون بواجبهم العام نحو الجماعة التى ينتمون إليها ، ولكن المسألة كانت من خلال أى نشاط ، وأى نوع عمل يمكن أن أؤدى زكاة مواطنتى ، كنت مستقر الفؤاد على أن يكون أدائى لهذا الواجب من خلال عملى المهنى وتخصصى القانونى ، ورغم أن حواسى وأجهزة الاستقبال لدىَّ بالنسبة للمشاكل العامة وأوضاع الجماعة فى السياسة والاقتصاد وغيرهما كانت قوية عن بداية الادراك ، فقد كنت أعد نفسى لنوع «أداء» متخصص ، وكنت متأثرا جدا بالأداء الوظيفى القضائى لأبى الذى توفى وأنا فى الثانية بكلية الحقوق قبل أن أرتوى منه تماما ، وبقيت سنين عطشان إليه .

أسعدنى أى سعادة أن عينت فى مجلس الدولة ، وبدأت عملى الفنى بآمال شاب وحماس شاب وصحة شاب ، كانت الشهور الأولى عسيرة علىَّ بسبب ما فطرت عليه من ميل للانطواء وبطء فى الاعتياد والاندماج ولأننى لم أكن بعد قد جربت نفسى ولم أكن أعرف بعد فيما أصلح وبما أصلح ، ولكننى بالأمل والحماس والصحة شققت طريقى ، وعوضنى عن كل نقاط ضعفى شغف بالإطلاع واستغراق فى العمل ، فعرفنى المحيطون بى فى العمل من خلال الورق قبل أن يعرفونى من هذه المعايشة اليومية التى كانت قائمة ، وفى الاستغراق فى العمل بدأت اكتشف نفسى وأتحسس ملكاتى ووجوه القوة والضعف ، لما كشفت ذلك أخافتنى قدرة الحجاج والجدال أن تئول إلى اللدد واللجاجة ، ومازلت أذكر يوم ذهبت أصلى فى مسجد المالكية بين فترتى العمل الصباحية والمسائية ، وعاهدت الله سبحانه بما عبر عنه القرآن الكريم فى سورة القصص «رب بما أنعمت علىَّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين» ، كنت فى الثانية والعشرين من عمرى .

قرأت وقتها كثيرا فى القانون ، وعرفت التردد على مكتبة كلية حقوق القاهرة ومكتبة محكمة النقض ومكتبة نقابة المحامين ، وطالعت مجلات القانون القديمة ومؤلفات الأساتذة من الجيل الذى سبقنى ، واستأذنت رئيسى فى العمل أن استخرج نسخة من مفتاح مقر العمل ، وكان فى

ميدان عابدين ، وكنت أمكث فيه وحدى أو مع زملاء لى فى كل وقت وفى أى وقت من نهار أو ليل أو أيام أجازة ، عشت القانون عيشا ، وأمكن بذلك أن تلين مادته معى وتتطوع ، ألا ما أقوى الشباب .

جرت الأمور على هذه الوتيرة ، ثم فجأة حدثت زلازل ١٩٥٦ ، من تأميم قناة السويس فى يونيه ١٩٥٦ إلى العدوان الانجليزى الفرنسى - الاسرائيلى فى أكتوبر إلى جلاء المعتدين فى ديسمبر .. ستة أشهر تحولت بها من حال إلى حال ، وبقيت تحوك فى صدرى عاما بعد عام والسؤال يلح من أنت وأين وماذا أنت صانع ، أن يرى الإنسان بلده تجتاح ويغزوها الأجنبى ، لهو أمر جلل ، ومن ذا الذى يحفظ توازنه مع هذه القوارع الكبرى ، وكيف تسير حياتنا من بعد فى مألوف سيرها السابق .

القانون يبنى على أرض المجتمع ، الضوابط والحدود والقيود ، ويرسم قنوات الاتصال ، ويحدد مراكز الأفراد والجماعات بين بعضهم البعض بضبط مجموعات الحقوق والواجبات المتبادلة وبين المؤسسات والهيئات والكيانات التنظيمية ، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .. الخ ولكن ما شأن كل ذلك إذا أتت قارعة من خارج هذا النسق فدكت الأرض دكا دكا ، وهل يكفى وفاء لدين الجماعة أن نقدم إليها ما تريد أن نقدمه ، أم يتعين أن نبذل لها من نوع ما تحتاجه فى كل حالة مخصوصة .

كان هواى أن أجيب على هذه الأسئلة بما يعيدنى إلى سابق عهدى وعادتى ، ولكن كأنها يد قوية شالتنى وحطتنى لأجد نفسى طالبا من نفسى ألا اكتفى بجهدى المبذول فى القانون ، وأن علىَّ أن أصرف فضل نشاطى فى التهيؤ للمشاركة فى الجهد العام المطلوب للجماعة من خارج التخصصات الفنية ، وكان هذا يقتضى برنامجا تفصيليا للاحياء وإعادة البناء الذاتى ، فى السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ وعلوم الاجتماع مع مطالعة ما تيسر من آداب الشعوب الأخرى، واقتضى ذلك منى أن أضمر غالب علاقاتى الاجتماعية وأغلق على نفسى لأستغل كل ساعة زمن ، أغلق على نفسى إلا من بصيص ضوء وهواء ياتينى من عدد محدود جدا من الصداقات الوثيقة .

لم تكن آمال الشباب هى ما حركنى ولكنه كان شعورا مغذياً بالواجب انضاف إلى حماس الشباب وصحته ليجعلنى أداوم القراءة والنظر والمتابعة فى شبه تفرغ لذلك عددا من السنوات التالية ، ثم هممت بالكتابة فى الشئون العامة بما يعرفه من اهتم بمطالعة ما أكتبه فى هذا المدى من السنين بدءا من عام ١٩٦٤ ، وكنت بلغت الثلاثين من عمرى .

وفى عام ١٩٦٧ ، حدثت النقلة التالية بفعل ما أصابنا من هزيمة فى حرب يونيه ، ومثل هذه النقلات لا تحدث فى يوم وليلة ، إنما يتسرب

أثرها إلى النفس وتحوك فى الصدر وتذيب ما تذيب من البناء الفكرى الثقافى العام وتبعد ما تبعد وتعاد صياغة النفس والفكر على صورة معدلة ، وصعوبة هذا الأمر أنك تصير دارسا وموضوعا للدراسة فى الوقت نفسه ، تصير حكما وموضوعا للحكم ، وتصير مغيرا ومتغيرا معا ، والأصعب من ذلك أنك عندما تبدأ مناقشة مشكلتك ، وقد ترى تنحية بعضها وتعديل البعض الآخر ، إنما تجرى هذه الأمور ولم تستقر لديك بعد مسلماتك الجديدة ، فى مرحلة الانتقال هذه تجد نفسك كالسائر بين الكواكب ، تضعف جاذبية المسلمات الأولى لك وتقوى الأخرى ، ولكن فى مرحلة معينة ترى نفسك كالتائه بين جاذبين ضعيفين، هنا لن يأخذ بيدك إلا هداية الله جل شأنه ، فى هذه المرحلة بالضبط توقفت عن الكتابة العلنية ، وعدت أقرأ وأناقش وأكتب لنفسى أحيانا لأضبط أفكارى ثم أعيد اكتشاف نفسى مما كتبت . وبدل آمال الشباب ظل الشعور بالواجب ، وبدل حماس الشباب حلت مسئولية التصويب واستكمال النقص ، وقمت بذلك بصحة كهل لم يحتمل قلبه الضغط فانجرح .

وقد أشرت إلى بعض هذه التجربة بما قدمت به عددا من الكتب التى صدرت لى بعدها كالحركة السياسية ، ودراسات فى الديمقراطية ، وبين الإسلام والعروبة .

ومازلت على هذا «التكوين» والأمر بيد الله سبحانه .

ألفريد فـــرج

كل فنان له أسراره وحياتـــه الخاصة

أكذب عليك إن ادعيت أنى أعرف كيف يتكون الفنان - وأكون أكثر ادعــاء لو زعـمت مـعـرفـتى بظروف تكويني أنا نـفـسى كـفنان وكـاتب مسرحى ..

فـالفنان لا يتكون فى المعمل باخلاط وأمزجة من المواد الكيـمـاوية المختلفة ، وإنما يتكون بتأثره غير الملحوظ بظروف حياته ذاتها .

وظروف حياة الفنان هى تراكمات جزافية ومؤثرات بالمصادفة .

ولكن الموهبـة الخـاصـة لهـا دور مـهم فى تحـويل هذه المؤثرات إلى خبرة فنية وقدرة على صناعة الإبداع .

ويعتمد تكوين الفنان على دعامتين جوهريتين : القدرة على الملاحظة والقدرة على التعبير .

والقدرة على الملاحظة تعيش وتترعرع وتنمو فى حب الحياة . وحب الطبيعة ، وحب الناس ، وحب الأيام .

الفنان إنسان يدقق النظر باستطلاع وشغف ، ولا يمكن أن يكون الانسان الذى يشيح بالوجه ، أو يعرض بالكتف ، أو يمضى فى غير مبالاة .

وهذا النظر الشغوف وهذه الملاحظة الدقيقة للآخرين ، وحب الاستطلاع ، والاهتمام .. هى قوام تجربة الفنان .

والقدرة على التعبير تصنعها قدرة الفنان على تذوق الفنون كلها .. الآداب .. والموسيقى والمسرح والتشكيل ، ومحاولته المبكرة لترويض موهبته للتعبير على نسق ذوقه وأسلوب تذوقه .

فقدرة التعبير تولد وتنمو فى مناخ أدبى وفنى متكامل ، ومن حب الفنان الصغير للفن وتذوق جمالياته ..

هذا حديث عن الأصول والقواعد .. ولكن كل فنان له سره ، وحياته الخاصة ..

عشق للموسيقي

فأنا أتذكر جلستى وأنا طفل صغير فى الرابعة من عمرى تحت قدمى عمى إلياس وهو يحتضن العود ويعزف عليه تقسيمات ما . ثم يغنى أغنية لسيد درويش ، فيما أذكر ..

وكان أبى أحيانا يصاحبه على الكمان وهو نفس الكمان الذى فشلت فيما بعد فى تعلم العزف عليه وأنا فى الثانوية .

ولم يكن عمى أو أبى عازفين ماهرين ، ولا كانا هاويين مثابرين عاشقين للموسيقى ، وكانت أمور الحياة العادية تصرفهما عن هوايتهما أغلب الوقت . ولكن لعل لمسة خفيفة من موسيقاهما قد مست روحى فى ذلك الوقت المبكر ، ونسيتها بعد ذلك ولكنها لم تنسنى وكمنت فى مكان ما بالنفس . محفورة فى ذاكرتى البعيدة ، إن أبى - رحمه الله - كان محدثا جذابا يدهش السامعين بطريقته فى القص والتعبير فينصتون لحكاياته كأن على رءوسهم الطير .. وكانت حكاياته تجرى مجرى النميمة وأبطالها غالبا من الأقارب أو الجيران أو زملاء عمله أو أصدقاء شبابه .

أبى والمسرح

العجيب أنى أتذكر الآن بوضوح أنه كان مغرما برواية تلك الحكايات بتفاصيل الحوار ، وكان يحرص على تلوين لهجته مع اختلاف الشخصيات ، فكأنه يقيم مسرحا أو شبه مسرح يقوم فيه بنوع من فن «المقلداتى» الشعبى القديم .. ويلوح بيديه ليؤكد ما يقول .

أتذكر أن من عشاق هذا الأسلوب فى الرواية ممن استمتعت

بالاستماع إلى حكاياتهم فيما بعد الشاعر الكبير كامل الشناوى وتوفيق الحكيم نفسه والكاتب الساخر محمود السعدنى .

وقد نسيت حكايات أبى التى استمتعت بها فى صباى ، إلا أنها ربما لم تنسنى ..

كُتّاب أحببتهم

فى صباى جريت وراء جبران خليل جبران ثم رمحت وراء توفيق الحكيم وقعدت لطه حسين وأعرضت عن العقاد وأعجبنى الاسلوب المرح السهل لابراهيم المازنى ، وقرأت «زينب» هيكل أو «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى ، وارهقتنى نظرات وعبرات المنفلوطى ، وأحببت نداء المجهول لمحمود تيمور ويوميات نائب فى الأرياف للحكيم وقنديل أم هاشم ليحيى حقى ..

ولكنى لم أكن أفكر إلا فى الشعر . أحببت أن أكون شاعرا من المدرسة الحديثة ، وكنت قد التحقت بكلية الآداب القسم الانجليزى واختطفنى باقتدار .. الشاعر الكبير ت . س . إليوت ، وكادت روحى أن تؤخذ للشعر بتشجيع زملائى الطلبة ..

ولكنى كنت فى ذلك الوقت ممثلاً هاويا فى المدرسة الابتدائية والثانوية وفى الجمعيات الخيرية ..

وقد اكتشفت من خلال فن التمثيل أسرارا صغيرة من هذا الفن

الكبير تعلقت بها ، وتمردت بسببها على أسلوب المخرجين المدرسيين كالآتى .

كان المخرج المدرسى - وهو عادة مدرس أو كالمدرسين - حريصا على إرضاء حضرة الناظر والهيئة التعليمية وأولياء الأمور ، فكان يضع الحكمة أو الموعظة البليغة فى ذروة المسرحية حتى يؤكد للجميع أن فن التمثيل فن أخلاقى وتربوى وجدير برعايتهم .

ولكنى أنا بالروح المتمردة ، ومن خلال انتظامى فى التدريبات واجتهادى فى تقمص روح الشخصية كنت احس بالقلق من هذا الروتين ، وأحس نيابة عن الشخصية أن هذا ليس وقت الحكمة والموعظة، وأن الذروة الساخنة التى ستسبق انتحار البطل أو موته فى المعركة الفاصلة هى اللحظة الدقيقة للمونولوج الذى تعبر فيه الشخصية عن ذات نفسها وهى فى حالة التهاب ! .

الخروج عن النص

كانت هذه أول مرة أعرف فيها وارتكب فيها جناية الخروج عن النص وأعرف مكافأتها وأعرف عقابها .

فقد تآمرت مع نفسى لتأليف عشرة أسطر ، بديلا للموعظة ، عبارة عن مناجاة للنفس وتنديد بالحياة وترحيب بالموت ، وفى اللحظة صفر ..

دفعت بيدى أحد زملائى الممثلين لأسرق منه ضوء الكشاف الساطع وألقيت مناجاتى بتدفق وحرارة .

أخذت مكافأتى بانتباه الجمهور فجأة بعد أن كان قد داعبه النعاس ثم تصفيقه الحار لى ..

وأخذت عقابى بالفصل من فريق التمثيل ..

أول مرة أكتب للمسرح كانت هذه الحادثة الصغيرة ..

وقد اشتهرت بعدها - رغم ما نالنى من عقاب - فى دوائر الهواة ، فكان الممثلون يأتون إلىّ خفيةً من وراء المخرج - خاصة فى حفلات الجميعات الخيرية - لأجرى ما أراه من تعديلات على النصوص التقليدية لمسرحيات ذلك الزمان . ونصنع ذلك خفية عن المسئولين أو المخرج ، والممثلون ينسخون المسرحية ، ويخفون بعدها النص الأصلى ، وينسخون النص المعدل ..

وقد بلغ من اعجاب زملائى بى وقتئذ ، إنهم كانوا يطلبون منى إخراج بعض المسرحيات للجمعيات ، وبلغ من اعجابى بنفسى والعياذ بالله أن قبلت وفعلت .

أصبح المسرح مهنة سرية لى ، وتقاضيت المكافآت منه ، وعدلت فيما أذكر مسرحية «صلاح الدين الأيوبى» ومسرحية «عدالة عمر» ومسرحية «جنفييف» وهى من المسرحيات التى كانت متداولة فى هذه الحفلات السنوية الرسمية بين الهواة فى الاسكندرية .

ولكن قـراء تى شكسـبيـر ومـولييـر تلك السنوات وانبـهـارى بهـمـا وبغـيـرهـمـا من مـؤلفى الغـرب ألزمنـــى حـدى فـتـوقف نشـاطـى فى هذا الميدان ، ونسيته بعدها .. ولكنه لم ينسنى على الأرجح .

هذه المهنة السرية دفعتنى للاستزادة منَ المشاهدة المسرحية - فضلا عن اهتمامى بدروس الدراما فى الكلية .

ربما أكون قد شاهدت وقتها فى منتصف الاربعينات وبعدها معظم مسرحيات الريحانى ويوسف وهبى وجمعية أنصار التمثيل .

وفى اتجـاه هذا الفـضـول المسـرحى لم أدع فـرقـة اجنبـيـة تزور الاسـكندرية ويفـوتنى مـشـاهدتهـا .. وسـاعدنى فى ذلك مـعـرفـتى لغتين ..

شـاهدت الكومـيدى فـرانسـيـز والأولد فـيك والأوبرا الايطالية وحـفـلات شكسبيـر التى كان ينظمها المعـهد البريطانى وفرقة اتيليه الفرنسية .

هذا لا أنساه إلى اليوم ، وأتمنى ألا يكون أثره قد نسينى .

بين الأدب والمسرح

نجاحى كشاعر فى كلية الآداب دفعنى دفعا إلى الأدب ، ولكن فن المسَرح لم يطلق اسـرى .. لذلك كـان مـثـالى ونموذجى هـو تـوفـيق الحكيم ..

أحببت أن أكون مثله فنانا لكن فى زمرة الأدباء .

الفيلسوف والولد الشقي .. ولم لا .. ؟

اشتغلت واجتهدت فيما كان يشغل توفيق الحكيم ويجتهد فيه من مشاكل اللغة المسرحية ، وقضية البرج العاجي والفن الجماهيرى ، الفن الرفيع النافع والفن الجذاب المتميز .. إلى آخره .

استغرقت في القراءة بالعربية والانجليزية والفرنسية التي كنت لا أجيدها وأبذل جهدا في قراءتها . وعرفت معظم المسرحيين في مسرحياتهم الأصلية والمترجمة وفتنت بتشيكوف وبيراندللو وابسن وميللر وشو .. ثم زحفت من هؤلاء على المعاصرين يونسكو واوثربورن وأنوى وبرخت وفايس مع الزمان .

قرأت عن ستانسلافسكى والملحمية والعبث والمسرح الحديث ..

ولكن شيئا ما لم أنسه ولم ينسني وهو اشتراكى فى مظاهرات الطلبة ضد الاحتلال الانجليزى وضد العهد الزائل كله .

كنت أقرأ صحف المعارضة بنهم وأناقش الأوضاع السياسية وأشعر أننى يجب أن أكتب ، أن أكون صادقا مع نفسي الميالة إلى وجود الفنان فى الصراع الاجتماعى والسياسى .

قرأت فكرة الالتزام عند سارتر ثم عرفت أدبيات الآداب والفنون عند الماركسيين ، وأشفقت على نفسي من الحيرة والبلبلة فكنت دائما ألجأ إلى برج توفيق الحكيم لأعتصم فيه وأسكن فى هدوئه .

أناْ وتوفيق الحكيم

ولما عـرفت وصـادقت الحكيم كـان هذا الشـيخ الكريم بالنسـبـة لى المرجع وشـاطىء الأمـان وزادا لا يفنى من المعرفة والحكمة والاحساس الفنى الرهيف .

وكـــــان لجيلنا كله ، ولى شخصيـــــا ، حظ الجلوس إلى طـــــه حسين ، ومـجادلة توفيق الحكيم ، وتذوق الحكمـــة فى حديـث يحيى حقى .

ولكن هـل تعـتـقد أن الفنان لا يتـأثر بأبناء جْيله وأصـحـابه الذين يجالسهم حتى الهزيع الأخير من الليل أيام الشباب ؟ .

طبعا يتأثر بهم .

يوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوى ونجيب محفوظ فى ندوته الأسبوعية .. صلاح عبد الصبور ونعمان عاشور وفتحى غانم ، وفى دائرة أوسع الفنان عبد الهادى الجزار وسيف وانلى ، وبليغ حمدى وكمال الطويل .

كل هؤلاء ساهموا فى صياغة وجدانى وعقلى واتجاهى وأسلوبى .. وكان فى مقدمتهم دائما الفنان الشامل والصديق الحبيب صلاح جاهين والدكتور لويس عوض والمفكر المسرحى على الراعى .

فهذا الجيل الذى كان يكن أكبر الإعزاز والإكرام والتقدير لأساتذته

السابقين عليه ، كان قد عزم العزم الأكيد على التمرد عليهم وإحداث ثورة فنية شاملة تكاملت خطوطها فى الستينيات .

فالفنان لا يبدع أبدا فى عزلة عن سائر المبدعين وإنما يبدع الفنان عادة فى إطار الحركة الفنية والتيار الفنى .

ولكل فنان شخصيته وأسلوبه وفكره ، ولكنه يتطور ويضىء فى الكوكبة أو فى السديم .. وكما يضىء يستضىء بمن حوله من المبدعين .

وإلا .. فهل كانت المناقشات الساخنة بين أبناء جيلى ، وتبادل الملاحظات وتبادل الخواطر والكتب مجرد تزجية للفراغ وإضاعة الوقت ؟! .

هكذا وصلت أولى مسرحياتى إلى دار الأوبرا . وأيقنت أنى هكذا تكونت .

ولكن هذا كلام كان سابقا لأوانه ، فهل يمكن أن تؤثر الكتب فى الفنان ، وأن يؤثر فيه الآخرون ولا يؤثر فى تكوينه الزمان ؟

والزمان هو الاجيال المتداخلة المتدافعة التى تعاصر الفنان وتحب فنه أو تعرض عن فنه أو تحثه على هذا وتثنيه عن ذاك .. هى جمهور الفنان .

الفنان يتأثر بجمهوره

ولا تحسبوا أنى أزعم ذلك من باب الترخص أو الديماجوجيا مثلما

نسمع من أهل الفن الهابط قولهم «أن الجمهور عاوز كده» أو مثلما نسمع من أعتى الطغاة والحكام الديكتاتوريين أنهم إنما يتحدثون باسم الشعب ..

لا هذا ولا ذاك .

وإنما هو حب الفنان خالص لا للفن المجرد ، وإنما للعطاء ، فالفن في جوهره وأصله عطاء الموهبة للناس .. وجائزة الفنان هي سعادة الجمهور بفنه وتقديرهم لعطائه .

احترام جمهور المسرح

وربما يجلس الفنان إلى مكتبه مع شياطينه أو أشباح ملهماته – أو يجلس إلى نفسه ومع خياله وتصوراته وفكره .. ولكنه يشعر دائما بوجود جمهوره في الصالة ، ويريد أن يبسط لهم المقعد بمجاملة السهل الممتنع وأن يثير فيهم مكامنَ حب الجمال وحب الاثارة وحب النظر وحب السمع وحب التذوق .

يكذب الفنان أن ادعى أنه لا يلقى بالا إلى رضاء الجمهور أو لامبالاته ، أو رضا النقاد أو لامبالاتهم .

لذلك كنت حريصا على الاجتهاد باستحداث جماليات لغوية في حلاق بغداد وسليمان الحلبي ، والاجتهاد بالغوص في بحار الموضوع لاقتناص المشاهد السحرية التي تدهش المتفرج ، ولخدمة فن الممثل

باشغاله دائما بالفعل والحركة ، والحرص على جمال التعبير اللغوى .. وكل ما أحببت أنت أو أحب غيرك فى مسرحياتى ..

وأى نجاح أحرزته فى هذا المضمار إنما اكتسبته من ملاحظة الجمهور المتفرج فى قاعات المسرح أثناء مسرحياتى ومسرحيات الغير، وحرصى على اكتشاف واكتساب موهبة التواصل الساخن مع الجمهور .. واهتمامى برأى النقاد ..

القارىء والمتفرج عندى لهما أثر فى تكوين أى فنان ، وأن خالفتنى فى ذلك .. فاقبل قولى أنهما كان لهما أثر في تكوينى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصطفى سويف

جمعت قصصي وأشعاري وأحرقتها

أشرقت الحياة عليّ في ضاحية من ضواحي القاهرة ، وفيها عشت طفولة وادعة ، تتخللها مشاعر الرضا ويغلفُها نظام مستقر لا يختل ، سواء في أشكال التعامل السائدة أو المسموح بها داخل الأسرة ، أو في تتابع الأحداث المقدر لها أن توجه مسار الجميع عبر الأيام ، وفي هذا الصبح المبكر من الحياة كان الهواء مفعما حولي بسيرة العلم كأنما هو الخير الأسمى في الوجود ، وفيما بعد ، عندما عرفت طريقي إلى دراسة الفلسفة شعرت بشيء من التناغم بين هذا المعنى وما قصد إليه أفلاطون في جمعه بين الحق والخير والجمال .

كانت كلمة العلم تصدر أحيانا فيما يدور في الأسرة من أحاديث ، هكذا مجردة ، فلا أعي من ذلك إلا أنهم يتكلمون عن شيء يثير لديهم مشاعر سارة ، ملؤها الإكبار وربما الخشوع أو الهيبة أيضا ، وتتسرب

إلى نفسى بعض هذه المشاعر بصورة ما ، وكانت الكلمة تستخدم أحيانا أخرى مقترنة باسم جدى لأمى ، الشيخ مصطفى بركة ، وكان يقوم بالتدريس فى الأزهر ، وكان واضحا أن الرجل قد ترك لأبنائه وبناته ذكرى محفورة بعمق فى نفوسهم ، اختلط فيها الحزن على وفاته مبكرا إذ توفى فى أوائل الأربعينيات من عمره ، والشغف الشديد بشخصه ، مع الإكبار لصفاته وعلى رأسها العلم والاعتداد بهذا العلم وبالعقل الذى يحمله . وعندما كنت أسمع الكلمة مبثوثة فى هذا السياق كنت أجدنى أتعامل مع راقات من المعانى والمشاعر والايحاءات تنطوى على أقدار من الوضوح والإبهام معا ، وضوح لا بأس به ، يغرى النفس بالاطمئنان له ، وإبهام يدفع إلى مزيد من الاقتراب من عالم الكلمة بقصد الاستشفاف والاستكشاف . وعلى مر الشهور والأعوام اختفت الشخوص المتحركة على المسرح ، وبقيت المعانى والمشاعر والايحاءات أصداء من الماضى تلاحقنى ، على وعى منى أحيانا ، وعلى غير وعى منى أحيانا أخرى ، وأنا الآن أتعامل مع العلم على مستويين ، مستوى تحدده القواميس ، ومستوى آخر تمتزج فيه عناصر متعددة لا أتبين منها إلا القليل ، فيها أن العلم هو المعرفة الصادقة ، وأن العلم قيمة ، وأن العلم ينطوى علّى شعاع من القداسة .

فى مرحلة الصبا

ألحقت بالدراسة الابتدائية وقد أكملت السابعة من عمرى ، ولايبقى

في ذاكرتي عن هذه الفترة من عهد التلمذة إلا انطباع واحد بارز يدور حول بزوغ الحس اللغوى عندى وتكاتف عدد من العوامل المدرسية والأسرية على تنشيطه ، كنت ألقى فى المدرسة تشجيعا خاصا أثناء دروس المطالعة العربية ، وكنت أجد فى البيت الحفز والتشجيع فى أكثر من اتجاه وبأكثر من صورة ، كانوا يحفزوننى إلى حفظ القرآن الكريم ، وكنت كلما انتهيت من حفظ جزء أو سورة جلس أحدهم يمتحننى ويعنى عناية خاصة بتصحيح أخطائى فى النطق ، ثم ينفحنى مكافأة علي أدائى ، وكانوا يشجعوننى على حفظ ما استطعت من الشعر العربى القديم ، وكان بعضهم يطيب له أن يدعونى لكى أقرأ على مسمع منه فقرات أحد الكتب العربية القديمة أو الحديثة ، وكنت سعيدا بهذه التداريب لسبب أو لآخر ، فقد كنت ألمح لديهم فى كل ذلك رضى عن أدائى . وأذكر فيما أذكر عن تلك المرحلة أننى كثيرا ما كنت أجلس منفردا فى إحدى الحجرّات لأقرأ بعض النصوص الأدبية بصوت مسموع ، أو لأقرأ سورة أو بضع سور من القرآن الكريم ، أنا القارىء وأنا المستمع ، وكنت ألقى فى ذلك نوعا من المتعة لا أدرى أين تقودنى ، ولكنى كنت أرحب بها خالصة لذاتها ، وقد استمر هذا الشغف بنطق اللغة العربية يصحبنى فى سنوات العمر التالية ، وامتد ليشمل القراءة والاستماع معا سواء أكنت أنا القارىء أم لم أكن ، ثم امتد ليشمل قدرا

ملحوظا من الاهتمام بسلامة اللغة فى جبهاتها جميعا ، وامتد أكثر من ذلك ليصير جهدا دءوباً على التمكن منها ، وأصبحت ولا أزال ألتمس الأسباب من حين لآخر لأقضى بعض الوقت قارئا فى معاجمها وماهو أقرب إلى المعاجم ، من هذا القبيل قراءاتى فى «لسان العرب» وفى «فقه اللغة» للثعالبى ، وفى «الفروق فى اللغة» لأبى هلال العسكرى ، وفى «إصلاح المنطق» لابن السكّيت .

فترة المراهقة

وخطوت من الصبا إلى زمن المراهقة ، وفى هذا الجزء من الرحلة عرفت الطريق إلى قراءة الأدب ، ثم إلى القراءة على إطلاقها ، قضيت بضع السنوات المبكرة من مرحلة الدراسة الثانوية فيما يشبه الاستكشاف المحموم لقدراتى وهواياتى ،فتنقلت بين ألعاب القوى ، والأشغال اليدوية ، والتمثيل والموسيقى والخطابة . وقبل أن يحل موعد الثانوية العامة بعام أو عامين كنت قد شاركت فى مسابقة للأدب العربى على مستوى القطر ، وفى هذا الإطار اكتشفت قراءة الأدب ، واستكشفت بالاضافة إلى ذلك حدود قدراتى كقارىء ، كنت فى السادسة عشرة من عمرى عندما قرأت « الأيام» لطه حسين ، فإذا بى أعاود قراء ته مرات ومرات فى صيف واحد ، وقرأت كتباً أخرى وعدت إلى قراءة بعضها قراءة ثانية وثالثة فى الصيف نفسه ، وحفظت عن

ظهر قلب ديوان إسماعيل صبرى باشا ، وعرفت الطريق إلى دار الكتب بباب الخلق ، وكنت أقضى هناك ساعات النهار من أوله إلى آخره أقرأ ما أعرفه وأبحث عن جديد لا أعرفه لكى أقرأه ، وأشعر طوال الوقت بأننى أعيش حلما سعيدا لا أكاد أصدقه ، وهكذا بدأت طريقى باللغة يعنينى منها الجرس فإذا هى تقضى بى إلى قراءة الأدب ، ثم إلى القراءة على إطلاقها ، ومع القراءة عرفت اقتناء الكتب ، ولازلت أقتنى الكتب حتى استغنيت عن المكتبات العامة بمكتبتى الخاصة .

كانت خبرة القراءة بالنسبة لى ، ولازالت ، رحْلة خارج المكان ، فأنا فى تلك اللحظات أتجاوز القاعة التى أجلس فيها ، أعرف بطبيعة الحال أننى أجلس فى هذه الحجرة أو تلك من حجرات بيتى ، لكن هذه المعرفة ينخفض الوعى بها شيئا فشيئا ليحل محلها وعى بنوع آخر من المكان ، يشبه أن يكون مكانا مجردا أو مطلقا ، ليس له صفات محددة سوى أنه مشرق ، ورحب ، أكثر إشراقا ، وربما أشد رحابة مما أعرف ، فأنا لا أرى فيه أركانا مظلمة ، ولا أدرك له حدودا مرئية ، فى هذا النوع من المكان أجدنى قارئا ، ثم لا تلبث القراءة أن تصبح استماعا للكلمات مقروءة بصوت أقرب إلى صوت المؤلف كما أتخيله ، وتفقد القراءة بذلك هويتها لتصبح لونا من المُناجاة ، نعم ، تصبح مناجاة وليست حوارا ، فأنا لا أناقش الكاتب عادة ولكنى أستمع إليه ، وهو يتكلم على مسمع

منى ، قد استمهله من حين لآخر لأن عقلى لا يكاد يلاحقه ، وقد أطوى الكتاب لكى أرغمه على التمهل أو التوقف حتى أسترد أنفاسى ، غير أنى لا أحاوره ، ولا أجدنى مستعدا للجدل إلا فى مرحلة تالية ، عندما أترك الكتاب وأنصرف عنه ، وأستريح من أصداء الصوت تلاحقنى ، عندئذ أبدأ فى اجترار بعض ما قرأت ، وأستطيع حينئذ أن أتوقف عند هذه الفكرة أو تلك لأنظر فيها فأقبلها ، أو أؤجل الحكم عليها ، أو أنتقدها ، هكذا أقرأ الآن وتعتبر القراءة بالنسبة لى طريقا إلى عالم متكامل ومكتفى بذاته يمتعنى ويشق علىّ فى آن معا ، وقد عرفته على هذا النحو منذ اكتشفته فى فترة مراهقتى ،وقد ظل على ماهو عليه طوال هذه السنين ، كل مافى الأمر أن بعض خصائصه وأحواله ازداد مع الأيام وضوحا واستقرارا ، فازدادت تمكنا منى وازددت تمكنا منها .

فى شرخ الشباب

ثم اتجهت إلى الجامعة ، فاخترت طريقى كما أردت لا كما أريد لى ، أرادت الأسرة أن أدرس الطب ، وأردت أنا أن أدرس الفلسفة ، وكنت قد قرأت بالفعل كتبا فى الفلسفة ، وكان فى مقدمتها «قصة الفلسفة اليونانية» ، و«قصة الفلسفة الحديثة» اللذين قام بتعريبهما عن «ويل ديورانت» أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، وعندما فرغت من القراءة كنت قد اتخذت قرارى .

ولقد سألت نفسي مرارا وتكرارا ، هذا السؤال البسيط المباشر : ماذا في الفلسفة ؟ وكنت في كل مرة أخرج بإجابة جزئية أضمها إلى جزئيات أخرى لتكون منها أجابة وافية ، وفيما أروى عن نفسى فقد وقعت أسير الانبهار بالتفكير الفلسفي منذ الصفحات الأولى فيما قرأت عن الفكر اليونانى ، ثم أخذ أمر هذا الانبهار يتكشف لى على مر الأيام والأعوام ، فإذا كانت القراءة قد أطلقت يدى فى أن أحصل من المعرفة على ما أشاء ، فقد أطلقت الفلسفة عقلي في أن أحصل على المعرفة بالكيفية أو بالصورة التى أشاء ، بعبارة أخرى كانت الفلسفة طريقى إلى أن أوجه عقلي فيما أقرأ ، تعلمت منها أن أكون عقلا فعالا بالنسبة لما أتلقى من معرفة، لا أن أكون عقلا منفعلا فحسب ، تعلمت منها أن أعقد مقارنات ، وأن أستشف علاقات تغيب عن النظرة غير المدربة ، وأن أصل إلى تعميمات بعيدة ، وأن أمتحن هذه التعميمات من حين لآخر على محك الاتساق المنطقي ، وأن أكامل بينها واستمتع بما يتولد عن هذا التكامل من أبنية تجمع إلى جمال التناسق قدرا ملحوظا من كفاءة التنظيم .

وقضيت سنوات الدراسة الجامعية في استمتاع متصل ، كنت أتلقى المحاضرات فيما شاء الأساتذة من موضوعات ، ثم أقرأ في هذه الموضوعات مايزيد على مادة المحاضرات أضعافا مضاعفة ، وكانت

معظم قراءاتى تنصب على الفلسفة اليونانية القديمة بوجه خاص ، قرأت عددا من محاورات أفلاطون ، وقرأت بعض كتابات أرسطو فيما نقله أحمد لطفى السيد إلى العربية ، لم أكن أقرأ لأحفظ ، كنت أقرأ لأستمتع ، ولذلك لازمتنى ظاهرة إعادة قراءة النص مرة ومرات . وهكذا قرأت نصوص أفلاطون عدة مرات ، كذلك أرسطو فى «الكون والفساد» ، وفي «الأخلاق إلى نيقوماخوس» ، وفى «الشعر» ، وقرأت «فن الشعر» لهوراس ، ونصوصا من ديكارت وفرانسيس بيكون ، وابن رشد وابن سينا وسبينوزا وكانت وهيجل وشوبنهاور ونيتشه وكارل ماركس وانجلز وفويرباخ ، كان القليل من هذه القراءات بالعربية ، والكثير منها بالانجليزية ، وكنت قد اهتديت إلى طريق القراءة فى المراجع الانجليزية سواء أكانت تحوى نصوصا فلسفية أم كانت تؤرخ للفلسفة ، وأعجبنى بصورة خاصة كتاب فندليند المنقول عن الألمانية إلى الانجليزية ، وبلغ بى الشغف بمعايشة مادته أن وجدتنى أترجم أجزاء منه إلى العربية ، ترجمت بالفعل بضع مئات من صفحاته التى تناول فيها الفكر اليونانى القديم ، وأجزاء من الفلسفة اليونانية الرومانية .

اتساع الآفاق

لم تقتصر متعتى ومسعاى إلى الاستزادة منها فى سنوات الدراسة

الجامعية على القراءة وحدها ، ولكنها امتدت لتشمل مساحات عريضة في حياتي ، عرفت في هذه الفترة مذاق الصداقة الراقية ، فقد نشأت حولي صداقة خالصة لوجه الفكر والمعرفة والذوق الرفيع ، جمعت بيني وبين عدد محدود من الزملاء، كان على رأسهم محمود أمين العالم، ويوسف الشاروني ، وعباس أحمد عثمان ، كنا نقضي الساعات يوما بعد يوم في أحاديث لا تنقطع ولا يصيبنا منها الملل حول الفلسفة ، وقد تمتد لتشمل الفكر والأدب والشعر جميعا ، وقد تتطور هذه الأحاديث فتصبح عرضا لما قرأنا ونقرأ ، أو تصير مناقشات نشحذ فيها قدرات بعضنا البعض ، وكنا نأخذ أنفسنا مأخذ الجد إلى أقصى المدى ، فلا يتخلل أحاديثنا من الهذر إلا النزر اليسير .

وفي سنوات التلمذة الجامعية كذلك خطوت خطواتي الأولى نحو تلقي الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية ، ونحو الطبيعة السياسية الشاملة للفكر الماركسي . وكان ذلك في الحالين بفضل لويس عوض ، وفي الفترة نفسها تطورت صلتي باللغة الانجليزية ، فازدادت طواعيتها في يدي ، وامتدت قراءتي بها لتتناول الأدب الانجليزي بعد أن كنت أقتصر على الفلسفة ، فقرأت سومرست موم ، ود . هـ . لورانس ، وأوسكار وايلد ، وغيرهم ، وبهرني أسلوب أوسكار وايلد بثرائه في الصور والاستعارات ثراء منقطع النظير ، ثم لم ألبث أن تقدمت إلى قراءة الشعر الانجليزي ،

وعثرت على موسيقاه قبل أن أعثر على معانيه ، وظللت لفترة طويلة أسيرا لأعشار «شلى» ، وربما عاملت قصيدته «روح الوحدة» مثلما تعاملت مع «أيام» طه حسين فظللت أعيد وأزيد فى قراءتها وكأننى بسبيلى إلى اكتشاف المزيد وراء هذا النبع الشاعرى الأصيل ، وكذلك عايشت قصيدة توماس جراى «المرثية» ، عايشتها بهذا اللون من الإلحاح الذى لا أزال أعجب له ، ولا أزال أمارسه بين الحين والحين ، وتجاسرت بعد ذلك فبدأت أقرأ ما اعتبرناه حينئذ شعراً انجليزيا حديثا قرأت بعضا من شعر سيندر وأودن وإليوت، وأظننى لم أفهم معظمه ، ولكنى واظبت على المحاولة ، ولم تكن تخلو من بعض المتعة ، ربما كنت استمتع بالإيقاع ، وربما كنت أقنع ببعض الصور التى استطيع أن أنفذ إليها من حين لآخر ، ثم لم تلبث اللغة الانجليزية أن مهدت السبيل أمامى إلى مطالعات أكثر تنوعا من ذى قبل ، فضمت العلم إلى الفلسفة والأدب والشعر ، ولم يقتصر أمرها معى على تناول الكُتَّاب الانجليز ولكنها امتدت لتشمل غيرهم من الفرنسيين والروس والألمان مادامت الأعمال منقولة إلى الانجليزية ولا أزال أذكر أن قرأت فى تلك الفترة «موباسان» و«جوركى» و«چيته» ، كما قرأت بإعجاب يكاد يستحيل إلى ذهول «تطور علم الطبيعة» لالبرت أينشتاين ، وبعض ماكتب «جـ . ب . س . هالدين» فى أسرار التطور البيولوجى . واستقر فى نفسى من ذلك

كله يقين بأن العربية والانجليزية معا فتحا أمامى طريقا لا نهاية لمداه : الطريق إلى الألفة بالكثير من نفائس التراث الانسانى فى الأدب والفلسفة والعلم .

على مشارف التخرج فى الجامعة

ووجدتنى فى ذلك الوقت نهبا لصراعات عنيفة بين رغبات وميول يحاول كل منها أن يستحوذ على عقلى ووجدانى ، فقد بدأ الاقتراب من التخرج يلوح فى الأفق ، ومعه أخذت تتوالى على النفس أسئلة تبدو أحيانا متشابكة تظهر معا وتختفى معا ، وأحيانا أخرى تتتابع فى تسلسل منطقى كلما فرغت من سؤال تولد عنه ثان فثالث ، ويبدو أن الجذر الأول لهذه التساؤلات كان قد تم حسمه فلم يتعرض لأى نقاش ، فقد تبينت أنى سوف استمر فى الاشتغال بالفكر على امتداد العمر ، كان هذا أمرا مقطوعا به أما السؤال الذى بدأ يلح علىَّ فكان سؤال حول أى المجال سوف ألتزم به ، الفلسفة أم الأدب ؟ وكانت علاقتى بالأدب قد تجاوزت التلقى إلى الإنتاج .. وكان ذلك وأنا فى منتصف طريق التلمذة فى الجامعة . كتبت عشرات القصص القصيرة . وخطوت فى الطريق إلى كتابة رواية طويلة وقد أنجزت نصفها أو أكثر ونظمت الشعر الموزون المقفى ، كنت أكتب ولم أكن واثقا من أنى سوف أصبح كاتبا ، وأقرض الشعر دون أن أتأكد من مصيرى معه ، كانت علاقتى

بهذا الانتاج أقرب إلى التجريب منها إلى بدء السير فى طريق الالتزام ، ومع ذلك فقد كان ما تدفق من نفسي في هذا الانتاج كافيا لأن أتعلق بإرهاصات لصورتى أديبا وشاعرا ، واستمر الصراع يلاحقنى ويضيق الخناق علىّ يوما بعد يوم ، ولأمر ما لم أقبل فى أعماقى إجابة تقوم على الجمع بين الطرفين ، الفلسفة والأدب ، كنت واثقا من أننى أستطيع أن أجمع بينهما كمتلقٍ ، لكننى كنت واثقا كذلك من أننى سوف أعجز عن أن أنتج فى المجالين نتاجا متميزا ، لابد من التفرغ إذا كان مطلبنا هو الانتاج الرفيع .

ويوما من الأيام اقتربت من حسم الصراع ، ورأيت أن الخطوة اللازمة لانجازه هي أن أجمع كل تجاربى فى القصة والرواية والشعر وأن أحرقها لأقطع بلا رجعة بينى وبين ماض قد يظل يشدنى إليه إذا بقى له جسم ملموس ، وكان أن فعلت ذلك .

ويوم أقدمت على تنفيذ هذه الخطوة كان الأدب والشعر قد نفذا إلى الفلسفة كما عشتها وتعلقت بها ، فكان قرارى أن أتخصص في دراسة فلسفة الجمال .

النهاية والبداية

وذات يوم وأنا بعد فى السنة الرابعة سألنى أستاذى يوسف مراد ، ماذا تنوى أن تفعل بنفسك بعد التخرج ؟ فكانت إجابتى حاضرة : قلت

سـأدرس فلسفة الجمال ، وعلق الرجل على إجابتى بسؤال آخر قائلا :

ولم لاتدرس موضوع الجمال فى إطار علم النفس ؟ وقام إلى مكتبته فتناول منها كتاب وودورث فى «علم النفس التجريبى» وقال ها هنا فصل بكامله عن الدراسات النفسية التجريبية للجمال ، فى هذه اللحظة نفسها ، وقبل أن أغادر المكان أو الزمان ، بدا لى أن هذا الحوار القصير أزاح الغطاء عن ركن دفين فى نفسى ، فقد كنت تعلقت بالعلم كذلك من خلال قراءاتى المتأخرة ، وكانت السمة المميزة للعلم فى نفسى هى ضبط المعرفة ، فلما جاء هذا الحوار أثار ذلك فى نفسى تناغما مع أصداء من ماض بعيد ، حين كانت سيرة العلم والعلماء تتردد من حولى ، مفعمة بمشاعر الإكبار والخشوع ، وتبلورت أمامى فُجاءةً حياتى التى أنا مقبل عليها ، سوف أدرس الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر، كانت هذه الصيغة اختزالا بليغا لكل ما اعتبرته جميلا وجليلا فى فترة تكوينى المبكر .

شغلت نفسى بالفكر
ومازالت الأسئلة تراودنى ؟!

واحتفظت بعد التخرج بصداقاتى التى نعمت بها أيام التلمذة ، غير أنها فترت مع الأيام ، وربما انتابها الضعف لتفسح المجال لصداقات أخرى جديدة لم تكن تقل بهاء ولا رقيا عن سابقتها ، لكنها كانت

تختلف عنها فى توجهها وفيما تمسه من جوانب فى نفسى . فقد تخلقت فى حياتى منظـومتان جديدتان من الصداقة ، إحداهما تضمنى مع أحمد بهاء الدين ، وفتحى غانم ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وتجمع الأخرى بينى وبين مجموعة من المشتغلين بالفن التشكيلى ، محمد حامد عويس، ونبيه عثمان ، ويوسف سيده ، وكان الجديد الذى يجمع بين هاتين المنظومتين من ناحية ، ويفصل بينهما وبين صداقتى أيام التلمذة هو التوجه نحو الانتاج . وهكذا وجدتنى مع أحمد بهاء الدين وصاحبيه نكتب فى مجلة «الفصول» التى كان يصدرها الاستاذ محمد زكى عبد القادر ، ووجدتنى من ناحية أخرى ارتاد معارض الفن التشكيلى ، واهتم بما يصوره محمد عويس وزميلاه فى مراسمهم اعدادا لهذه المعارض ، وأشارك فيما يدور بينهم من مناقشات تقنية أحيانا ، وفلسفية أحيانا أخرى حول قيمة هذه اللوحة أو تلك أو حول طبيعة فن التصوير المعاصر ومايفرق بينه وبين التصوير التقليدى أو الاكاديمى كما كانوا يسمونه ، أو حول الدور الحقيقى الذى أداه سيزان فى نشأة هذا الفن المعاصر ، وأيهما كان اسهامه اكبر وزنا فى دعم هذا التيار بيكاسو أم ماتيس ؟ .

التخصص فى علم النفس

وفى تلك الفترة كنت أعمل بنشاط فى دراسة الاسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر ، وكان يوسف مراد قد أسس بالاشتراك مع

مصطفى زيور «مجلة علم النفس» وكان النشر في هذه المجلة أحد همومي ، ثم لم يلبث أن أصبح همي الاول ، وسرعان ما تبلورت صورتي أمام نفسي باعتباري متخصصا أو ساعيا الى التخصص في علم النفس في المقام الاول ، ومثقفا مهتما بالمشاركة في الثقافة العريضة في المقام الثاني ، ومنذ ذلك الوقت لم أسمح بالخلط بين هذين الشقين في شخصي ، وما سمحت لاحدهما أن يطغى على الآخر أو يفسده.

وفي فبراير سنة ١٩٤٩ حصلت على درجة الماجستير . وكان أحد المتحنين في لجنة المناقشة هو الاستاذ أمين الخولي ، وكان حديثه يشف عن قدر كبير من الرضا عن البحث ونتائجه . ويبدو انه تحدث بذلك الى تلاميذه ومريديه في قسم اللغة العربية وآدابها . ومن ثم فقد بدأت اتلقى مظاهر الترحيب والتقدير من حيث لم أتوقع . ثم أتيح للبحث أن ينشر فإذا به بعد النشر يلقى مزيدا من الاقبال بصورة لم تكن تخطر لي على بال .

المخاض الاجتماعي

وكانت مصر ، منذ تخرجت في سنة ١٩٤٥ تموج بتيارات الفكر الاجتماعي والسياسي تغطي الساحة من أقصى اليمين (حيث «شباب محمد» و«الاخوان المسلمون») الى أقصى اليسار (حيث التنظيمات الشيوعية بأجنحتها المتعددة) وكان العالم كله يضطرب بتيارات مماثلة

إذا كان يعيد ترتيب أموره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكان نصيب مصر من تلاطم هذه الأمواج وفيرا ، لأنها جمعت بين طليعة مثقفة طموحة ، وأحزاب تتصارع بأساليب تتراوح بين التهييج الاعلامى المتصل والاغتيال أو التصفية الجسدية من حين لآخر ، وقصر ملكى رائحته عفنة بينما هو يفسد بأمواله الذمم ويشترى الأقلام والأفواه ، وقوى اجنبية يتراوح تدخلها بين الاختراقات المستورة واستعراض القوة فى شوارع القاهرة وميادينها . ثم بالاضافة الى هذا كله غرست اسرائيل غرسا على حدودنا الشمالية فى مايو سنة ١٩٤٨ ، وأصبحت بذلك عاملا يدخل فى حسابات الحركة على مسرح الأحداث المصرى ، وفى هذه الفترة زادت الصحف زيادة ملحوظة فظهرت جريدة «الزمان» ، و«أخبار اليوم» ، و«الوادى» ، و«الجماهير» ، و«النداء» ، و«الطليعة» . ونشط الادب السياسى نشاطا ملحوظا ، وكنا نقبل على مقالات طه حسين ، ومحمد مندور ، وكنا نقرأ لغيرهما كذلك ، ومع هذه الفورة نشطت الحركة الثقافية بوجه عام ، فصدرت عن دار المعارف سلسلة «إقرأ» وصدرت عن دار الكاتب المصرى «مجلة الكاتب المصرى» وكان يرأس تحريرها طه حسين ويكتب فيها مقالات بالغة الدلالة ، ويستكتب الى جانب ذلك اشخاصا ذوى أسماء لامعة ، من أمثال سهير القلماوى

وسليمان حزين ، وكان ينشر الى جانب ذلك سلسلة من الترجمات من نفائس الادب العالمي .

فى هذا الاطار عشت مع أصدقائى طوال النصف الثانى من الاربعينيات ولم نكن بمعزل عما يجرى حولنا ، فقد فتحنا نوافذنا فكانت الأحداث تمسنا على أكثر من مستوى ، وكانت نفوسنا تضطرم بالافكار والانفعالات بما يناسب جيشان البلد والعالم بالافكار والتيارات من حولنا وفى تلك الفترة نشر يوسف الشارونى أول قصة قصيرة له من طراز لم نشهده من قبل ، كان يوسف ينشر من قبل ، ولكنه نشر فى هذه المرة شيئا جديدا كل الجدة ، قصة «المعدوم الثامن» ، ونشر فتحى غانم رواية «الجبل» ونشر طه حسين «عثمان أو الفتنة الكبرى».

كان البلد فى حالة مخاض يمضى الى الابداع الجماعى والفردى ، وجاءت هيلدا زالوشر الى مصر ، وكانت كاتبة مرموقة فى فلسفة الفن وقد نشرت مقالا أو مقالين فى مجلة «الكاتب المصرى» ، وكنت معهم ، واحتدم النقاش بيننا ، وكان عبد الرحمن الشرقاوى مستمرا فى نظم الشعر ، ولم يكن راضيا عما ينظم ، واتيح له يوما أن يسافر الى فرنسا ، واذا بخطاباته تنقل إلينا نبأ اكتشافه لشاعر فرنسى قديم لم يكن قد سمع به من قبل ، هو فرانسوا فيون ، وكان عبد الرحمن سعيدا بهذا الاكتشاف اذ كان يرى فيه ثائرا يصلح للتوحد معه ، وكانت

أحداث الحرب الكورية قد بدأت تتداعى وتزعج الضمير العالمى ، وكان الاعلام العالمى شديد الاهتمام بالنشر عنها ، ولم يكن العالم قد أفاق بعد من هول الصدمة التى أصابته بالقاء القنبلة الذرية الاولى على «هيروشيما» حدثت الواقعتان فى مدى زمنى محدود ، مدى الرئاسة لرئيس أمريكى واحد ، هو الرئيس هارى ترومان ، ومن فرنسا تلقى أحمد بهاء الدين خطابا من عبد الرحمن الشرقاوى يحمل المخطوطة الأولى لقصيدته «من أب مصرى الى الرئيس ترومان» وفى بيتى جلس أحمد بهاء الدين يقرأ القصيدة على مسمع منا ، أنا وفتحى غانم وفاطمة موسى ، وكنا قد تزوجنا فى أوائل سنة ١٩٤٩ ، وعندما فرغ بهاء من قراءته كنا على يقين من أن عبد الرحمن قد فتحت أمامه أبواب الشعر الحديث .

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٠ عينت معيدا بقسم الفلسفة بكلية الآداب، فى جامعة القاهرة ، وسعدت بهذا التعيين لانه يزيد من تأكيد هويتى كما أريد لها أن تتشكل ، التخصص أولا ، ثم آفاق الثقافة الرحبة بعد ذلك ، وكانت أحداث السياسة فى الشارع تزداد غليانا يوما بعد يوم ، وكان واضحا أن المخاض يؤذن بالدخول فى منعطف جديد .

وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وقع حريق القاهرة ، بدأت أحداثه منذ الصباح ، وجبت الشوارع لأشهد بعينى ماكان يحدث فيها وأدركت

أننا مقبلون على شيء خطير وكانت كل جوارحى تتساء ل : أهذا هو المنعطف ؟ وفى مساء اليوم نفسه أعلنت الاحكام العرفية ، وفى صباح اليوم التالى أقيلت حكومة الوفد ، حزب الاغلبية فى ذلك الوقت ، وفى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ أعلن الجيش إنه تسلم زمام الامور .

وكنت قد قطعت شوطا لابأس به فى دراسة الموضوع الذى اخترته لأنال به درجة الدكتوراه ، وفى يناير سنة ١٩٥٤ نوقشت الرسالة وأجيزت . وشعرت حينئذ بأن السنوات التى قضيتها فى اعداد هذه الرسالة قد انضجتنى بصورة لم أعهدها من قبل .

استمرت صداقاتى ، ولكن اعتراها كثير من مظاهر الفتور ، ودب فى بعضها دبيب التحلل ، وتمزقت كثير من علاقاتى الانسانية فى الجامعة ، فلم يبق منها الا مايمليه التأدب الاجتماعى . وأخذت على البعض مآخذ بحت ببعضها ولم أبح بالبعض الآخر وأخذوا علىّ ميلى الى العزلة ، والإفراط فى الأكاديمية.

فى الطريق الى تجويد العلم

وفى صيف سنة ١٩٥٥ استأذنت للسفر الى انجلترا فى مهمة علمية لاتقان بعض طرق البحث الجديدة فى ميدان التخصص ، واذنت لى الجامعة مادام الأمر على نفقتى الخاصة وقصدت مباشرة الى معهد الطب النفسى بجامعة لندن اطلب المزيد من العلم على يد الاستاذ هانز ايزنك ، وكانت هذه الخطوة بمثابة ميلاد جديد ، لباحث يتقن المنهج الى

جانب مايحمله من فكر أو خيال علمي ، هناك تتلمذت على اساتذة فضلاء ، وتعلمت كيف اتصل بالعلماء حيثما كانوا ونعمت بصداقات مع باحثين جاء وا من مختلف أنحاء العالم ، من الهند ، واليابان ومن المانيا وهولندا وأمريكا ، جاء وا يدرسون مثلي ، وبدأت اكتب للنشر في دوريات التخصص بالانجليزية .

العـودة

وفي سبتمبر سنة ١٩٥٧ عدت الى مصر أحمل علما ، ومع العلم اصرار بان يصل بصورة أو بأخرى ، ورأيت ما آلت اليه الاحوال في الجامعة ، وتذكرت حريق القاهرة ، واستعدت ما كان وراء وجومي وانقباضي حينئذ ، كانت في النفس نبوءة مبهمة ، وقد أخذت تصدق شيئا فشيئا ، وانغمست في العمل العلمي بحثا وتدريسا بصورة لم أعهدها ولم ويعهدها المحيطون بي من قبل ، ولسان حالي أن أبشر بالعلم طريقا لمعالجة الهم العام . ومضيت أمهد الطريق شبرا شبرا ، وحرصت في كل خطوة على أن استوضح صيغة للعمل تجمع شتات جهدي . كانت طموحاتي متشعبة . وكنت ومازلت أخاف كل الخوف أن تجرفني أخطار التوزع ، كان همي الاول أن انتج علما حقيقيا ووضعت نصب عيني معيارا للجودة التزم به هو أن أكثر من النشر في دوريات التخصص العالمية ،.وتلت ذلك هموم أخرى أن يكون بعض هذا العلم ذا

فائدة قريبة للتطبيق ، وأن أصنع تلاميذ متميزين ، وان أظل على صلة ايجابية بالحياة العامة على أن تظل بيدى مفاتيح هذه الصلة الى حد كبير ، وقبل هذا وبعده أن أبقى فى مصر لا أهجرها هجرة بائنة ولا مقنعة ، فذلك شرط لابد منه لمصداقية هذه الصيغة المركبة .

وبدأت أكتب بالانجليزية للخارج ، علما شديد التخصص ، وأكتب بالعربية للداخل ، كتابة تتراوح بين العلم المتخصص أوجه الرسالة فيه الى التلاميذ ، وبين تقديم العلم بصورة شيقة لغير طلابه النظاميين ، وقد تمتد هذه الكتابات أحيانا لتشمل موضوعا من الموضوعات العامة وجاء هذا التنقل المتصل بين الكتابة بالانجليزية والكتابة بالعربية ، وكذلك بين الكتابة العربية الصارمة صرامة التخصص والكتابة الرفيقة بالقارىء والمعنى معا ايذانا بمستوى جديد من مستويات العناية باللغة أدق وأشق وأرقى من كل عناية سابقة .

فى الستينيات

وظلت مصر تعانى من تقلصات منهكة طوال فترة الستينيات فى سنة ١٩٦١ صدرت قوانين التأميم ، وفى سنة ١٩٦٥ جرت عمليات اعتقال واسعة النطاق وقع معظمها على جماعات تدور فى فلك «الاخوان المسلمين» وتناثرت أنباء صراع تجرى وقائعه فى دوائر السلطة العليا ، وتعالت أصوات التهديد بالحرب بين مصر واسرائيل ، وفى كل

ذلك كانت الأحداث تقع كمفردات القدر ، لم نكن نحن المواطنين العاديين ندرى لماذا ، لماذا هذه الأحداث ؟ ولماذا هذا التوقيت ؟ وعنيت فى هذه الفترة بمزيد من التجويد فى بحوثى ، الخارجية والداخلية ، أداء وكتابة ، واتسعت رقعة هذه البحوث حتى استقرت حول ثلاثة مجالات لظواهر السلوك البشرى . أحدها ظواهر المرض النفسى . والثانى تعاطى المخدرات . وكان ثالثها ما بدأت به حياة التخصص ، الابداع الفنى ، ولكن على اطلاقه . وعرفت فى هذا السياق طريقى الى العمل العلمى الجماعى ، فى مجال التعاطى ، اتاحه لى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وفى مجال الابداع الفنى ، اتاحته لى جامعة القاهرة ، وفى مجال المرض النفسى ، اتاحته لى وزارة الصحة .

وفى الساعة التاسعة صباح يوم ٥ يونية سنة ١٩٦٧ كانت مجموعة من الشباب العاملين معى فى بحوث تعاطى المخدرات ، تطرق باب سجن طنطا ومعها الاذن بالدخول لدراسة حالات مجموعة من النزلاء المحكوم عليهم فى قضايا التعاطى ، وجاءهم الضابط المسئول لينبئهم بأن السجن مغلق لأن الحرب مع اسرائيل قد بدأت . وبعد خمسة أيام كانت الهزيمة العسكرية معلنة ، على أن تسمى «بالنكسة» وبدأت تداعيات النكسة تتوالى ، وبعد خمسة أيام أخرى كنا نستأنف العمل فى

سجن طنطا ، ومن بعده سجون الجمهورية جميعا ، ولم تصبنا الهزيمة بالانكسار ، ولكنها أصابتنا بعبء ثقيل من شعور المهانة .

بعد الهزيمة

وفي يولية سنة ١٩٦٧ نشر لي أول مقال في الخارج عن بحوث تعاطي المخدرات ، ظهر المقال في النشرة الرسمية لهيئة الصحة العالمية المعروفة «بنشرة المخدرات» وكان هذا النشر أول اعتراف دولي بقيمة العمل الذي أقوم به في هذا المجال .

ومع ذلك فلم تكن سعادتي به كافية لكشف الغمة التي حلت بنفسي من مهانة الهزيمة . بل تولد في أعماقي مع المهانة حزن ممتزج بالغضب شق له طريقا يختلف عن مسار التعامل بيني وبين بحوثي التي لم تنقطع . وكنت كلما توقفت عن العمل البحثي طلبا للراحة أفقت على رنين ذلك المزيج المقبض من الانفعال بداخلي . وكنت في الوقت نفسه أجتر كثيرا من الافكار وكثيرا من الاسئلة تروح وتجيء على مشهد مني بغير جواب ، وفي أواخر العام بدأت اكتب سلسلة مقالات وانشرها في مجلة «الكاتب» بعنوان «نحن والعلوم والانسانية» أقدم فيها منظوري عن الكيفية التي يلزمنا أن نستوعب بها بعض الدروس من ٥ يونية .

حوار الفكر والعمل

وتشابكت بعد ذلك فى حياتى أمور الفكر والعمل على مستوى من الجدية والكثافة لم أعهده من قبل : بدأ ذلك بتجربتى فى وزارة الثقافة حيث قبلت الدعوة الى المشاركة فى انشاء اكاديمية الفنون وتقنين العمل بها . ثم أعقبت هذه التجربة مباشرة تجربتى فى هيئة الصحة العالمية حين قبلت دعوة المنظمة الى عضوية عاملة فى لجنة الخبراء الدائمين لبحوث تعاطى المخدرات ، وتعاصرت هذه التجربة فى مراحل منها مع تجربتى فى انشاء قسم مستقل لعلم النفس فى الجامعة ، وفى نهاية المطاف جاء ت تجربتى فى رئاسة لجنة المستشارين العلميين للمجلس القومى لمكافحة وعلاج الادمان .

وأحيت هذه التجارب فى نفسى آمالا عديدة ، وأثارت فى الوقت ذاته أسئلة تفوق الآمال عدا ووزنا . ولعلى قد استطعت أن أعاين هوية بعض هذه الآمال . اما الاسئلة فلا تزال تردنى عاجزا عن معاينتها أو حصرها واستيعابها .

عبد العظيم أنيس

برع جدى فى صناعة البناء ولقب بـ «المهندس»

ولدت فى شهر يوليو عام ١٩٢٣ فى حى الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء ، أربعة ذكور وأربع إناث ، وكنت أصغر الذكور وأصغر الإناث باستثناء واحدة ، وكان بيتنا يقع على بعد خطوات قليلة من الجامع الأزهر ، وكان هذا بيت جدى لأبى فى حقيقة الأمر الذى كان يعمل فى صناعة البناء ويطلق عليه من قبيل التجاوز لقب «مقاول» فقد كان لديه عدد محدود من المساعدين من بينهم أبى ، وشقيقاه يساعدونه فى بناء بيوت صغيرة أو مساجد متواضعة وقيل إن جدتى لأبى ساعدت جدى فى بناء البيت الذى كنا نسكن فيه بالأزهر .

كانت عائلة أبى جميعا من الحرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله تلتمس فى جواره البركة ، فمنهم من كان صاحب محل جزارة أو كان نجارا أو

احترف صناعة البناء كما فعل جدى . ولقد تعلم أبى وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم ثم انفصل كل واحد منهم عن أبيه بعد الزواج ، وارتبطت أعمال أبى بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيزه على بناء المساجد فى المراكز والعواصم المختلفة لمحافظات مصر ، بينما تخصص أعمامى فى عمليات ترميم المساجد الأثرية وبالتالى تركزت علاقاتهم بمصلحة الآثار .

وكانت عائلة أمى ذات صلة أيضا بصناعة البناء ، ومن هنا تم زواج أبى بأمى ، فقد كان جدى لأمى مقاولا كبيرا نسبيا بمقاييس عصره ، وكان بارعا فى صناعته إلى درجة أنه أطلق عليه لقب «المهندس» وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقب من بعده ، ولقد كسب جدى لأمى كثيرا وأضاع معظم ما كسبه فى أهواء الشرب والنساء ، على عكس جدى لأبى الذى كان شديد الحرص على ماله ، فضلا عن أنه كان شديد الإسراف فى منزله ، وقد تزوج سيدة تركية الأصل هى جدتى لأمى لا أتذكر شيئا عنها وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشى فى السنوات الأخيرة من حياتها ، فكان أولادها ينقلونها على «صينية» عشاء كبيرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخرى أو الذهاب إلى الحمام .

التعليم والأزهر

وعلى عكس عائلة أبى لم يمتهن أحد من أخوالي صناعة أبيهم ، فقد كان الوضع التقليدى فى أسرة أمى هو التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحراك الاجتماعي ، وكان التعليم آنذاك فى الأسرة يعنى الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس فى مدارس الحكومة . هكذا فعل خالى زكى المهندس ومن بعده شقيقه كامل ، وهكذا فعل من بعدهما شقيقى الأكبر إبراهيم . وكان أخوالى من الهمة فى التحصيل والتفوق فى الدراسة بحيث أرسل خالى زكى إلى بعثة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى بها أربع سنوات وعاد للعمل فى تفتيش اللغة العربية كما أرسل شقيقه الأصغر كامل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٢٣ وبقى فيها سبع سنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية . وكان لهما شقيق أكبر - من الأم فقط - عرف فى الأسرة باسم الشيخ على الشهداوى درس أيضا فى الأزهر وارتبط بالحزب الوطنى حتى أنه أرسل فى بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كان فيها معاونا لمصطفى كامل ومن بعده عبدالعزيز جاويش .

ازدواجية الاسم

إنما أشرت إلى هذا الوضع داخل أسرة أمى بشئ من التفصيل

لسببين ... أولهما أننى عندما ولدت عام ١٩٢٣ أرادت أمى أن تسمينى باسم «كامل» تيمنا بأخيها كامل الذى كان على وشك الذهاب إلى بريطانيا عندما ولدت . لكن جدتى لأبى - وكانت صاحبة شخصية قوية - اعترضت حتى لا يظن أحد أننى قبطى فاقترح والدى أن يكون اسمى فى شهادة الميلاد «عبدالعظيم» منعا لأى لبس بينما ينادوننى فى البيت باسم شقيقها . وهكذا نشأت أحمل اسمين : واحدا فى شهادة الميلاد ولا يعرفه أحد فى العائلة وآخر فى المنزل وظل هذا هو الوضع حتى دخلت الجامعة مما أدى إلى مفارقات طريفة كثيرة فى حياتى ولم يختلف هذا الازدواج فى اسمى من حياتى إلا عندما تخرجت فى الجامعة وتزوجت فأصبح لى اسم واحد هو عبدالعظيم .

أما السبب الثانى للاستطراد عن أسرة أمى فهو أن جو التعليم الذى اندمجت فيه أسرة أمى أدى بطبيعة الحال إلى انحيازات سياسية مختلفة . فقد كان خالى الشيخ على الشهداوى من أنصار الحزب الوطنى بينما كان خالى الأصغر كامل شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول . وكثيرا ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة . وفى هذا الجو انحاز شقيقي الأكبر إبراهيم إلى جانب الوفد ، وكان وهو طالب فى دار العلوم كثير التردد على بيت الأمة ، يلقى القصائد الوطنية أمام سعد

زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ولهذا كان انحيازنا الأول - أنا وأشقائى - إلى الوفد بطبيعة الحال .

ولقد بقيت فى حى الأزهر حتى سن الخامسة وذهبت إلى الكُتَّاب بعض الوقت وأنا فى الرابعة من العمر . لكنى لا أتذكر من هذا إلا أن الكُتَّاب كان بجوار منزلنا . وكانت هناك حنفية للمياه أمام الكُتَّاب يتزاحم حولها الناس لملء صفائحهم وأوانيهم وكانت جدتى لأبى تأتى لزيارتى فى الفصل وتعطينى نكلة (مليمين) أشترى بها من المدرس بعض الكعك . غير أن جدى بنى منزلا فى العباسية الغربية قريبا من شارع الملكة نازلى (شارع رمسيس اليوم) . وكان البيت يتكون من دورين وبدروم سكنا نحن فى الدور الثانى وسكن عمى الأكبر فى الدور الأول بينما سكن عمى الأصغر البدروم . لقد تركنا حى الأزهر عام ١٩٢٨ فيما أظن وكانت أمى تقول آنذاك إننا «طلعنا» العباسية بعد موت سعد زغلول . وكنت أدهش من استخدامها فعل «طلع» فى هذا السياق وأتساءل إن كان هذا بمعنى أن العباسية كانت أعلى فى أرضها من أرض حى الأزهر ، أم أن «الطلوع» هنا بمعنى الصعود فى السلم الاجتماعى . ولقد تعودت أسر البورجوازية الصغيرة المقيمة فى حى الأزهر على مشروع الانتقال إلى حى العباسية بمجرد أن تسمح الظروف المالية ببناء منزل فى هذا الحى الجديد نسبيا . كانت معظم

أراضى العباسية صحراوية ولذا كثر البناء فيها فى أوائل القرن وفى العشرينات وإليها انتقلت عشرات الأسر . وكانت القاعدة العامة هى أن الأسر الثرية تبنى لها فيلات فى العباسية الشرقية . أما أسر البورجوازية الصغيرة فكانت تبنى فى العباسية الغربية أو تستأجر لها مسكنا هناك . ويذكرنى هذا التاريخ بما حدث لنجيب محفوظ الذى انتقلت أسرته قبلنا من الأزهر إلى شارع رضوان شكرى بالعباسية الغربية . فى الحقيقة أن شارعنا لا يبعد عن شارع رضوان شكرى كثيرا .

ولقد كان انتقالنا إلى المنزل الجديد فى العباسية تحولا كبيرا فى حياتنا . فقد وجدنا أنفسنا نمشى ونلعب فى شوارع واسعة ونظيفة ، وبالقرب من منزلنا كانت هناك حدائق غمرة الجميلة التى كانت تجمع أطفال الحى وتمثل متعة ما بعدها متعة لهم ، وكانت منطقة شارع أحمد سعيد مليئة بالغيطان المخصصة لزراعة الخضراوات ، وكثيرا ما كانت ترسلنى أمى إلى هناك لشراء السبانخ أو الكرنب . وكانت هناك أراض فضاء واسعة نلعب فيها الكرة ، وبعد سنوات صار الاحتفال بالمولد النبوى يجرى فى صحراء العباسية وأصبح الموكب المحمل بالكسوة الشريفة ينتهى هناك . ومع أن صلتنا لم تنته بحى الأزهر لأن جدتى وجدى لأبى ظلا هناك ، فإن هذه الصلة بدأت تفتر تدريجيا

خصوصا بعدما ماتت جدتى فجأة بالسكتة القلبية عام ١٩٢٩ وانتقل جدى للإقامة معنا فى العباسية بعد ذلك بسنوات قليلة .

ألم فراق جدتى وأمى

ولقد كان حادث وفاة جدتى صدمة لى وأول مواجهة لمعنى الموت وأنا فى هذه السن الصغيرة ، فقد كنا نحبها حبا جما ، وبدا لى اختفاؤها المفاجئ أمرا شديد الصعوبة . وكنا قد تعودنا أن ننتظرها بالساعات عند موقف ترام غمرة حيث كان الترام رقم ٥ والترام رقم ٢٢ ينتهيان ، عندما نعرف أنها ستأتى لزيارتنا ، حتى إذا ما نزلت من الترام صحبناها أنا وإخواتى وأولاد عمى فى زفة كبيرة من موقف الترام إلى البيت ، ولا عجب فى ذلك فقد كانت تحبنا وتتحفنا بالنقود وأنواع الحلوى المختلفة ، وحتى اليوم مازلت أتذكر يوم هذا الحدث الجلل - حدث وفاتها - فقد دق بعض أقاربنا باب منزلنا قبل الفجر بقليل وهرول أبى وأمى بسرعة وهما يهمسان . فلما طلع الصباح أخذنا أخى حسن - نحن الأخوة الثلاثة الصغار - معه وذهبنا مشيا إلى الدراسة عن طريق شارع مصنع الطرابيش وعندما اقتربنا من منزل جدى سمعنا صراخا وعويلا وبكى أخى حسن وقال لنا الخبر الحزين . ولقد كانت الصدمة الثانية والأكبر فى حياتى إزاء الموت عندما ماتت أمى عام ١٩٤٠ نتيجة الاصابة بالحمى . وكنت قد انهيت امتحان السنة

التوجيهية وكان عمرى آنذاك سبعة عشر عاما . وكنت شديد التعلق بأمى وأدت بى هذه الصدمة إلى تحولى إلى إنسان نباتى لا أذوق اللحم لسنوات ولم أستطع أن أخرج من إسار هذه الأزمة إلا قرب تخرجى فى الجامعة .

عندما انتقلنا إلى حى العباسية كان من الطبيعى أن يدخلنى أهلى مدرسة تناسب سنى ، ولقد دخلت مدرسة البرامونى الأولية وقضيت بها عامين قبل التقدم لامتحان القبول بالمدرسة الابتدائية ، وكانت هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الأولية - تعيسة بالنسبة لى ، ولشرح ذلك ينبغى أن أوضح أننى قد تعرضت وأنا فى الثالثة لحادثة - ونحن مازلنا فى حى الأزهر - كادت تودى بحياتى ، فقد وقعت من على سلم منزلنا ونزفت من جرح فى الاسنان واللثة ، ولابد أن هذا الجرح قد أهمل أو عولج بالأساليب الشعبية مما أدى إلى حدوث غرغرينة فى اللثة العليا ، وذهب بى أهلى إلى المستشفى الإيطالى بالعباسية وأجريت لى جراحة عاجلة أزيل فيها جزء من اللثة وعظمة الأنف وقضيت أياما بين الحياة والموت . فلما عوفيت اتضح لأهلى أنه ترتب على هذه العملية بعض التشويه فى الفم . وفى المدرسة الأولية كان الأطفال وبعض المدرسين يعيروننى بهذا التشويه ، وكان مدرس اللغة العربية ينادينى للاجابة فيقول «قوم يا أشرم» إشارة إلى هذا

العيب ، وأعتقد أن الخجل والانطواء في شخصيتي آنذاك إنما يعود إلى تلك الظروف ، ولقد أدى هذا إلى كراهيتي للمدرسة وللذهاب إليها وإلى شدة تعلقي بأمي وكان ذهابي إلى المدرسة كل يوم مشكلة فقد كنت أبكي وأصرخ إلى أن يحملني الخادم على كتفه إلى باب المدرسة وهناك يتلقفني الشيخ ناجي المسئول عن طابور الصباح فيأمر الفراش أن يخلع لي حذائي ثم يقوم هو بضربي على قدمي بضع خيرزانات لأكون عبرة للأطفال الآخرين ، وفي بعض الأحيان كنت أهرب من المدرسة في فترة بعد الظهر .

معاناة الدراسة الأولى

ذكرت هذه الوقائع لأوضح أنني لم أتعلم الكثير في المدرسة الأولية وعندما تقدمت عام ١٩٣١ لامتحان القبول بمدرسة الظاهر الابتدائية لم أنجح في الامتحان بل رسبت بجدارة ، وعندئذ أسرع أخي إبراهيم بتقديم أوراقي إلى مدرسة الحسينية الابتدائية ونجحت بالكاد في امتحان القبول . وهكذا قضيت مرحلة التعليم الابتدائي في الحسينية الابتدائية (وهي قريبة من ميدان الجيش وقد شغلت المبنى بعد الثورة شركة مصر للمستحضرات الطبية) من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٥ . كان التعليم الابتدائي بالمصروفات (عشرة جنيهات تدفع على ثلاثة أقساط) إلا للمتفوقين أو نسبة ضئيلة جدا يتم إعفاؤها بناء على تقديم

شهادة فقر . ولم أكن من المتفوقين ، ومع أن الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ - ١٩٣٢ قد أصابت أبى بضرر شديد وصل إلى حد الإفلاس إلا أننا لم نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر . ورغم هذه المعاناة فقد دفعوا لى المصروفات فى السنة الأولى وجزء من السنة الثانية ، ثم أعفيت بعد ذلك من المصروفات بمناسبة شفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الأوائل من كل سنة من سنوات الدراسة . ومع بدايتى المتواضعة كان اهتمام أشقائى بى فى المذاكرة قد أوصلنى إلى أن أكون من الخمسة الأوائل فى نهاية السنة الثانية وظل هذا حالى فى السنتين الثالثة والرابعة وتميزت بتفوق خاص فى اللغة العربية والحساب وربما يعود تفوقى فى اللغة العربية إلى طبيعة اهتمامات الأسرة التى تخرج العديد من أبنائها فى دار العلوم . أما شغفى بالحساب فلا شك أن لمدرسى آنذاك - الاستاذ المرصفى - فضلا لا ينسى فيه .

وبشكل ما استطاعت الأسرة أن تجتاز تلك المرحلة بصعوبة ودون خسائر فادحة . ذلك أن أخى إبراهيم قد عين فى مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات . ومع أنه كان الثانى فى دفعة دار العلوم عام ١٩٣٠ فإنه لم يعين بمدارس الوزارة بسبب قرار صدقى باشا وقف التعيينات ، وكانت شقيقتى الكبرى عائشة تعمل مدرسة بالمدارس الابتدائية وساعدنا ذلك على تدبير أقساط المصروفات لى ولثلاثة من

الأشقاء . لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة ولعل تلك المرحلة هى التى لفتت نظرى – ولا تزال – لمسألة الفقر فى الأوساط الشعبية والظلم الفادح الواقع على الملايين نتيجة الحرمان من التعليم ، والخسارة التى تصيب الأمة كلها نتيجة هذه الأمية .

الابن القدوة

وينبغى أن أذكر هنا أن سلوك الابن الأكبر فى العائلة فى طريق التعليم يكون له فى العادة أثر غير قليل على الأبناء الأصغر ، فهو القدوة والمثل خصوصا إذا كان فارق السن كبيرا . وفى حالتنا كان لتفوق شقيقى الأكبر إبراهيم أكبر الأثر عندى طوال مراحل التعليم . فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٣٤ . وطول المدة التى قضاها بالخارج كان يرسل لى كل فترة خطابات على المدرسة يشجعنى فيها على التفوق الدراسى ويطلب منى أن أبعث له بأخبارى ومشاكلى . أتذكر مثلا أننى عندما كنت فى سنة الشهادة الإبتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل ضابط المدرسة يوما إلى فصلى ونادى اسمى ، فلما وقفت ناولنى خطابا من إنجلترا وبالطبع كانت سعادتى وفخرى أمام زملائى فوق الوصف ، وقد حدث نفس الشئ لأكثر من مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقضيت بها السنة الأولى والسنة الثانية .

فى المرحلة الثانوية (١٩٣٥ - ١٩٤٠) قضيت بمدرسة فؤاد السنتين الأولى والثانية، فلما فتحت مدرسة فاروق الأول أبوابها عام ١٩٣٧ كنت من ضمن المنقولين إليها وفيها قضيت السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة الثانوية ومنها حصلت على الشهادة التوجيهية عام ١٩٤٠ .

ولكن يحسن أن أشير إلى حادث مهم فى حياتى وقع لى بمدرسة فؤاد الأول فى السنة الأولى من التحاقى بها . ففى العام الدراسى ١٩٣٦/٣٥ قامت فى مصر مظاهرات عارمة تهتف بسقوط وزير خارجية بريطانيا «صموبل هور» بمناسبة تصريح له ، ولقد خرجنا من المدرسة فى مظاهرة كبيرة إلى شارع العباسية حيث هاجمنا البوليس وضربنا بقسوة ، فعدنا إلي المدرسة وألقينا على قوات البوليس الطوب والأخشاب . وكان شقيقى محمد فى طليعة فرقة قذف الطوب . وكنت أساعده ، وفى المساء جاءت قوات من البوليس إلي المنزل وسألت عنى لأنهم وجدوا بعض كتبى على سطح المدرسة ، كنت فى الثانية عشرة وأخذت إلى قسم الوايلى حيث قضيت الليل مع ثلاثين آخرين فى زنزانة القسم ، وفى الصباح أخذونا إلي مبنى محافظة القاهرة حيث عرضنا على النيابة التى تولت التحقيق معنا، ثم أفرجت عنى لصغر سنى . كان هذا الحادث أول مواجهة لى - وأنا مازلت طفلا لمسألة السلطة ، ولقد بكيت عندما جاء ت أمي

لزيارتى فى قسم البوليس لكنى عندما عدت إلى المدرسة فى اليوم التالى حاولت أن أتظاهر بالشجاعة أمام زملائى ، وبالطبع ترك هذا الحادث أثرا عميقا فى حياتى بعد ذلك ، مازلت أذكره بتفاصيله كما أنى مازلت أذكر جنازة ويصا واصف التى مرت عام ١٩٣١ فى شارع رمسيس أمام منزلنا وهتافات شباب الوفد فى تلك الجنازة المظاهرة كقولهم «اشكى الظلم لسعد يا ويصا» .

تكوينى الثقافى

وفى هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الثانوية - واظبت طوال الصيف على الذهاب إلى دار الكتب فى ميدان باب الخلق للقراءة واستعارة الكتب ، فقد كانت ظروفنا المالية لا تسمح بشراء كتب للقراءة العامة وإن كنت قد استفدت من مكتبة أخى إبراهيم بالمنزل التى تركها عند ذهابه إلى بريطانيا ومنها قرأت مقامات الحريرى وديوان المتنبى وديوان الحماسة لأبى تمام وكتاب قدامة بن جعفر فى نقد النثر وغيرها ، ولست أدعى أننى فهمت كل ما قرأت فى مكتبة أخى ، لكن ذلك كان مقدمة لمواظبتى على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا ، وساعدنى على هذا أن خالى الأصغر كان آنذاك رئيسا لقسم الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامى رئيسا لقسم الفهارس

الأجنبية فى القاعة المقابلة ، وكان موظفو قسم الفهارس العربية يرحبون بى ويساعدوننى ، وفى تلك المرحلة قرأت معظم إنتاج طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازني وتوفيق الحكيم وعبدالله عنان كما قرأت ديوان شوقي ومسرحياته وحافظ إبراهيم والبارودى ، وكان العقاد يلفت نظرى ويستحوذ على اعجابى بصفة خاصة خصوصا كتابه «سعد زغلول سيرة وتحية» فى مطالعاته فى الكتب والحياة وتأملاته فى الفلسفة وكتابه عن ابن الرومى ، لكن كتب العقاد التى صدرت فى مرحلة متأخرة من حياته لم أجد فيها نفسه العميق القديم .

وفى تلك المرحلة أيضا حرصت على قراءة بعض الكتب العربية التى تتناول قضايا الفلسفة بصورة مبسطة وشغلنى على وجه الخصوص سقراط وأفلاطون فى الفلسفة اليونانية وأفكار المعتزلة فى الفلسفة الإسلامية كما عرضها أحمد أمين ، وكان لكل هذه القراءات أثرها فى نشاطاتى بمدرسة فاروق الأول الثانوية . فمع مواظبتى على شراء مجلة «الثقافة» كنت مشتركا فى جمعية التمثيل بالمدرسة . وأذكر أنى قمت بدور الكاهن «أنوبيس» فى مسرحية كليوباترا لشوقى عندما قدمناها فى آخر العام ، وكنت ضمن هيئة تحرير مجلة المدرسة «الفجر» واشتركت مع آخرين فى تكوين «الجمعية الرياضية» تحت إشراف المدرس الأول للرياضيات بالمدرسة . وقد شجعنى هذا النشاط على

مواصلته فى مرحلة الجامعة حيث انتخبت رئيسا للجمعية الطلابية للعلوم الرياضيـة والطبيعية بكلية العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٤٤/٤٣ .

ولقد واجهت مشكلة عسيرة عام ١٩٣٩ إثر حصولى على شهادة الثقافة العامة إذ كان علىّ أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية (آداب ، علوم ، رياضيات) . فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة ، كما كنت محبا أيضا للرياضيات ومتفوقا فيها . ومع أنه بدا لى أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعى لأن أفلاطون كتب على باب أكاديميته : «لا يدخلها إلا المشتغلون بالهندسة» إلا أن نظام التعليم فى جامعاتنا لم يكن يسمح بذلك ، فإما أن ألتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة الرياضيات ، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق بسهولة فى الجامعات الأوربية والأمريكية حيث تقوم الجامعة على الأقسام كالوحدات الأساسية وليس الكليات وحيث جدول الدراسة من المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما فى جامعاتنا ، وفى ظنى أن إحدى نقاط الضعف الأساسية فى جامعاتنا هو هذا الوضع الجامد الذى لا يسمح بالجمع بين الفلسفة والرياضيات معا أو بين الرياضيات والاقتصاد ... وهكذا .

وظللت فى هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩ ثم تصادف حضور أخى إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعى بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال آنذاك إن فى مقدورى دراسة الفلسفة أو الأدب وحدى بالقراءة والمثابرة فى أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم ، لكن العكس صعب وإن لم يكن مستحيلا ، وأذكر أنه قال لى كآخر حجة فى جعبته إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحدا ! .

واقتنعت ودخلت شعبة الرياضيات فى السنة التوجيهية ثم قسم الرياضيات فى كلية العلوم ولم أندم على ذلك أبدا . وفى مرحلة المراهقة والنزعات الافلاطونية بدت العلوم الرياضية - البحتة لا التطبيقية - ذات جمال خاص ، وما كان يذهلنى حقا هو معنى هذه الحقائق الرياضية فى الهندسة والجبر التى بدت وكأنها مستقلة عن أى خبرة . إنه عالم المثل إذن كما كان يقول أفلاطون واحتضنت بقوة كتاب الرياضى الانجليزى الكبير هاردى «الرياضة البحتة» كما احتضنت أفكاره المثالية كذلك .

وعندما أتأمل اليوم نظرتى إلى هذا التاريخ القديم لأفكارى وآرائى كطالب بالمرحلة الثانوية ثم الجامعية أحس كم تغيرت الآن عن ذلك الزمان ، وربما كان السبب فى ذلك دراستى للفكر الماركسى بعد تخرجى فى الجامعة عام ١٩٤٤ وتعيينى معيدا فى كلية العلوم جامعة الاسكندرية .

استغرقتنى السياسة فأعطيتها كل حياتى

فى مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة) وعينت فى أوائل سبتمبر من نفس العام معيدا بكلية العلوم جامعة الملك فاروق (الاسكندرية) . ومع أنه كانت هناك فرصة لتعيينى بجامعة القاهرة إذا انتظرت ، فأننى آثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة فى مقدمتها أننى كنت حريصا على أن أعيش حياة مستقلة عن الأسرة خصوصا بعد وفاة والدتى وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها .

لكنى ذهبت إلى الاسكندرية وأنا أحمل فى داخلى ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا مهما فى تحديد مسار حياتى واهتماماتى بالاسكندرية . لقد ساعدت ظروف تربيتى وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم على اهتمامى منذ وقت مبكر فى شبابى بالعمل العام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الآخرين خصوصا إذا كانوا من الفئات المضطهدة والمطحونة اجتماعيا . فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد إثر أزمة فبراير سنة ١٩٤٢ بين الملك والانجليز – وسط غارات جوية ألمانية وإيطالية على القاهرة والاسكندرية – وكانت قوات روميل قد وصلت إلي العلمين ، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية بالزيتون التى كانت قد انشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات ، وكان سنى أنذاك لا يزيد

على ستة عشر عاما ، وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول خمسة في المائة من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء (مبرة الأميرة فادية بالدمرداش ومبرة الأميرة فريال بالقلعة) سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجاني في المبرة الأولى التي كانت قريبة من منزلنا ، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة في فصول محو الأمية وفي الطواف على منازل الأطفال الفقراء بالمحمدي لبحث الحالة الاجتماعية لأسرة كل طفل واقتراح معونة مالية لها . وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار الممولين فيها .... كامل عبدالرحيم وكيل الخارجية المساعد آنذاك وسفير مصر في واشنطن بعد ذلك والمستشار عبدالمنعم رياض الذي كان من قضاة محكمة النقض .

الشباب والخدمة الاجتماعية

ولقد استطعت إقناع بعض زملائي - ومنهم د. محمد عجلان - بالاشتراك في هذا العمل التطوعي الخيري خلال فترة الصيف ، ونجحت في ذلك مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة ، خصوصا كامل عبدالرحيم الذي كان يرى في هذا العمل نقطة تحول في توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية . وساعد على توثق صلتي به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفي وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة

كانوا يختلسون بعض الأموال المخصصة للإنفاق عليها ، فما كان منه إلا أن كلفني بمسئولية الانفاق على المبرة يوميا وتقديم كشف حساب له كل شهر . وعندما تخرجت فى كلية العلوم وعينت معيدا بالاسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شاى بمنزله بمصر الجديدة لتحيتى وتوديعى وأهدانى باسم المبرة أربعة كتب فى الرياضيات قيل لى إنها سوف تفيدنى فى حياتى العلمية الجديدة .

كانت تلك إذن صورة سريعة لاهتماماتى بالعمل العام - الخدمة الاجتماعية - عندما ذهبت إلى الاسكندرية . ولقد أشرت إلى ذكريات العلاقات الكثيرة مع زملاء لى التى حملتها معى عند ذهابى إلى الاسكندرية ، وهنا يجدر أن أشير إلى علاقتى بالدكتور عبدالمعبود الجبيلى - وزير البحث العلمى فى السبعينيات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك - كان عبدالمعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين وكان محل انتباه الانظار بالكلية له لتفوقه العلمى وذكائه واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا فى الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس الذى توقعته ، وأدى بنا هذا إلى حوار طويل حاول فيه إقناعى بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدى إلى تغيير حقيقى فى الاحوال المتردية للمجتمع المصرى وأنها لا تزيد على أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الاسبرين،

وأن الحل الحقيقى الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم ، وأن مثل هذا العمل فى حاجة إلى إعداد طويل .

وشيئا فشيئا بدأت أشك فى أنه مرتبط بشكل ما بتنظيمات ماركسية غير معلنة ، ثم تيقنت من صحة هذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معى ببعض الصراحة ويعيرنى بعض الكتب الماركسية الانجليزية مثل «ما هى الاشتراكية» لإميل بيرنز ، وكتاب «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» للينين ، وملخص لكتاب «رأس المال» لماركس ، وكتب أخرى ترضى اهتماماتى بالفلسفة مثل كتاب «الايديولوجيا الألمانية» ، «ضد دهرونج» لماركس ، وكتاب «المادية والنقد التجريبى» للينين . ولقد التهمت كل هذه الكتب وتصورت أننى فهمت وإن كنت قد أدركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعى والثقافى اللذين ألفت فيهما هذه الكتب . غير أن أهم كتاب أثار اهتمامى آنذاك هو فى الحقيقة كتاب إنجلز «جدل الطبيعة ، وهو محاولة من المؤلف - على ضوء اكتشافات العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر - لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات . وهذا الكتاب بالذات كان محل انبهارى الشديد فى تلك الفترة من شبابى لأنه بدا لى أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلمية - فى الرياضيات والفيزياء والبيولوجى - لم أسمع به من قبل ، ولقد لفت

نظرى على وجه الخصوص كيف أكون رجلا مثل إنجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مع أنه غير متخصص فى العلوم .

وبالطبع فعندما أنظر الآن إلى هذا الكتاب أشعر أن هذا الإعجاب المبكر كان مصدره جهلى بأشياء كثيرة من العلم . وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخى ، لكن التطورات العلمية للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه دون شك وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التى تبدو لى اليوم ساذجة كان مصدرها معرفة إنجلز السطحية بهذا العلم .

الثورة هى الحل

تلك كانت البداية إذن .. مناقشات مستمرة مع عبدالمعبود الجبيلى وغيره من الأصدقاء وقراءة متصلة فى كتب ماركسية كان يعيرني إياها ، وكل هذا انتهى بى إلى الاقتناع بوجهة نظره بإنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة ، وأن خير ما يفعله شاب مثلى هو المشاركة فى الإعداد لها . وهكذا ارتبطت بمنظمة «إسكرا» التى كان الجبيلى أحد قياداتها . وعندما تمت الوحدة بين «إسكرا» وبين «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) أصبحت واحدا من أعضائها .

ولقد كانت مصر - فى ظل الأزمة الطاحنة التى كان يجتازها النظام الحاكم - تموج بتنظيمات غير قانونية كثيرة من بينها بالطبع تنظيم

الضباط الأحرار الذى كان يقوده البكباشى جمال عبدالناصر ، ومع أننى لم أكن على علم بتنظيم الضباط الأحرار فقد كنت أشعر بشكل غامض أن هناك شيئا يجرى داخل الجيش بين ضباطه الصغار وكان مصدر هذا الشعور أننى قابلت أنذاك عددا من الضباط الصغار ذوى الميول الاشتراكية من بينهم الملازم أول أحمد حمروش ، وقد فهمت أنهم يؤدون بعض الخدمات التنظيمية الثورية مستفيدين من سيارات الجيش .

ولقد كانت هناك حاجة شديدة لدى منظمة «إسكرا» لتكوين مجموعة مصرية قوية من المثقفين بالاسكندرية . لقد كان لها وجود نشيط ضمن أجانب الاسكندرية ، لكن وجودها ضمن المصريين كان قريبا من الصفر ، ولذا لا أشك أن مجموعة المعيدين بكلية العلوم بالاسكندرية قد لعبت دورا رئيسياً فى تشكيل تنظيم مصرى فى أوساط طلاب الجامعة وشبابها . وساعد على ذلك أننا نجحنا فى إنشاء ناد ثقافى بحى الازاريطا بالاسكندرية كان محل لقاء الشباب المتحمسة بالشئون العامة ، وفى تأسيس رابطة للمعيدين تدافع عن مصالحهم النقابية . كما أن صدور مجلة «الجماهير» الاسبوعية بالقاهرة كان عنصرا مهما فى تجنيد العناصر المتحمسة لقضية الثورة .

وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبة تلم بنا نتيجة إدراكنا أن هناك تنظيما لإسكرا فى أوساط الأجانب لانعرف عنه شيئا

ولكن مما خفف هذا الوضع علينا فى الاسكندرية أننا كنا نعمل بنجاح كبير فى أوساط الطلاب العمال ، وكان الانفصال الكامل بين التنظيمين المصرى والأجنبى يساعد على أن ننسى هذه المسألة على الأقل فى السنوات الأولى .

وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ - ١٩٤٨) تتميز بجيشان جماهيرى واسع وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطانى الرابض فى القاهرة والاسكندرية وضد النظام الملكى الذى كان قد فقد شعبيته وبالتالى شرعيته تماما . وبشكل عام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا وكانت الأوبئة تكتسح البلاد - الكوليرا مثلا - وتفتك بالألوف ، وكان الرأى العام - وخصوصا الشباب - معاديا للنظام الملكى ولفاروق خصوصا بالرغم من الجهود الحثيثة التى كان يبذلها الاخوان مصطفى وعلي أمين لتقديم صورة زائفة عن الملك وأسرته أمام الرأى العام .

صراع مع الانجليز

وعندما أتأمل اليوم أحداث تلك الفترة تتدافع إلي ذاكرتى أشياء عديدة قد يكون من المفيد أن أشير إلى أهمها باعتبارى واحدا من شهودها أو المشاركين فيها . وأولها بطبيعة الحال اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت مظاهرات ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ ضد الاحتلال فى

ميدان التحرير وفى مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية (وكانت مـ-ـل مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل) ، مما أدى إلى سقوط العشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال . لقد كان هذا العمل الجماهيرى المجيد حدثا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وحتى اليوم مازال الطلاب فى العالم يحتفلون بهذا اليوم (٢١ فبراير) سنويا باعتباره (يوم الطلاب العالمى) .

ولأنى كنت فى الاسكندرية فلم يكن لى أدنى صلة لا بتشكيل تلك اللجنة ولا بمظاهرات ذلك اليوم المجيد ، وإنما ذكرته هنا لأن هذا الحدث الجليل كان له رد فعل غاضب بالاسكندرية يوم ٥ مارس حيث وقعت المصادمات التى كنت من شهودها بين مواقع البوليس الحربى البريطانى بمحطة الرمل والمنشية وأدت إلى مصرع عدد من جنود الاحتلال .

بعد هذه الأحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أذكر وقعت مصادمات أخرى بين طلاب جامعة الاسكندرية وقوات البوليس المصرى التى كانت تحاصر مبنى الجامعة فى محرم بك حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة . وجن جنون قوات الأمن فأمطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة سواء من الطلاب أو هيئات التدريس ، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلي منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم – محمد العشماوى – من القاهرة فى طائرة وأمر برفع الحصار . وخلال

فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدى كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا فى الحصار بما فى ذلك توقيع عميد كلية العلوم – الدكتور حسين فوزى – وعميد كلية الحقوق الدكتور عبدالمعطى خيال . واتصلت تليفونيا بأحد الأصدقاء خارج الجامعة وأبلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها إلى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة) . وبالفعل صدرت الجريدة فى صباح اليوم التالى وفى صفحتها الأولى نص البرقية فى برواز كبير موقعا عليه باسمى نيابة عن الموقعين ، وكان ظهور اسمى بهذا الشكل مجرد مصادفة إذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسئولية هذه البرقية فكان أن أعطاه صديقى اسمى ، واستشاط رئيس الوزراء – اسماعيل صدقى – وكلف وزير التعليم بالتحقيق فى الموضوع . واعتقد أننى كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن عميدى العلوم والحقوق من الموقعين فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس ، ولم يكن من السهل إذن تحميلى المسئولية .

محاولة فاشلة لاعتقالى !

ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمى فى كشوف حملة اعتقالات اسماعيل صدقى التى نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها العديدون من بينهم محمد زكى عبدالقادر والدكتور محمد

مندور وعبدالرحمن الشرقاوى وهنرى كورييل وآخرون كثيرون ، والتي قصد بها في حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيرى البارز الذى كان اليسار المصرى - بالتعاون مع الطليعة الوفدية - قد نجح فى قيادته . ولم يتمكن بوليس الاسكندرية من اعتقالى لأنهم ذهبوا إلى عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة . وشاء الحظ العاثر للضابط المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نواب حزب السعديين بحثا عنى، ورفض أن يعترف أن لهذا المنزل حصانة برلمانية . وفى اليوم التالى تقدم النائب باستجواب فى البرلمان ، وكانت العلاقات بين اسماعيل صدقى والسعديين قد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب حملة شديدة على الوزارة واضطر رئيس الوزراء إلى أن يلقى بيانا فى البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذى كان مكلفا باعتقالى ضمن الحملة ، وقدم اسماعيل صدقى اعتذارا للنائب عما حدث وأعلن أن الضابط قد نقل إلي الصعيد عقابا له .

قرأت كل هذا وأنا فى مخبئى عند أحد الأصدقاء بالاسكندرية وقد تردد اسمى كثيرا فى كل هذه المساجلات البرلمانية . وفى أوائل سبتمبر كانت النيابة قد أفرجت عن جميع من اعتقلوا فى حملة يوليو وحفظت التحقيق . فعدت إلى الجامعة وعند خروجى منها ظهرا فى أحد الأيام وجدت ضابطا فى انتظارى حيث قضيت فى قسم محرم بك ليلة شديدة

الطرافة ، وفى الصباح توجهت إلى النيابة بالمنشية ، فما كان من وكيل النيابة إلا أن سألنى بضعة أسئلة شكلية وتولى هو الاجابة عليها ثم رجانى أن أذهب إلى الجامعة فور خروجى من مكتبه . ولم أفهم السبب فى هذا الطلب إلا عندما علمت عند وصولى إلى الكلية بإضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالى .

أما الواقعة الثالثة الجديرة بالإشارة هنا فتتعلق بأحداث ٥ ، ٦ ابريل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم «إضراب البوليس» . لقد كان لضباط البوليس وجنوده مطالب تتعلق بزيادة الرواتب وتحسين ظروف العمل . وقد فشلوا فى إقناع رئيس الوزراء النقراشى الذى كان عنيدا إلي حد الحماقة ، بعدالة تلك المطالب . وعندئذ دعوا إلى إضراب عام لهم فى يوم ٥ إبريل ، وكان لهذه الدعوة إلي الاضراب امتدادات جماهيرية واسعة فى الاسكندرية على وجه الخصوص . فقد تزامن هذا الموضوع الخطير - إضراب البوليس - مع مطالب نقابية خاصة بالأجور لعمال الغزل والنسيج وغيرهم ، كما تزامن مع موضوع طلابى آخر عرف آنذاك باسم «قضية سعد فريد» .

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قبض عليه فى حي كرموز وقيل إنه كان يوزع منشورا يساريا عند أبواب شركة الغزل الأهلية . وفى إجراءات حكومية عاجلة ومقصودة للتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليه حكم بالسجن ستة أشهر ، وقد أثار هذا الحكم ثائرة طلاب

الجامعة لأنه كان أول حكم يصدر ضد طالب . كل هذا كان قد جرى قبل ٥ ابريل بشهر على الأقل . لكن غياب البوليس فى هذا اليوم المشهود كان فرصة مواتية لمظاهرات عارمة التحم فيها العمال مع الطلاب مع جنود البوليس في مظاهرات ملأت ميدان المنشية ، وكان جنود البوليس يرفعون سناكي بنادقهم وعلى قمتها رغيف عيش إشارة إلى مطالبهم . واتجهت بعض هذه المظاهرات إلى سجن الحضرة لإطلاق سراح سعد فريد . ونزلت قوات الجيش بالدبابات والعربات المصفحة إلى الميادين وأطلقت النيران وسقط العديد من القتلى والجرحى . وفى هذا اليوم - أو ربما اليوم التالى ٦ ابريل - وزعت منشورات باسم (حدتو) كان عنوانها «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» . وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير . ولقد أشرت منذ سنوات فى مكان آخر إلى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كان فى الحقيقة الشاعر كمال عبدالحليم الذى كان آنذاك المسئول السياسى فى (حدتو) لمنطقة الاسكندرية ، وأن كاتب هذه السطور هو الذى قام بطبع المنشور فى أحد مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه ، وكنت آنذاك مسئول الدعاية والتثقيف فى نفس لجنة المنطقة .

اعتقالات بالجملة

لقد كان هذا المد الثورى بالاسكندرية والقاهرة هو السبب الحقيقى لقيام حكومة النقراشي بإعلان الأحكام العرفية فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨

رغم أنها اتخذت من موضوع فلسطين تكئة لهذا الإعلان ، ولعل الدليل الواضح على ذلك أنها لجأت إلى اعتقال كل القوى السياسية المناوئة للنظام بادئة باليسار ثم قوى الطليعة الوفدية ثم الاخوان المسلمين بعد ذلك بشهور . وكنت بالطبع واحدا من المعتقلين الذين أودعوا فى معتقل (أبو قير) بالاسكندرية ثم نقلت بعد ذلك بشهور مع آخرين إلى المعتقل المخصص للقاهرة (معتقل الهاكستيب) ، ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل (الطور) على ساحل البحر الأحمر بالقرب من دير سانت كاترين ، وقد تجمع فى هذا المكان الذى كان أصلا مخصصا للحجر الصحى الآلاف من اليسار والاخوان المسلمين ، وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجى ، وكانت وسيلة الإتصال الوحيدة بين المعتقل وبين السويس هى الباخرة «عايدة» التى كانت تأتى لنا بالمؤن والمأكولات والخطابات كل أسبوعين .

وقد قضيت فى تلك المعتقلات نحو عام ونصف مرضت فى آخرها ونقلت إلى مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عندما أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين .

ومن الضرورى الإشارة إلى أن قصة الاعتقالات هذه قد تزامنت مع

الانقسامات العديدة التى وقعت فى صفوف اليسار وأدت إلى تضعضع نفوذه . صحيح أن الخلافات وبداية الانقسامات كانت قد بدأت قبل إعلان الأحكام العرفية والاعتقالات ، وذلك بانقسام شهدى عطية الشافعى الذى عرف آنذاك بـ «تكتل سليمان» . ولكن قضية فلسطين والموقف من مشروع التقسيم وبداية اعتقالات ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ... كل ذلك خلق مناخا مواتيا لانقسامات أوسع بين مؤيدى مشروع التقسيم ومعارضيه فى صفوف اليسار ، وكان من الطبيعى أن يثور فى هذا المناخ وضع الأجانب واليهود داخل قيادة (حدتو) وخصوصا هنرى كورييل .

ولقد حاولنا فى الاسكندرية تجنب انقسامات القاهرة ونجحنا فى ذلك إلى حد كبير فى أول الأمر ، لكن اشتداد حملة الاعتقالات ثم ذهابنا إلى معتقل الهاكستيب حيث الانقسامات كانت مكرسة بالفعل أدى بطبيعة الحال إلى أن أصبحت الاسكندرية جزءا من هذه الانقسامات التى صارت أمرا واقعا . ولقد حلت الحكومة موضوع الاجانب فى معظمه بترحيلهم إلى خارج مصر ، ولم يعد لهذه المشكلة وجود داخل مصر وإن كان بعض هؤلاء المتمصرين من اليهود قد حاولوا إنشاء تنظيم لهم فى باريس باسم (مجموعة روما) . ولاشك أن الانقسامات قد أضعفت نفوذ اليسار إلى حد كبير وأصبح من الواضح لكل ذى عينين

أنه إذا قدر لليسار أن يستعيد حيويته ونفوذه في يوم من الأيام فإن ذلك سوف يستغرق زمنا طويلا .

عندما أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عدت إلى جامعة الاسكندرية كما عاد زملائى الآخرون من المعيدين ، لكننا وجدنا تقاعسا من الكلية فى تسليمنا العمل من جديد . وعدت إلى القاهرة ساعيا لمقابلة وزير التعليم الجديد بالوزارة الوفدية - الدكتور طه حسين - لشرح الأوضاع له . ولقد نجحت فى ذلك بفضل سكرتيره الخاص (حسين عزت) ومدير مكتبه (سعيد العريان) . ولقد كان موقف الوزير رائعا على الرغم من أنه لم يكن يعرفنى أصلا .. أنصت باهتمام كعادته لكل ما قلته ثم أشار إلى حسين عزت أن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية تليفونيا . وبقيت فى غرفة حسين عزت إلى أن استدعانى الوزير مرة أخرى لمقابلته فإذا به يطلب منى أن أذهب إلى الاسكندرية لتسلم عملي ، وقد علمت بعد ذلك عندما عدت إلى الاسكندرية أنه شدد على مدير الجامعة بضرورة عودتنا إلى عملنا .

بداية مرحلة جديدة

ولقد كانت عودتى إلى العمل بكلية العلوم بداية لمرحلة جديدة انتهيت فيها - بعد مراجعة فكرية طويلة - إلى ضرورة اتخاذ موقف جديد من النشاط السياسى نتيجة ما استجد من ظروف . لقد تمزقت قوى اليسار إلى كيانات صغيرة بلا وزن حقيقى ، واتضح لى سذاجة تفكيرنا

السياسي الذى كان يتوهم أن ثورة بقيادة قوى اليسار هى على الأبواب . ولقد كنا محقين فى الوصول إلى نتيجة أن نظام فاروق قد أصبح كالثمرة العفنة التى على وشك السقوط ، لكن الخطأ كان فى تصور أن اليسار كان قادرا على التصدى لقيادة التحول . ولقد ثبت تاريخيا أن ضباط الجيش بتوجههم الوطنى العام (وإن ضموا عناصر تنتمى إلى اليمين والوسط واليسار) هم الذين كانوا مؤهلين لقيادة معركة التحول فى معركة سرعان ما تم التخلص فيها من عنصر اليسار الموجود فى القيادة (خالد محيى الدين) .

وكل هذا التحليل قد انتهى بى إلى ضرورة السفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراه مادمت سأبقى فى الجامعة . وطلبت من صديق لى كان قد عاد من بريطانيا بعد حصوله على الدكتوراه أن يحجز لى مكانا فى إحدى كليات جامعة لندن ، وعندما تم هذا بدأت أستعد علميا للسفر ، إذ أن مشاكل العمل السياسى كانت قد أبعدتنى عن اهتماماتى العلمية ، وهكذا سافرت فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى لندن .

ومن المفارقات الغريبة التى وقعت لى قبل سفرى بأقل من شهرين أن وزير الداخلية فى وزارة الوفد - فؤاد سراج الدين - استدعانى إلى مقابلة فى مكتبه بلاظوغلى سنة ١٩٥٠ كما استدعى زميلى د. محمد

عجلان . وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامجنا السياسى تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الإصلاح الزراعى وبرنامج النهوض بالريف وحول قضايا التأميمات (خصوصا شركة قناة السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية .... إلخ ، وكان رأى الوزير أن الكثير مما ندعو له موجود فى برنامج الوفد ولم نوافق بالطبع على هذا الرأى . وقد فهمت السبب الأساسى لدعوته عندما قال إن تقارير القسم المخصوص له تقول إننا مستمرون فى نشاطنا السياسى غير القانونى ، ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فقد كنت أستعد للسفر إلى لندن ومشغولا بإعادة تأهيل نفسى من الناحية العلمية .

ولقد أوضحت هذا للوزير الذى فوجئ بنبأ استعدادى للسفر إلى لندن . ولقد ذكرته فى الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما كان يهتم هو به عام ١٩٤٩ من نفس هذه الأجهزة بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال رئيس الوزراء آنذاك النقراشى - ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم ويسكت عند سماعه كلامى . ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم المخصوص الذى حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومى على تقارير القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذى صار رئيسا للوزراء بعد ذلك فى عهد السادات .



قضيت فى بريطانيا عامين بالتمام والكمال من سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر سنة ١٩٥٢ لإعداد رسالة الدكتوراه فى الإحصاء الرياضى بإحدى كليات جامعة لندن . ومع أنى قضيت فيما بعد نحو خمس سنوات أخرى فى بريطانيا كمدرس بالجامعة (طوال سنتى ١٩٥٥ ، ١٩٥٩) وكأستاذ زائر لإحدى جامعتها (ثلاث سنوات خلال السبعينيات) إلا أن فترة الدكتوراه كانت نقطة تحول شديدة الأهمية فى حياتى العلمية وتكوينى الثقافى .

وفى العادة يستغرق الاعداد للدكتوراه فى الفروع العملية للعلوم الطبيعية حوالى أربع سنوات أو أكثر ، لكن فى الرياضيات بالذات يصبح من الممكن - ولو أنه نادر - أن ينتهى الطالب من إعداد رسالته خلال عامين ميلاديين إذ ساعده الحظ فى موضوع البحث أرهق نفسه بالعمل المتواصل وهو ما حدث معى إذ رغم سوء حظى فى مناسبات عديدة من حياتى فإن الموضوع الذى اقترح علىَّ بحثه كان أصلا قد بدأ على يد المهندسين المدنيين . وقد وصل إلى أستاذى من خلال أستاذ الهندسة المدنية بنفس الكلية التى التحقت بها (الكلية الامبراطورية) . والموضوع يتلخص فى أن مهندسا استشاريا بريطانيا مرموقا - هيرست - عمل فى مصر سنين طويلة وارتبط اسمه بدراساته المنشورة عن نهر النيل كان قد نشر فى مجلة الهندسة المدنية الامريكية بحثا مهما

يحـاول فيـه بناء نظرية للتخـزين القرنـى (مائة سنة) للمياه فى بحيرة فكتوريا . وقد صادف هذا البحث العديد من المسائل النظرية العامة في علم الاحتمالات والاحصاء . وكعادة المهندسين فقد حاول هيرست أن يعطى إجابات تقريبية على مسائل من نوع : كم يكون حجم الخزان إذا أريد له ألا ينضب خلال المائة سنة وعلى أساس تصرف مائي متوسط معين كل عام ؟ ولقد كان المطلوب مني هو معالجة منهجية لهذه القضايا وإعطاء إجابات دقيقة غير تقريبية عليها ، وهذا ما نجحت فيه فى نهاية الأمر وأدى بى إلى علاقة خصبة مع هيرست بعد ذلك .

ولقد اقتضى هذا العمل المتواصل صباحا فى حضور محاضرات لطلبة الدراسات العليا ولطلبة ما قبل البكالوريوس ، وبعد الظهر فى الذهاب إلى مكتبة الكلية ومكتبة المتحف العلمي البريطاني ، وفى المساء في مواصلة القراءة بالمنزل في كثير من الأحيان ، ولا شك أنها كانت مرحلة أساسية فى تكوينى العلمى .

تكوينى الثقافى

غير أن هذه المرحلة لم تكن أساسية في تكويني الرياضى فحسب ، وانما كانت أيضا شديدة الاهمية فى تكوينى الثقافى العام ، إذ انفتحت فيها على الجوانب الايجابية العظيمة فى الثقافة الغربية عموما وفى الثقافة الانجليزية خصوصا . ومن حسن الحظ أن الكلية التى

التحقت بها كانت فى أحد أحياء لندن المشهورة (سوث كينز نجتون) وهو حى المتاحف الكبيرة ... متحف فيكتوريا وألبرت ، المتحف العلمى البريطانى ، متحف التاريخ الطبيعى .. إلخ ، كما أن به قاعة ألبرت الشهيرة والتى كانت تعقد بها الحفلات الموسيقية الكبيرة والاجتماعية الجماهيرية الضخمة وكل هذا كان يبعد عن غرفتى بالكلية خطوات . ولا شك أننى مدين لقاعة ألبرت بتذوقى للموسيقى الكلاسيكية خصوصا بيتهوفن وموتسارت وهما أحب موسيقيين إلى قلبى ، كما حرصت فى عطلات نهاية الاسبوع على التردد على المسرح البريطانى والاستمتاع بروائعه ، ولم أفلح مع ذلك فى تذوق الاوبرا والاهتمام بها .

كما كانت إقامتى فى بريطانيا فرصة للقراءة فى الأدب الانجليزى وحضور ندوات ثقافية واجتماعية وسياسية وزيارة العديد من المدن البريطانية . ورغم هذا البرنامج الحاشد لم أفقد اهتمامى بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلى وركر البريطانية باسم (ص . الايوبى) ، كما حرصت على التردد على النادى المصرى يومى السبت والأحد للالتقاء بزملائى الدارسين لمناقشة الأوضاع فى مصر . وقد استطعنا تشكيل «اللجنة الوطنية» لمتابعة الموقف فى مصر والاستجابة له بالعمل الطلابى الصحيح ، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د . حكمت أبو زيد وزيرة

الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية ، د . فائق فريد نائب وزير الكهرباء الاسبق .

وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة ومنها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجرى فى مصر سياسيا ونقابيا عرفت باسم «السلام والاستقلال» ، وكنا نرسلها إلى النقابات والهيئات البريطانية بالبريد . والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدرها أصلا د . عبد المعبود الجبيلى في باريس وكان يرسلها لى فنتولى ترجمتها إلى الانجليزية وطبع أعداد كافية منها وإرسالها إلى النقابات والهيئات .

ولقد نجحت اللجنة الوطنية فى عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين فى بريطانيا بالنادى المصرى فى المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة ، وقد تميزت تلك الفترة فى مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك المؤتمرات فى لندن . غير أن أهم عمل اضطلعت به تلك اللجنة ونجحت فيه المؤتمر الضخم الذى عقد بالنادى المصرى أثر هجوم القوات البريطانية على محافظة الاسماعيلية وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكانت نفوس الطلاب تغلى سخطا على الأوضاع فى مصر التى أدت إلى تلك الكارثة الرهيبة ، وفى هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التى دبرها الاحتلال مع الرجعية المصرية لاسقاط

وزارة الوفد وحرق القاهرة ، كما تحدث غيرى من الطلاب فى هجوم صريح على النظام الملكى فى مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الأولى فيما حدث ، بل لقد وقف أحد الدارسين (د . عبد الحميد أمين) وطالب بضرورة أن يتنازل الملك فاروق عن العرش كبداية لحل الأزمة المستحكمة . ولقد صفق الطلاب طويلا لهذا الاقتراح ولكنه تسبب فى إحراج شديد لمدير مكتب البعثات - د . عبد العزيز عتيق - الذى كان زوج شقيقة عبد الحميد أمين ، وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد أمين .

ولم يمض على هذا المؤتمر سوى شهور قليلة حتى تحول الضباط الاحرار للاستيلاء على السلطة فيما عرف باسم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وفى هذه المناسبة دعونا لمؤتمر حاشد من جميع مدن بريطانيا لمناقشة الوضع الجديد . وكانت المعلومات المتاحة شحيحة عن طبيعة وتوجهات هذه الحركة الجديدة ، إلا أن الحدث الذى دفعنا إلى تأييد حركة الجيش بشكل حاسم هو طرد فاروق من مصر وتنازله عن العرش ، فقد كان هذا مطلبا من مطالبنا فى مؤتمر أواخر يناير سنة ١٩٥٢ . وأرسلت باسم اللجنة والمؤتمر برقية تأييد للثورة أذيعت من راديو القاهرة ، وازدادت قناعتى بصحة هذا الموقف عندما أعلنت الجمهورية لاحقا .

قرار بالفصل من الجامعة

بعد وقوع الثورة بشهرين قدمت رسالة الدكتوراه ونجحت فى الحصول على الدرجة وعدت إلى مصر متفائلا ببداية مرحلة جديدة . ولم أذهب إلى جامعة الاسكندرية كما كان مفروضا وإنما صدر قرار وزارى بنقلى إلى كلية العلوم جامعة القاهرة لأحل محل د . طلبة عويضة الذى كان قد أعير إلى العراق . وبقيت فى قسم الرياضة البحتة بالكلية المدرس الوحيد بين عدد من الأساتذة المساعدين وأستاذا واحدا أتحمل عبء تدريس ١٤ ساعة أسبوعيا حتى وقعت أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فانحزت إلى دعوة الديمقراطية مع خالد محيى الدين ومحمد نجيب ، وكنت من الموقعين على العريضة التى طالبت بعودة الجيش إلى ثكناته . وكان أن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصلى مع ٤٢ عضوا من هيئات التدريس بالجامعات معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف . وكان من بين هؤلاء د . عبد المنعم الشرقاوى د . لويس عوض ، ومحمود أمين العالم ، و د . فوزى منصور (من جامعة الاسكندرية) وآخرون كثيرون .

ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لى فقد كنت قد قضيت عامين فى جامعة القاهرة أدرس وأبحث واكتب مقالات فى الأدب والثقافة فى جريدة المصرى ومجلة روز اليوسف . وفى مايو سنة ١٩٥٤

طلبت إجازة فى الصيف للسفر إلى بريطانيا لاستكمال بعض الابحاث العلمية هناك ، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله فى لندن منقطعا لأبحاثى وعدت إلى القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ وبدون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلى من جامعة القاهرة . ومن المفارقات الغريبة أن أستاذى فى جامعة لندن الذى أشرف على رسالة الدكتوراه استدعانى لمقابلته قبل ترك لندن بأيام وفاجأنى أنه قد طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر فى الاحصاء بإحدى كليات الجامعة وأنه قد خطر فى ذهنه أن يرشحنى لشغل هذه الوظيفة . وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولى بجهودى . وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا إلى القاهرة لأجد قرار مجلس قيادة الثورة فى انتظارى ، وهكذا أصبحت فجأة فى القاهرة بلا عمل وبالطبع أبرقت إلى أستاذى أخبره أننى قبلت عرضه وأن خطابا فى الطريق يشرح لماذا غيرت رأيى .

ولست أنسى فضل الذين حاولوا مساعدتى فى هذه الظروف ومنهم د . عبد المنعم الشافعى الذى كان آنذاك وكيلا لوزارة الشئون ، والذى رشحنى للعمل فى معهد الاحصاء الدولى (فرع بيروت) . وبالفعل سافرت إلى بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ وقضيت هناك نحو أربعة شهور أدرس فيها لطلاب معهد الاحصاء الدولى . ومن بيروت سافرت

إلى بريطانيا فى فبراير سنة ١٩٥٥ وبقيت فيها نحو عامين محاضرا بكلية تشلسى للعلوم والتكنولوچيا حتى تأميم قناة السويس فى يوليو سنة ١٩٥٦ وعندئذ قررت أن أقدم استقالتي من عملي لأتفرغ للدفاع عن قرار التأميم أمام الرأى العام البريطاني . والغريب أن إحسان عبد القدوس - وكنت على صلة به وأبعث له مقالاتى فينشرها فى روز اليوسف - كان قد كتب فى فبراير سنة ١٩٥٥ مقالا طويلا على صفحتين فى مجلته عنوانه «الرجل الذى سرقه الانجليز» يدعو فيه إلى إعادتى إلى جامعة القاهرة ويطالب الثورة بتصحيح هذا الخطأ ، وكان مقالا شجاعا فى تلك الظروف . ثم جاءت مسألة التأميم واستقالتى من عملى فى لندن فوضعت القيادة فى مصر فى موقف حرج . والغريب أن الملحق العسكرى فى السفارة المصرية بلندن طلب منى ألا اشترك فى العمل الجماهيرى فى بريطانيا المدافع عن التأميم والمناهض للحرب لأنه كان يتصور أننى سأقف فى هذا العمل معارضا لعبد الناصر باعتبارى مفصولا من الجامعة لكنى رفضت طلبه بالطبع واتخذت الموقف الذى أملاه علىّ ضميرى الوطنى وهو الدفاع عن التأميم وعن عبد الناصر فى موقفه من الجزائر وباندونج .

ولقد تعاونت فى هذا النشاط مع «حركة تحرير المستعمرات» التى كان الجناح اليسارى من نواب حزب العمال هو القيادة الحقيقية لها

(تونى بن وآخرون) واشتركت بهذه الصفة فى اجتماعات جماهيرية حاشدة فى المدن البريطانية المختلفة ، انتهت إلى اجتماع ميدان «الطرف الأغر» بعد بدء العدوان الثلاثى على مصر بأيام . وبعد هذا الاجتماع بأيام عدت إلى القاهرة عن طرق الخرطوم التى بقيت فيها حتى حضور أول طائرة من القاهرة فوصلت القاهرة فى أوائل ديسمبر لأجد عرضا من خالد محيى الدين بالعمل معه فى صحيفة المساء . وقبلت العرض وتحولت من أستاذ جامعى إلى صحفى منقطع للعمل فى بلاط صاحبة الجلالة .

أمينة السعيد

فشلى فى بداية حياتى دفعنى لاحتلال أرفع المناصب الصحفية

رحلتى مع الحياة العملية تزيد على الخمسين عاما ، تبدأ من المرحلة الثانوية يوم اختارتنى السيدة هدى شعراوى للعمل معها، وفى الجامعة مارست العمل الصحفى، من خلال المقالات التى كنت أرسلها لبعض الصحف والمجلات باسم مستعار يوم التحقت بدار الهلال للعمل بها ، وطردنى أميل زيدان، وجاء زوجى لكى يقدم لي النصح، ويصحح لى بعض الاخطاء التى وقعت فيها، ويوضح السبب الذى جعلهم يستغنون عن خدماتى بدار الهلال، واشترى لى هدية قيمة مازلت أقتنيها وأضعها أمامى فى منزلى، وهى الموسوعة الانجليزية والتى أفادتنى كثيرا فى حياتى العملية.

وبدأت أقدم برامج إذاعية من خلال قراءاتي في تلك الموسوعة..

وعدت إلى دار الهلال مرة أخرى بعد محاولات من جانب إميل زيدان الذي أعده صحفيا لا مثيل له وأنا مدينة له بالكثير ..

بدأت الكتاب قبل عام ١٩٣٥ وكنت طالبة بالجامعة، كنت أكتب بإمضاء مختلف (مصرية)، (مواطنة) وليس بإمضاء أمينة السعيد، حتى لا يقولوا إنني مازلت طالبة! وسافرت إلى الهند عام ١٩٤٦ وكانت الحرب الأهلية مشتعلة بين المسلمين والهندوس وأرسلتني السيدة هدى شعراوى للاشتراك في أحد المؤتمرات، كما اشتركت في مؤتمرات لم تكن هدى شعراوى تستطيع السفر إليها في بلاد بعيدة خاصة أنني أجيد اللغة الانجليزية .

التنس .. جريمة

أذكر أن مصطفى أمين له دين كبير في عنقي. فذات يوم وأنا طالبة. بكلية الآداب، كنت ألعب التنس في وقت الفراغ مع مدرب هذه اللعبة بملاعب الجامعة، وشاهدني أحد الرجعيين مثل هؤلاء الذين نشاهدهم اليوم، وعلى الفور ذهب إلى الجامعة وهو يصيح إلحقونا.. وا إسلاماه هناك بنت قد اعتدت على الإسلام، فجاءت مجموعة من الطلاب تهرول بمن فيهم مصطفى أمين، ليروا هذا الاعتداء فوجدوني أقف لابسة ثيابا محترمة بأكمام طويلة، والمدرب يقوم بتدريبي على لعبة التنس.

بعد اكتشافهم هذا الكذب المزعوم، حاول البعض منهم الحضور لمشاهدة هذه التدريبات، فكنت أغضب، وحينما حاولت طردهم غضبوا مني واعتبروا ذلك إهانة، وقاطعوني فى الجامعة ، فلا أحد يكلمنى أو يجلس بجانبى، بل إمعانا فى غضبهم كانوا يتركوننى أجلس فى الصف الأول ويجلسون بعدى بثلاثة أو أربعة صفوف، يعنى (شغل عيال) واستماتة فى مضايقتى ومقاطعتى.

ولكننى استمررت فى سياستى، وكانت النتيجة أنهم تغيروا، وعادوا إلى طبيعتهم الأولى فى علاقات جامعية جيدة، وعادت المودة والصداقة بيننا من جديد وقتها أحس مصطفى أمين أن لدى قسطا كبيرا من الشجاعة فأخذنى إلى الأستاذ محمد التابعى وقدمنى إليه، وكان رئيساً لتحرير آخر ساعة، وقمت بعمل عدة موضوعات، ولكنها تسببت فى مشاكل كثيرة واجهتنى فى بداية عشقى وحبى للعمل الصحفى.

من بين هذه الموضوعات أنهم طلبوا منى الذهاب إلى الإسكندرية وأحاول أن أدخل حماما مغلقا للسيدات فى سان ستيفانو لأستمع إلى ما تقوله زوجات الوزراء عن أزواجهن..

كنت وقتها قليلة الحيلة، وليس لدى تجربة، فذهبت بالفعل إلى هذا الحمام، وظللت أستمع إلى هؤلاء السيدات، وكتبت مقالا بدون إمضاء وفور نشره حدث نفور كبير من جانب هؤلاء الوزراء وزوجاتهن، وصممت

الحكومة على غلق «آخر ساعة» وطلبوا أن يعرفوا هذا «المجرم» الذى كتب هذا الكلام الخطير كنت. عقب نشر المقال في حالة سيئة يملؤنى الخوف والفزع، وقال البعض إن كاتب هذه الصفحة هو أمينة السعيد، وكان على علوبة باشا صديقا حميما لوالدى.. جاء ليسألنى، هل صحيح كتبت هذا الكلام؟، ومن شدة الخوف كذبت عليه وقلت له : لا ..

قال لى . أنا أصدقك، فلا أتصور أن تكتب أمينة السعيد مثل هذا الكلام !

وجعلتنى هذه التجربة أفكر وأوقن بأن من يكتب أسرار الناس، يعد في نظرى سارقا لأخبارهم، ويعد إنسانا غير سوى واحتقرت نفسى بشدة على هذا العمل ، ولم أكرر هذه التجربة على مدى خمسين عاما من العمل فى الصحافة.. لم آخذ أبدا حديثا استمعت إليه فى السر، ولم أمنع إمضائى عن أى موضوع قمت فعلا بكتابته .

فى هذه الفترة قرأت لعظماء الأدباء والكتاب من الغرب وكانت النتيجة أن تفتح ذهني بشكل كبير، وأخذت كثيرا من روح هذا الأدب، ولذلك فكل مكتبتي تقريبا لهؤلاء الكتاب الكبار.

بعد تجربتى مع «آخر ساعة» أقنعني الأستاذ إبراهيم عبده بالعمل في مجلة «كوكب الشرق» فذهبت معه لمقابلة أحمد باشا ماهر وكان رئيسا لتحرير المجلة، والذى رحب بى ترحيبا شديدا وأعطانى صفحة

أسبوعية نسائية بذلت جهدا كبيرا في تحريرها، وكانوا قد وعدوني بمنحي راتبا، ولكن في نهاية الشهر لم تكن لديهم أموال وبعد عدة أشهر اضطررت لتركهم .

وتلقفني بعد ذلك الأستاذ فكري أباظة وكان صديقا حميما لوالدي، وكان تلميذه في ثورة ١٩١٩ وكنا وقتها بمدينة أسيوط التقيت به بعد وفاة والدي ..

أخذني إلى إميل زيدان والذي حدد راتبا شهريا قدره ثلاثة جنيهات ، وكنت وقتها اكتب كلاما (هلس) حيث لم تكن لدي الخبرة الصحفية والتي تجعل مني قيمة لدى الآخرين ، واضطر إميل زيدان أن يرسل لي خطابا يذوب رقة وأدبا ورفتني ، وتضمن خطابه. إن مرتبك الكبير وقدره ثلاثة جنيهات لا يتناسب مع إنتاجك الضئيل، وحزنت جدا وبكيت لدى تسلمي هذا الخطاب، وأحسست بأن الدنيا قد اسودت في عيني.

الموسوعة .. هدية .

في هذه الأثناء كنت مخطوبة للدكتور عبدالله، وحينما قصصت عليه ما حدث لي في دار الهلال قال لي إنك مخطئة، فالصحافة مثل التجارة والصناعة، ولابد من إنجاز العمل الصحفي بفن وعناية شديدين، حتى تجني من وراء ذلك الشيء الكثير فلو كنت مثقفة ثقافة عالية ، لأعطيت

المجلة الجهد الذى تستفيد منه، لكن بسبب ضعفك الثقافى، جاء عملك ضعيفا ولا يتناسب مع احتياجاتهم فى هذا العمل المهم.

أسفت جداً على هذا القول وقلت للدكتور عبدالله كيف تقول لى ذلك وأنا طالبة بقسم اللغة الانجليزية ويدرس لى أساتذة عظماء وأكدت على «أننى مثقفة» .

قال لى : إن الثقافة ليست هى الجامعة أو الشهادة الجامعية، والجامعة لا تثقف، ولكن دورها أن تعلم الإنسان كيف يثقف نفسه إذا أراد أن يتثقف، الجامعة تضىء لك طريق الثقافة وربما تضعك على أول الطريق، لكى تواصلى مسيرة الحياة . استفدت كثيرا من هذه النصيحة الغالية، خاصة أنه قدم لى على الفور هدية قيمة هى الموسوعة الانجليزية والمكونة من ٣٠ جزءا ، وتضم آداب العالم منذ العهود المتقدمة حتى وقتنا هذا ، وبدأت أقرؤها لمدة عامين متصلين وساعدتنى كثيرا فى حياتى الصحفية.

وأذكر أن الإذاعى المعروف محمد فتحى رحمه الله - وكان زميلا لى بالجامعة - دعانى إلى تقديم بعض الأعمال التى أترجمها من هذه الموسوعة بالإذاعة، وكنت أقرؤها بصوت مميز ، وظللت أقدم هذا البرنامج بانتظام كل ثلاثة أسابيع ، وبدأ اسمى يلمع، وبدأ الناس يتتبعون كل ما أقدمه .

ومرة أخرى عاد فكرى أباظة ليخبرنى بأنهم يريدوننى أن أعمل بدار الهلال والتى طردت منها من قبل ! .

ورفضت هذا العرض على الفور قائلة لن أذهب إلى هؤلاء الناس الذين طردونى بشكل مزر لا أرضى عنه على الإطلاق فقال لى: تعالى معى، وقولى لهم هذا الكلام، وكان فكرى أباظة بالطبع يسر فى نفسه بأننى لن أستطيع أن أفعل ذلك .

ذهبت إلى دار الهلال وقال لى إميل زيدان نحن نريدك.

قلت له : وأنا لا أريد العمل لديكم.

قال لى . لماذا ؟

قلت له . لأنكم عاملتمونى فى المرة الأولى معاملة غير كريمة وأنا لا أود العمل لديكم .

قال لى إميل زيدان: لكنك لم تكونى بمثل هذا المستوى الثقافى والفكرى، فقد طورت نفسك فى السنتين الماضيتين، وأصبحت لك شخصية مميزة وثقافة جيدة.

لكننى رفضت برغم كلماته الرقيقة .

وعلى الفور حدد لى مرتبا قدره أربعون جنيها برغم أن راتبى السابق لم يتجاوز ثلاثة جنيهات ! .

ومع ذلك قلت له : أنا لا أتاجر! .. أنا لا أريد التعامل معكم !

وتصور الرجل أن المرتب ضئيل، فقال نزيده إلى ستين جنيها.

ورفضت أيضا.

قال مرة أخرى . ما الذى يرضيكى؟!

واتفقنا أخيرا على أن أكتب بالقطعة (أى بالموضوع) وكل ما أقدمه لدار الهلال إذا أعجبهم نشروه، وإذا لم يعجبهم فلا داعى لنشره، وكان ذلك فى عام ١٩٣٦ بعد تخرجي مباشرة فى كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية وبالفعل بدأت أنشر فى «الهلال» وفى مجلة «الأثنين»، ووجد إميل زيدان أننى أحصل على مبلغ كبير شهريا، فعاد يقول لى نود الاتفاق على مرتب شهرى، وكان أكبر مرتب ثابت حصلت عليه من دار الهلال ستين جنيها، وظل مرتبى يتزايد إلى أن أصبحت رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ولأحصل على أكبر مرتب فى الدولة.

تجربتى مع حواء

وفى حياتى تجربة مهمة ورائدة فى مجلة حواء ..

فحينما فكر إميل زيدان فى إصدار مجلة نسائية، رأيت بعينى مدى الاهتمام الذى كان يبديه مدير الإعلانات، ورأيت كيف رفض أكثر من فكرة بحجة أن هذا المشروع لا يحقق مزيدا من الإعلانات.. وطرح اسم درية شفيق لرئاسة تحرير حواء وكانت علاقتها بالأميرة شويكار سببا فى اعتذارها، وحسم إميل زيدان هذا الأمر بقوله علينا أن نختار أمينة

السعيد ابنتنا وابنة دار الهلال، وفرحت جدا بهذا الاختيار، وقد ساعدنى على المضى من نجاح إلى نجاح أن الإدارة تذلل كل المشكلات التى يمكن أن تواجهنا فى بداية الأمر، وكان ذلك فى عام ١٩٥٥.

ولم تكن الأمور تسير سهلة يسيرة، بل كان البعض ينتقدنى، والبعض الآخر يأتى إلى أمى فى منزلنا يحرضونها ضدى، ويقولون كيف تعمل ابنتك «جرنالجية»، وكانت تحزن لذلك كثيرا، وفى المقابل كنت أفتخر بكل قرش أكسبه من مهنة الصحافة.

ثقتى فى النجاح كانت بلا حدود، وتلك المشكلات والمصاعب لم تفت فى عضدى، ومع مرور الأيام ، بدأ عدد كبير من كبار رجال الدولة والمستشارين يتصلون بى، ويرجوننى فى تعيين بناتهم للعمل فى حواء، وأظن أن هذا العدد الكبير من اللائى تعلمن فى مدرسة حواء، يدل على صدق التجربة ونجاحها، ومن جانبى لم أكن أبخل عليهم بإعطاء الفرصة والانطلاق فى أول مجلة نسائية فى الوطن العربى، حملت الفكر المستنير، وخاطبت المرأة فى كل ميادين الحياة.

لكن النجاح لابد أن يعقبه نجاح، فقد بدأت فكرة باب «إسألونى» ويعود الفضل فيه إلى الصحفى لطفى رضوان..

كان من عادة إميل وشكرى زيدان أن يجريا تجديدا فى تحرير المجلات التى تصدر عن دار الهلال، فى أكتوبر من كل عام، وحينما حضرت اجتماعا للمصور اقترح لطفى رضوان أن ننشىء بابا عنوانه

«اسألينى» تنشر فيه بعض المشكلات النسائية، ويرد عليها بعض النساء أو الكاتبات المعروفات فى ذلك الوقت.

وبالفعل صدرت الأعداد الثلاثة الأولى، وكتبت المشكلة والرد، ولم تصل للمجلة خطابات من القارئات ! .

فعادوا مرة أخرى ليضفوا إلى أعبائى، مسئولية هذا الباب، وبدأت العمل فيه بشكل جاد جدا، وكنت أضع نفسى فى مكان صاحبة المشكلة، ووصلتنى ثلاث رسائل مرة واحدة، وكلها تطلب أن أرد على ما تتضمنها من مشكلات، وذهبت إلى إميل زيدان أعرض عليه الأمر، فقال ردى عليهم ..

واستمر هذا الباب يصدر، وبدأت تصلنى مشكلات من الرجال ووصلنى عتاب على اسم الباب، وأنه يتضمن تخصيصا للمرأة فقط، فضلا عن أنه من وجهة نظرهم يسخر من الرجال واقترحت أن يتحول اسم الباب إلى «إسألونى» حتى يضم الرجال والنساء سويا.

وقد عرضنى هذا الباب لمشكلات كثيرة من بينها أننى لم أكن اتفق مع صاحبة المشكلة أو صاحبها ، كما أننى كتبت عن التطرف ، وجاءتنى خطابات تهديد بالقتل ، لم أعبأ بها . ولم تفت فى عضدى لأننى دائما أومن بكل كلمة أكتبها، مهما كلفنى ذلك من متاعب ومشكلات ! .

كرمتنى ثورة يوليو

أحب أن أشير إلى نقطة مهمة، وهى أننى لم انضم منذ بداياتى فى العمل الصحفى إلى حزب من الأحزاب السياسية.

ومنذ بداية ثورة يوليو كنت حريصة على ألا أدخل فى صراعات سياسية، فقط كنت منصرفة إلى الاستغراق فى الصراعات الاجتماعية ومعالجتها وبالطبع كانت آرائى لا تعجب قلة من الناس، وكثيرا ما وصلتنى خطابات وعيد وتهديد ! .

وكان الرئيس جمال عبدالناصر معجبا جدا بحواء وبكتاباتى فيها، وقد قلدنى نيشان الاستحقاق من الدرجة الأولى فى عيد العلم وقد أعطى لأول مرة إلى سيدة بعد أم كلثوم .

وزادنى تكريما وأنا أستلم منه النيشان ليقول لى إننى أقرأ «حواء» من الغلاف إلى الغلاف، واعتبرت هذا تكريما آخر.

ونفس الشىء حدث فى عهد الرئيس السادات ، فقد نلت إعجابه وتقديره لى، فأهدانى نيشان الجمهورية من الطبقة الأولى، وفى عهد الرئيس حسنى مبارك أهدانى وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى.

وبذلك أكون السيدة الوحيدة التى حصلت على أعلى الأوسمة فى عهود ثورة يوليو الثلاثة.

أنا وهدى شعراوى

أعتبر نفسى بنتا لهدى شعراوى .. وهى بمثابة أمى الروحية وقصة تعرفى بها جاءت نتيجة كبرها فى السن، واحتياجها إلى من يساعدها

فى إلقاء خطبها، ومساعدتها فى العمل الاجتماعى من خلال جمعيتها الشهيرة .

عرفتنى بها السيدة إنصاف زوجة منصور باشا فهمى ، وكانت مديرة المدرسة الثانوية التى تعلمت بها ..

فى بداية اللقاء كانت معى زميلة لى اسمها سعاد بنت شقيقة الزعيم مصطفى كامل، ألقيت أمامها الشعر وبعض الخطب، وفعلت ذلك زميلتى سعاد، واختارتنا نحن الاثنتين، وبدأنا نقرأ خطبها فى الحفلات الخيرية التى كانت تقيمها.

وبعد وفاة سعاد، تمسكت بى أكثر من ذى قبل، واعتبرتنى بذرة طيبة من الممكن أن تصبح قيادة جيدة، والتقيت بشريفة محرز وليلى دوس، وكل هؤلاء اعتبرتهن أخواتى فى الاتحاد النسائى الذى كونته هدى شعراوى، وظللنا نعمل معها بكل الإخلاص والتفانى حتى آخر يوم فى حياتها ..

ولفرط ثقتها بى أرسلتنى فى عدة مؤتمرات بالخارج فى الهند وفى باكستان نيابة عنها.

لم يحدث بينها وبينى أى خلاف طوال فترة علاقتى بها، حتى فى الوقت الذى حاولت فيه الأميرة شويكار إغرائى بالانضمام إلى جمعيتها فقد تصورت هذه الأميرة التركية المتعجرفة أن سبب شهرة هدى

شعراوى بسببى، وأن الخطب الرائعة التى كنت ألقيها أنا التى أكتبها وأدبجها .

وفى ذات يوم انتظرت حتى سافرت هدى شعراوى إلى المنيا للإشراف على وقف لأسرتها هناك، ووصلتنى فى هذا اليوم دعوة رقيقة من الأميرة شويكار، فسألت اختى كريمة السعيد، هل أذهب أم أعتذر عن الدعوة، وشجعتنى على الذهاب، وذهبنا سويا لنعرف السر وراء هذه الدعوة المفاجئة ! .

وحينما دخلت إلى الباب ، إذا بواحدة من توابعها تضع شارة جمعية شويكار على صدرى، وكان مندوب الأهرام يقف متحفزا، وعلي الفور التقط صورة، نشرها مع خبر انضمامى إلى جمعية الأميرة شويكار.

قرأت هدى شعراوى الخبر لدى عودتها من المنيا، وكما علمت تألمت بشدة، وتصورت أننى خنتها وذهبت إلى غريمتها الأميرة شويكار والتى كانت تقوم بأفعال غير لائقة لم نكن نرضى عنها، وكانت هدى شعراوى تهاجمها بعنف على ذلك ! .

أسرعت بالذهاب إلى هدى شعراوى، وذكرت لها كل ما حدث، ولكنها فاجأتنى بقولها، إذ كنت فى حقيقة الأمر لا تودين الانضمام إلى جمعيتها فاجلسى الآن، واكتبى لها استقالة، وأنك لن تذهبى إليها ،

وأملتنى هدى شعراوى بنفسها الكلمات التى تضمنت الاستقالة ، وبالطبع لم أسلم من التهديدات لى ولأسرتى من هذه الأميرة التركية ! .

وعادت العلاقة، وظللت ربيبة وحبيبة لهدى شعراوى، تلك السيدة العظيمة التى درست الحركة النسائية على يديها، ورأيت كفاحها ونضالها، وشاهدت كيف تساعد خريجات الجامعة وتشد من أزرهن، وتعلى من شأنهن لدى المجتمع.

ورحلتى مليئة بالعمل والإنتاج فلدى ١٧ كتابا، تضم القصة والرواية وأدب الرحلات ومن بينها «مشاهداتى فى الهند» «آخر الطريق»، «الثائرة».

ونشرت فى الهلال موضوعات كثيرة، ونقلت بعض هذه الموضوعات إلى كتب المطالعة ويدرسها الطلاب والطالبات بسوريا..

ويحضرنى الاحتفال بمرور مائة عام على هذه المجلة العريقة، ذات التاريخ العظيم والتى أتمنى أن يتم الاحتفال بالعام الألف على إنشائها، فهى تستحق كل هذا التكريم.

وأختم مشوارى بأننى عشت محبوبة فى دار الهلال منذ بداية عملى - إلى أن وصلت إلى منصب رئيس مجلس إدارة وفى تلك الأثناء أحبنى واحترمنى كل العاملين بهذه المؤسسة العريقة، وكانت العلاقة طيبة بينى وبين الجميع.. كنت صارمة وحازمة، ومع ذلك مازلت أشعر بالسعادة والبعض يقول «ولا يوم من أيام أمينة السعيد» ..

حافظ محمود

هاجمني أستاذى فأصبحت صحفيا !

التكوين الثقافي لي لم يجيء وليد الصدفة ، لكن الحياة التى عشناها سهلت لنا كثيرا أن ننهل من المعرفة والأدب سواء في المدرسة أو بين جدران الجامعة ..

على أننى وأنا أمارس أنشطتى الثقافية عشقت الصحافة ، ودخلتها من أوسع أبوابها وكنت أصغر رئيس تحرير يعين فى مجلة أسبوعية وجريدة يومية بعد ذلك .

وأنا لست صاحب فضل فى تكوينى الثقافى فى الصغر، ولكن هذا يعود للنظام الفكرى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت حيث كانت توجد الجمعيات والنوادى الثقافية ، وكان من أشهرها الموسم الثقافى الذى تنظمه جامعة القاهرة ، وكان اسمها فى ذلك الوقت جامعة فؤاد .. وكان

هذا الموسم الثقافى يقام بالجمعية الجغرافية وأمامها مباشرة قاعة «إيوارت» التى تنافسها فيما تقدمه من ندوات ومحاضرات ..

كانت مى زيادة تحاضر فى هذه القاعة عن الموسيقى والفن والأدب وبهدف اجتذاب الشباب ، ولكى تتغلب الجامعة على ذلك كانت تستقدم العلماء والمفكرين من الخارج فى إطار هذه المنافسة ، ومن بين من شاهدناهم الشاعر الهندى العظيم طاغور الذى قام وقتها بإثبات أن النبات يتأثر بالموسيقى .

ولنا أن نتصور أن أديبا مثل الدكتور طه حسين جاء ليفتتح الموسم الثقافى - فى الثلاثينات - وكان وقتها عميدا لكلية الآداب . وأذكر أن زوجته حضرت قبله بقليل فاستقبلها جميع الوزراء الذين جاءوا لحضور هذا الافتتاح وصافحوها وأفردوا لها مكانا فى الصف الأول ، لفرط ذكائها وحينما لمحت زوجها يدخل القاعة وقفت وصفقت له ، فقام الوزراء وأكثر من ألف شخص كانوا فى القاعة ، وبدأ التصفيق، حتى صعد طه حسين إلى المنصة وألقى محاضرة الافتتاح .

وهذا يوضح لنا كيف كان الاهتمام بالثقافة .. لم يتوقف اهتمامى عند هذا الجانب ، فقد كان لنا بيت وقف فى حى السيدة زينب وكنت طالبا بالثانوى، فاستأذنت أبى فى أن أخذ غرفة لكى تصبح جمعية أدبية أجتمع فيها مع زملائى من محبى الأدب.وافق الرجل على الفور محدثا

نفسه بأن ذلك أجدى وأنفع من اللعب فى الحارة ، واشترى لنا بعض الكراسي فتحولت الغرفة إلى قاعة للمحاضرات وكنا مازلنا فى أوائل المرحلة الثانوية عام ١٩٢٩ .

كان الجو العام فى مدارسنا يوحى بالثقافة ، حيث كان هناك العديد من الجمعيات : جمعية للشعر وأخرى للأدب وثالثة للتمثيل وللموسيقى وللصحافة .. ولم نكن نلاحق هذا الجو المفعم بالثقافة والفكر أذكر أننا أنا ومجموعة من زملاء الدراسة كنا ذات يوم نمثل إحدى الروايات فى شارعنا وكان معي المرحومان أحمد حسين وفتحي رضوان ، وفى تلك الاثناء مر نبيل الكرداني ناظر مدرسة الخديوية الثانوية وكان أول ناظر مصرى بعد النظار الانجليز يتسلم عمله بتلك المدرسة واختبأنا ، ولكنه طلب منا أن نستكمل عرضنا المسرحى، وفى اليوم التالى أمر بإنشاء فرقة مسرحية بالمدرسة فى عام ١٩٢٩ . وعظمة الجانب التربوى لدى هذا الرجل انه لم يطلب من وزير التربية أن يفتتح أولى حفلات المدرسة المسرحية ، بل جعل تلميذا من المدرسة اسمه حافظ محمود يفتتح الحفل، بدلا من الوزير ! وكتبت الصحف عن ذلك الموقف الشجاع لناظر المدرسة .

كانت الروح الأدبية منتشرة فى ذلك الوقت. وكانت الصحف تشجع هذه الحركات الأدبية ، لذلك شجعتنا الصحف ، حيث كانت تنشر

الأخبار التى كنا نبعث بها عن نشاطنا المتنوع .وأما هوايتى وحبى للصحافة فقد جاء نتيجة قراءتى لجريدة السياسة الأسبوعية والتى ظهرت فى مارس ١٩٢٦ ، وكانت توزع وقتها ثلاثة أضعاف الأهرام ، وبالرغم من فضل «السياسة» فإننى أعجب لماذا لا يذكرونها الآن، فقد كانت أول جريدة أسبوعية لها مكاتب فى دمشق وبيروت والخرطوم وبغداد ، وكان المشرفون على هذه المكاتب كبار الأدباء والمثقفين ، وكان التوزيع فى الخارج لجريدة السياسة أعلى منه داخل البلاد ..

لقد تتلمذت على هذه الصحيفة ، وتعلمت الصحافة منها . وهناك حادث مهم فى أول عشقى وحبى للصحافة ، ربما كان وراء نجاحى فى الصحافة ، فقد طلب منى الدكتور أحمد ضيف رحمه الله عمل بحث ، وعلق عليه ، وأعطانى أقصى الدرجات فى النجاح ، بعدها قال لى لقد تحدثنا فى العلم ، ولكننى أود الحديث معك فى شىء آخر .. فأسلوبك لايصلح لكى تكون كاتبا أو صحفيا ولا حتى أديبا .. أسلوبك علمى زيادة عن اللزوم ! هذه الكلمات آلمتنى وجعلتنى أتعلق بالصحافة وأعشقها .بعد أن أصبحت صحفيا زارنى الدكتور أحمد ضيف وهو يعتذر عما بدر منه فقلت له · على العكس مما تقول ، فأنت صاحب الفضل ، ولولا كلامك لى لما أصبحت صحفيا ولا كاتبا .

بدأت أتجه إلى الصحافة وأنا صغير السن نحيل الجسم، حينما

كنت أذهب إلى أى صحيفة لمقابلة مسئول فيها كان يقول لى : يابنى اذهب وذاكر دروسك بلا لعب عيال ! .

وصممت من باب العناد على أن أنشر فى أكبر جريدة فى ذلك الوقت هى السياسة الأسبوعية ، كان مقرها بجوار مبنى دار الهلال ومازال مبناها موجودا حتى الآن ، وللأسف فإنه يستخدم كمخزن ! ..

كان يوضع بجوار باب الجريدة صندوق لتلقى المقالات ، وكنت أذهب لكى أضع مقالتى فى هذا الصندوق وأنصرف، بالفعل نشرت لى مقالة على أثرها هاجموا الدكتور محمد حسين هيكل ، وقالوا كيف ينشر مقالا لولد صغير ، وأساتذته لم يحصلوا على نفس الفرصة وبحث عنى د. هيكل ولما ذهبت إليه ضحك حينما رآنى وقال «والله لهم حق أنت طلعت أقل مما يجب» .. صغير جسما وسنا .

قلت له : يابك أنا آسف !

قال لى : آسف إزاى !

قلت: لأنك تدافع عنى

قال : أنت لم تر الهجوم الذى حدث لى بسببك .

قلت : وماذا أفعل ؟

قال : تكتب مقالا أفضل من مقالك السابق وأنشره حتى يعلموا أننى لا أنشر كلاما فارغا ! .

وبدأت الصلة بيننا إلى أن كتبت سلسلة مقالات بعنوان «إلى خطيبتي في الخيال» .. وجاءت ردود واستدعاني الدكتور هيكل ليقول لى . «هو الجرنال ده مكتب غرام لحضرتك» .

قلت : لماذا ؟!

قال : اتفضل لتشاهد بنفسك خطابات ملونة ومعطرة، وكانت الرومانسية في ذلك الوقت هي السائدة في حياتنا .

قلت : أعتذر لك بشدة لأننى أسبب لك المتاعب . وحاولت الانصراف فقال : تعال هنا .. أين أنت ذاهب .. خذ هذه الخطابات وإذا استطعت أن تخرج منها تحقيقا صحفيا ، فسوف أعينك في الجريدة وإذا لم تستطع فدعنى لا أرى وجهك مطلقا .

لم أنم طوال الليل وقمت بعمل التحقيق وفي الصباح قرأه الدكتور هيكل وأعجب به ، وعلى الفور نادى محمد زكى عبدالقادر وكان سكرتير التحرير قال له خذ هذا «الوليد» واعتبره ابننا وضمه للأسرة كمتمرن ..

كل ذلك حدث وأنا مازلت طالبا بكلية الآداب قسم الفلسفة ، وظللت أعمل بهذه الجريدة متمرنا .وحينما تخرجت كانت «السياسة» قد أغلقت ثم أعاد الدكتور هيكل إصدارها من جديد ، وبحث عن كل من كان يعمل بها من قبل واستدعانى وقال لى سوف تعمل معى «واللى في الدست

تطلعه المغرفة» فأنا وأنت شركاء كان وقتها زعيما للمعارضة والظروف المالية الخاصة بالجريدة كانت محدودة للغاية، لهذا قرر أن نكون شركاء وما تدره الجريدة نقتسمه سويا ، وبعد عام عين وزيرا فتفاءل بى ، وقال لى لا أعرف كيف أكافئك فأنا لا أملك شيئا ، ولكن الشىء الوحيد الذى أملكه ، هو أن أصدر لك قرارا بأن تصبح رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية ..

عينت رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية وعمرى ٢١ عاما ، كما عينت بعد ذلك رئيسا لتحرير السياسة اليومية وعمرى لما يتجاوز السابعة والعشرين، وكونى أخلف رئاسة التحرير بعد الدكتور هيكل، كان بالنسبة لى شرفا كبيرا، خاصة أنه كان مصرا على أن الصحافة للصحفيين ويرفض تماما تعيين حفنى محمود قائلا إنه تربيتى وسوف ترون مايمكن أن يحققه من نجاحات وبالفعل كنت عند حسن ظنه بى .

الطريف أن الصحف فى ذلك الوقت كانت كثيرة جدا وأى صحفى كان ينتقل بين الصحف لتحسين ظروفه المالية ـ مثلا ـ وقد يذهب إلى أكثر من صحيفة أو مجلة ، لكننى على مدار عملى فى الصحافة لم أعمل سوى فى السياسة الأسبوعية ثم اليومية ، وبعد عام ١٩٥٢ وبعد أن أغلقت مجلة «القاهرة» المسائية التى عملت رئيسا لتحريرها ، ثم رئيسا لمجلس إدارتها ، عملت فى الجمهورية حتى الآن ، وأذكر بعد أن أغلقت

القاهرة لظروف خاصة بعد موت صاحبها ، قال لى الدكتور عبدالقادر حاتم أن الرئيس جمال عبدالناصر طلب بأن أعمل فى الجمهورية ، ولم أنفذ هذا القرار إلا بعد أن عمل كل زملائى الذين وصل عددهم إلى ثلاثمائة ..

وأذكر تلك الحادثة بالضبط فحين طلب منى د. عبدالقادر حاتم هذا الطلب قلت له إذا كان عبدالناصر يعرف إسمى ، فكيف يذهب ٣٠٠ إنسان مسئولون عن أسرهم ، قلت لا أستطيع أن أنفذ هذا القرار وزملائى فى الشارع ..

قال : التعليمات الموجودة عندى خاصة بك فقط .

قلت · هذا شىء لا تحتمله عواطفى إطلاقا إن أناسا كنت أرعاهم ومسئولا عنهم ، ثم فجأة يجدون أننى اشتغلت وقبضت ، ومازالوا هم فى الشارع بلا عمل ، وظل هذا القرار معلقا لفترة سنة كاملة وكتبت وقتها فى الهلال كثيرا ، ولم يكن لى مورد سوى الهلال فى أوائل عام ١٩٦٠ التقيت بصلاح سالم ، وكان رئيسا لتحرير الجمهورية وهو فى نفس الوقت ابن حارتنا فى السيدة زينب ..

قال : نفسى قبل أن أموت أن تعمل معى فى الجمهورية ، وإزاى عبدالناصر كل يوم يسألنى حافظ جاء أو لم يجىء، وبالفعل ذهبت للجمهورية بعد اطمئنانى على كل زملائى فى جريدة القاهرة المسائية وتعيينهم فى وظائف مناسبة .

قد يتساءل البعض عن أسلوبى فى حياتى الصحفية ..

وأقول : أنا الوحيد بين الصحفيين الذى لا يلتزم فى الكتابة بوقت معين ولا شكل معين ولا حتى مكتب معين .

قديما كنت حينما أبدأ فى الكتابة أطلب فنجان قهوة وأدخن سيجارة وحتى هذه العادة أقلعت عنها الآن ، وقبل أن أكتب هذا الكلام صباح اليوم وأنا أتناول إفطارى وأشرب الشاى جاء تنى فكرة مقال وعلى الفور تركت افطارى وبدأت كتابة المقال ، ومعنى هذا أننى لا ألتزم بوقت محدد فى الكتابة ليلا أو نهارا كما أننى أكتب مرة واحدة وهذه تسبب لى مشكلة ورداءة الخط ، فضلا عن ضعف البصر فى هذه السن المتقدمة ..

وأذكر أن خطى كان جيدا أثناء الدراسة ، ولكن مع ممارسة العمل الصحفى والسرعة فى الكتابة ، وصل إلى ما وصل إليه الآن .

أنا والهلال

أذكر حينما تعلقت بالصحافة فى بداياتى الأولى بعثت مقالا لمجلة الهلال وفوجئت بشىء ياليت كل الصحف تفعله الآن ..

وصلتنى بروفة للمقال مرفق بها ورقة مكتوب بها .. رجاء مراجعة هذه التجربة والإمضاء عليها ، معها شيك بعشرة جنيهات ، وكان ذلك فى الثلاثينات .

هذه الجنيهات العشرة كان يحصل عليها طه حسين وهيكل باشا وعباس العقاد ، وكان أقصى أجر .. ذهلت حينما رأيت المبلغ الكبير ، فقد ظنوا أننى كبير فى السن وفى العلم ! ولكن وراء ذلك قصة .. فالبحث الذى تقدمت به للدكتور أحمد ضيف وقال لى إن أسلوبه علمى بحت . كان عن ألف ليلة وليلة، وهذا البحث نشرته مجلة الجامعة، التى كانت تختار البحوث الجادة، بما فى ذلك محاضرات الأساتذة، الأديب محمود تيمور حين قرأه ظن أنه لأستاذ جامعى ونشر البحث وعلق عليه ضمن مقدمة طويلة أن الدكتور حرص على نشر الأدب المحلى بشكل جيد ..

وبعثت خطابا للأديب الكبير قائلا .. أنا لست بأستاذ ولا بدكتور جامعى بل أنا طالب أحب الأدب وأهوى الصحافة .. وكانت تلك بداية صداقة بينى وبين هذا الرجل النبيل .

نشرت مقالات كثيرة فى الهلال .. لكننى لا أنسى لقاء بينى وبين إميل زيدان رحمه الله .. كنا قد كونا جمعية اسمها « المصرى للمصرى » لمقاومة البضائع الأجنبية ، انضم لهذه الجمعية طلاب وأساتذة من الجامعة وكان صاحب هذه الفكرة سلامة موسى ، وكان يعمل بدار الهلال .ثم اختلف معهم ، ولأنه وجد نفسه زعيما فى ذلك الوقت بدأ يهاجم دار الهلال، والتى أصدرت ضده عددا من مجلة «الدنيا المصورة» .. وزعته مجانا.. بعد هذا العدد أعدنا انتخاب مجلس إدارة الجمعية

واخترنا رئيسا آخر غير سلامة موسى وصاحب الفضل فى قيام الجمعية حيث لم نحتمل الهجوم الذى وجهته ضده دار الهلال . وعلى أثر ذلك التقيت بإميل زيدان والذى عرض علىّ أن أعمل بدار الهلال فقلت له «أنا أعمل سكرتير جمعية المصرى للمصرى، ولا ترضى لى أن أصبح موظفا عندك ، فالمعنى واضح أن البعض سوف يقول إنها رشوة» .

قال الرجل معك حق . ومادام هذا رأيك فأنا أحترمه .

إننى أقول فى مناسبة احتفالات الهلال بمرور ١٠٠ سنة على صدورها أن تلك وحدها شهادة ، شهادة كبيرة . وكتبت مقالات نشرتها فى الجمهورية حول هذا الحدث المهم فى حياتنا الثقافية والصحفية لم يعش فى مصر على مدى مائة عام سوى الهلال والأهرام والجازيت مع أن مصر شهدت مئات الصحف ، وزمان كانت تصدر صحف جديدة فى كل يوم ، لكنها لم تعش وكون مجلة تتماسك بانتظام إلى درجة الحياة لمدة ١٠٠سنة فهذه شهادة ودليل على عمق ماتقدمه من فكر وأصالة المنهج الذى تسير عليه على أننى هنا وأرجو أن يذكر شىء عن جرجى زيدان وآثاره العظيمة وروايات وتاريخ الإسلام .. فضلا عن أنه كان رجلا جادا فى عمله، واستطاع أن ينهض بالهلال ومن بعده أبناؤه .

فتحية للهلال ولمنشئه متمنيا أن يواصل مسيرته المهمة في حياتنا الثقافية والفكرية .

د . نعمات أحمد فؤاد

الدين .. النيل

محوران التقيا على تشكيل حياتي منذ نشأتي الأولى وطبعاها بطابعها .

كانا معا ، نهجا واضحا انتظمت عليه خطواتي، حرص أبى الذى لمس التقاط ذاكرتى ما أسمعه ، على تحفيظى القرآن الكريم فجاء لى بمن يقوم بهذه الغاية ثم حرصت جدتى على تقديمى طفلة إلى شيخ مشيخة القراء ، وكان قريبها فسمعنى الرجل ورضى عن جهدى الباكر وعلمنى المد والغن وبصر وصحح.. وتوثقت صلتى بالله وكتابه فى فجر العمر.. وزادتها الأيام رسوخا ويقينا فاستضاءت حياتى بنور ليس كمثله شيء.

أما أثر النيل فله، بعد، مقام عريض وحديث مستقل طويل .

نقطة تحول :

أتممت دراستى الابتدائية فى بلدتنا مغاغة من أعماق المنيا

بالصعيد، وأتممت معها حفظ القرآن الكريم، ولما كانت بلدتنا ليس فيها مدرسة ثانوية للبنات في ذلك الوقت، فقد اتجه والدى الذى كان يتحمس لتعليم البنت وله فى هذا كلمة محفورة في ذاكرتي ، كان يقول (البنت المتعلمة تدل على الأسرة أكثر من الولد).. ومعه الحق، فإن الأسر المصرية جميعا تهتم بتعليم الصبيان من بنيها وهنا يكون تخير الأسرة التى تحتفل بتعليم بناتها. هنا موقف ودلالة تقول.

كنا نريد مدرسة ثانوية بها داخلية فاستشرفنا إلى مدرسة حلوان الثانوية للبنات. هذه المدرسة علامة ونقطة تحول فى حياتى عرفت فيها كيف تكون رسالة المدرسة، وعرفت فيها حلاوة التفوق، وعرفت فيها الأثر البعيد للرعاية والجزاء والتقدير، وعرفت فيها بحكم الداخلية، الخلوص للدراسة والتحصيل الذى طبقته بعد هذا فى حياتى فعرفت معنى الخلوص للعلم والعكوف عليه فامتلأت حياتي ، كبيرة بالقراءة والكتابة والرحلة والندوة والقيم الجادة بقدر ما أستطيع.

خطوط عريضة لها تفاصيل كثيرة أتذكرها وأذكرها كاملة كأنها وقعت اليوم لا أمس.. صورة عن عينى لا تغيب، ولكنى أريد هنا أن أتحدث عن حلوان نفسها ..

كان طريقى إليها قطار باب اللوق.. كنت أفرح بركوبه وأحفظ المحطات التى تتوالى بين الواحدة والأخرى دقائق معدودة.. حتى إذا

نزلت فى حلوان تمتعت عينى بضاحية هادئة تحيط بها الصحراء .. الشارع الرئيسى فيها هو الذى يصل بين المحطة ومدرسة حلوان الثانوية للبنات.. كان هذا الشارع يبدو فى عينى طويلا جدا هل السبب أنى كنت أقطعه سيرا على الأقدام أو أنى أتعجل الوصول إلى المدرسة فقد أحببتها منذ اليوم الأول وانتميت اليها عاطفيا.. مرة أخرى أقول بحكم الداخلية.. لقد كانت بيتى الثانى.. أنتزع نفسى مرة أخرى من الحديث عنها لأعود إلى وصف حلوان المدينة لا المدرسة . كان الشارع الرئيسى تكاد تعد المارة به.. ولاحظ والدى هذا فكان حريصا على اصطحابى إلى المدرسة فى أول العام الدراسى ثم اصطحابى أو من ينيب عنه من فرع الأسرة فى القاهرة عند الأعياد ومواسم الأجازات .

حلوان :

كانت حلوان واضحة المعالم يقصدها الناس للعين المعدنية ، والحديقة اليابانية، والجو الصحى للاستشفاء والشتاء.. كانت حلوان مشتى من مشاتى مصر كأسوان والأقصر. وبها مثلهما فنادق كبيرة جميلة أحدها خلف مدرستى. وكانت حلوان دارا للأسرة الكبيرة.

ويناديني الحنين اليها بعد أن بعد عهدى بها فأزورها ولكن ماذا أرى؟ صورة غير الصورة. ومدينة غير المدينة.. لا أصدق عينى أن

الجميلة الهادئة الناعمة تعج بكل هذا الخلق، وتضج بكل هذا الصخب.. لقد غدت معقلا من معاقل الصناعة.. لا بأس ولكن المصانع فى بلد كمصر تمثل الصحراء ٢٩/٣٠ منه يجب أن تقوم المصانع على أطراف المدن، وحيث الصحراء تتعطش الى التعمير والحياة ولكن هذا موضوع آخر .

كانت مدرستى حلوان الثانوية هى الفصل والحديقة والملعب والمطعم والسرير والنوم واليقظة والصديقة والرفيقة والزميلة والحدوته والحكاية والضحكة والحلم والأمل.. كانت الشوق إلى الأهل فى البعد والحديث عنهم فى القرب. كانت الخطاب يصلنى من أبى ويصلنى به.. كانت الانتظار واللهفة. كانت الامتحان والدرجة .. كانت الفرحة والبسمة .. كانت الحقل وعمرى به نبتة تترعرع وتورق وتزهر .. كانت الصبا بعد الطفولة. كانت التجربة الصغيرة ببراءتها وعفويتها وتلقائيتها وكل شىء فى هذا العمر، طفولى برىء التصرف والاحساس .

كانت زميلاتى من القاهرة وضواحيها الأخرى يصرح لهن أهلن بالخروج فى نهاية كل اسبوع وكن سعيدات بهذا أما أنا فكنت أخرج على مدار العام كله ثلاث مرات.. فى العيدين وفى نهاية العام الدراسى ..

كانت تنتابنى ظهر الخميس من كل أسبوع وحشة فقد كانت

الغائبات يتركن فراغا تسكن معه المدرسة فى الخميس والجمعة بعد حركة كخلية النحل.. وكنت أيضا أغبطهن للتغيير ورؤية الأهل على مسافات قصيرة ، ولكنى أعود سريعا إلى دنياى الخاصة فأتخذ من الخميس والجمعة فرصة لتنظيم خطوطى فأعيد تنسيق ملابسى ، وكانت الدراسة تتطلب من الأهل أن يزودوا البنت بست وحدات من كل نوع سواء من الملابس الداخلية أو الخارجية ..

مما كان يشكل فى عينى زحاما يحتاج إلى إعادة تنسيق أو تنسيق دورى.

الداخلية فى حلوان الثانوية :

كان الخميس والجمعة، مجالين لنوم أطول ولو أن كل شىء فى أى يوم محدد بجرس فى وقت لا يتقدم ولا يتأخر .. الطعام.. اللعب.. إطفاء النور ليلا.. الاستيقاظ من النوم صباحا.. الرجوع إلى الفصول بعد الظهر للاستذكار.. ولكن وجبة الافطار فى يوم الجمعة، كانت تحين بعد موعدها التقليدى بنصف ساعة .. لون من التغيير أو الترفيه على أى حال .

كان الخميس والجمعة مجالين للسماح بسماع الراديو . فأتمتع بصوت أم كلثوم وسرعان ما التقط الجميع شغفى بها وولوعى فكن فريقين فريقاً يسعدنى بالتنبيه إلى بدء غنائها ومواعيده بل مشاركتى

في الاستماع.. وفريقا يداعبنى بمحاولة النقد المفتعل فأنبرى للاشادة بها.. كل هذا وأنا داخلية وقادمة من الريف لم أرها ولم أقابلها.. كم هو حلم منعم الحب بلا مقابل.. الحب لذاته.. حب الجمال والفكرة والمعنى .

إن تذوق الجمال، نعيم احساس ونعمة من الله يرزقها السعيد. وكبرت وكبر معى هذا الاحساس حتى أنى كتبت مرة منذ شهور أن الناس يعدون الفنون بأنها فن الأدب، وفن الموسيقى ، وفن النحت وفن الرسم ، وفن التصوير، وفن التمثيل ينسون فنا مهما هو دعامتها جميعا ذلكم هو فن الرؤية .

هكذا تعيش فى داخلى .. فى أعماقى ، أيامى الباكرة.. أيامى الأولى.

دور الأب :

بدأ تعلقى بصوت أم كلثوم طفلة في بلدتنا.. حتى كنت أغلق على نفسى باب حجرتى لأخلو اليها.. وإذا كان الوقت ليلا أطفىء النور حتى لا يشغل حواسى شيء عنها. كنت أستعذب الصوت والنطق واللفظ.. لعل سر هذا هو السر الحقيقى أنى حفظت القرآن طفلة فعرفت وأحسست مافى نطقها من صقل وحلاوة أداء. وكان الفضل في هذا لأبى الذى حرص على تنشئتى نشأة إسلامية وأدبية.. فقد علمنى

القراءة.. بل علمني «الاختيار» فقد كان يقرأ ويسجل في كراسة ما يستوقفه من معان وأساليب ثم يعطيني الكتاب أو المجلة لأقرأ وحدي وبعد هذا يسألني سؤال السمير الصديق ثم يطلعني على رأيه الذي سبق له تدوينه .

هذا الاهتمام أزكى حواسي وأشعل حماسي ، وأيقظ طموحي. عرف أبي وهو من رجال الأعمال لا التعليم كيف يشعل، في الطفلة ، الشرارة المقدسة .

حلوان الثانوية تمثل ست سنوات من عمري فلا تلوموني أن وقفت عندها في هذه الصفحات طويلا.. إنها كما يقول رامي قصة حبي وقصة عقلي بل قصة قلمي أيضا .

في مدرسة حلوان الثانوية ومنذ البداية أي في سنة أولى كتبت موضوع الانشاء فإذا بمدرس فصلي يطلع عليه المدرس الأول للغة العربية.. وبعد هذا وسرعان ما ذاع لي صيت في المدرسة .

مسابقة في اللغة العربية :

أراد المدرس الأول للغة العربية أن يرسي معنى معينا هو أن الفنون ومنها فن الأدب، مواهب تأتي الدراسة فتصقلها وتثريها فأعلن في المدرسة عن مسابقة في اللغة العربية عبارة عن موضوع واحد تكتب فيه جميع الفصول من السنة الأولى الى السنة السادسة ، ويشمل هذا

بالطبع فصل التوجيهية التى أطلق عليه فيما بعد الثانوية العامة. وقبل أن تعلن المسابقة وجدت المدرسة كلها طالبات وأساتذة ، الكل يجمعون أن موضوعى فقط ليس الأول فحسب ولكنه خارج المباراة ولكم يا أعزائى القراء أن تتصوروا السعادة التى يمكن أن تغمر ناشئة فى بداية تعليمها.. بل بلغ الأمر أن طالبات الفصول الكبيرة كن يأتين إلىَّ مع أن سنة أولى كانت تتهيب الحديث مع الفصول الكبيرة خاصة سنة رابعة وخامسة وسادسة.. ولكن هؤلاء جميعا كن يأتين الىّ تطلب إحداهن أن أفتح لها الموضوع على حد تعبيرها والأخرى أن أختم لها الموضوع بعبارة قوية وثالثة أن أكتب سطرين والمعنى مفهوم ، لقد كتبت فى يوم من أيام تلك المسابقة ثلاثة وثلاثين موضوعا وبالطبع كان كل موضوع يختلف عن الآخر تحقيقا لرجاء صاحبته وتفاديا للحرج .

وأعلنت المسابقة ومنحنى الأستاذ الدرجة النهائية وهذا لا يحدث فى مادة الانشاء العربى ثم كتب لى عبارة منقوشة فى عقلى ووجدانى لا أنسى منها حرفا بعد السنين العديدة التى مرت عليها .

سحر التقدير :

كتب أستاذى بالمدرسة لى من الثناء ما لا أستطيع وصف نفسى به ولكنى أذكره هنا من باب القصة . وأهم من هذا من باب تزكية المدرس وتأكيد دوره فى حياة الطلاب ومن باب الاعتراف بفضل الذين علمونى.. رحم الله شاعرنا شوقى فقد أصاب وأثاب يوم قال :

أعلمت أشرف أو أجل من الذى

يبنى وينشــأ أنفســا وعقــولا

كتب أستاذى فى كراستى :

(سـتكونين زهرة فى روض الأدباء، ومـاسـة فى جـبـين العلمـاء، وينبوعا عذبا من ينابيع البيان، فسيرى قدما إلى الأمام) .

ودوت فى المدرسة هذه العبارة التى خرجت على كليشيه (أحسنت) و (أجدت) .

كان لهذه العبارة دوى امتد أسابيع ، وتوالت بعدها عبارات هذا الاستاذ الذى أدين له حتى كانت الفصول تسعى الى قراءة ما كتب فى الموضع الجديد .

وأصبح «تقليدا» .

انتقلت إلى السنة الثانية فكان أستاذى الجديد كمن يستــلم الشعلة، يكتب لى أيضا عبارات رنانة بعد كل موضوع .

من أساتذتى من كتب لى عقب موضوع فى وصف السوق الخيرى الذى افتتحته الملكة: (أقمت من كلامك سوقا للخير) .

وكتب آخر فى موضوع شبيه (عاطفة فياضة بالخير فى أسلوب أشهى إلى نفسى من تغريد الطير) لولا الحياء من الاسترسال فى كتابات الذين باركونى ورشوا على طريقى النور، كلمات مضيئة وضيئة ، لملأت صفحات وصفحات .

ماذا صنعت بى حلوان الثانوية :

لقد خلقتنى هذه العبارات خلقا . كانت كل عبارة تبنينى التزمت أى ألزمت نفسى بالإجادة - لأحتفظ بمستوى يتوج بهذه العبارات وألزمت نفسى بالقراءة والتعمق رغبة فى التجويد والتجديد ، وألزمت نفسى حتى بقواعد الخط العربى لأوفر لموضوع الشكل بعد المعنى ، وألزمت نفسى بمربع من سطرين قبل الموضوع وعنوان أدبى خاص بى ثم عرفت فيما بعد أن هذا كان طابع أدباء الرومانسية فى القرن التاسع عشر ولكنى فعلت هذا بتلقائية ووحى الفطرة .

وألزمت نفسى بتكثيف الجهد فى المواد الدراسية الأخرى حتى لا يخدش أى نقص الهالة التى أحاطنى بها مدرسو اللغة العربية فضلا عن أنى ذقت حلاوة التفوق والنجاح .

ومن هنا قلت إن عبارات التشجيع خلقتنى خلقا جديدا.. إن التقدير غذاء لروح الإنسان. إن قيمة الجواهر تعزى إلى عين مكتشفها .

مرة أعاد أستاذ لى ورق الامتحان وكانت الدرجة النهائية خمسين . ولكن قال لقد جمعت درجات الأسئلة فحصلت نعمات على ٤٨ ولكنى خجلت من نفسى ألا أضع لها خمسين ، وهنا اقتضتنى الأمانة أن أضيف إلى كل ورقة فى الفصل درجتين . كم أسرتنى وطوقتنى هذه العبارة .. لقد بكيت من فرط التأثر.. لقد كنت اعتدت على الدرجات

النهائية حتى غدوت أتوقعها ولكن هذه القصة لم أتوقعها .. والتفت حولى بعض الزميلات يردن معرفة مكان الخطأ وإذا بواحدة منهن تجمع الدرجات فتجدها خمسين وهرعت إلى الاستاذ الذى أعاد الجمع واكتشف أنه التبس عليه الجمع وأنى أستحق الخمسين بدون إضافة ولكن هذا لم يقلل شيئا عندى من جميله .. من لفتته ذات الدلالة الكبيرة .

وتمر الأيام وينقضى عام دراسى ويهل عام وكل منها يحمل لى وأحمل له هناءات جديدة من هذا اللون أى خيوط ملونة فى نسيج القصة قصتى مع حلوان الثانوية .

وقد توجت هذه القصة بمسابقة الأدب العربى التى كانت تعقد للمتفوقين فى اللغة العربية من طلبة التوجيهية التى سميت بعد هذا الثانوية العامة وذلك على مستوى مصر كلها .

لم تعلن ناظرة المدرسة عن هذه المسابقة لسببين فى رأيها :

الأول : أن هذه المسابقة كل عام لم تنجح فيها بنت واحدة .

الثانى : وهو مرتبط بالأول هو صيانة الوقت والكرامة حتى تتفرغ الطالبات لامتحان آخر العام : التوجيهية .

وطلبت إلى مدرسى اللغة العربية التكتم على موعد المسابقة.. ولكن أحدهم كان يكتم ضيقه بصعوبة شديدة ظننتها ، فى أول الأمر ، لشىء

يتعلق به فلما كان اليوم الأخير لانقضاء موعد التقدم لهذه المسابقة ثار وأعلن أنه ضامن، إذا دخلت المسابقة أو دخلت المدرسة بى المسابقة ، النجاح بل الأسبقية بين الناجحين .

وعلمت المخبوء واكتشفت أو تكشف لى المضمر فبكيت بكاء شديدا بل انتحبت . وهنا انضم إلى المدرس الانسان زملاؤه وأساتذتى مدرسو اللغة العربية بالمدرسة.. وضغطوا على الناظرة ضغطا شديدا لم تملك معه إلا أن طلبت إلىَّ أن أملأ الاستمارة الخاصة وذهبت بنفسها وقدمتها بعد انتهاء مدة التقدم موضحة ما حدث فقبل المسئولون فى الوزارة الاستمارة .

وجاء موعد الامتحان التحريرى ثم الشفوى وبالطبع كان أعلى مستوى .. أعلى كثيرا من منهج الثانوية العامة .. وظهرت النتيجة فإذا بالوزارة تهنىء الناظرة والمدرسة لقد كنت الأولى على البنين والبنات لأول مرة فى تاريخ هذه المسابقة وبكت الناظرة هذه المرة واختلط ثناؤها باعتذارها عما حدث والذى دفعها اليه خوفها على نتيجة شهادة اتمام الدراسة الثانوية .

كان يوما مشهودا لم ينقصه إلا غياب أبى الذى كان ينتظر هذا اليوم منذ وضعت قدمى على عتبة المدرسة الثانوية .

كان حلمه الكبير أن يكون لى قلم . ليته رأى كتابى التاسع والثلاثين بعد أن خرج من المطبعة ..

كان وزير المعارف في ذلك الوقت الدكتور محمد حسين هيكل صاحب (في منزل الوحى) ، و (حياة محمد) ، ودعا الناجحين ليوزع عليهم الجوائز بالاضافة الى إعلان حقهم فِي مجانية الجامعة واختيار أى كلية يشاء ون .

وكنت أول من تقدم إلى المنصة وأول من سلم عليه وأهدى الىَّ مجموعة كتب أدبية لكبار أدباء العصر وظرفا به «عشرون جنيها»، وكان هذا المبلغ يمثل شيئا فى الخمسينات أو بالنسبة لمن هن فى مثل سنى فى ذلك الوقت .

ومنذ ذلك الحين اتصلت حياتى بل التحمت بالأدب قراءة وكتابة واستشفافا وتنوقا .

تخرجت في الجامعة .. جامعة القاهرة الأم بعد أن درست اللغة العربية أدبا وتاريخا وفقه اللغة ودرست التاريخ المصرى والاسلامى ودرست من اللغات الشرقية : الفارسية والتركية ودرست من اللغات الغربية الانجليزية والفرنسية بل اللاتينية باعتبارها الجذور فى عين الغرب .

أقول هذا من باب المفارقات فقد كانت أمنية جدتى أن أفك الخط فلما كتبت أو شخبط أ- ب تمنت أن اكتب الجواب لتعرف أحوال وقف أبيها فى القاهرة وعندما حققت لها حلمها بعد سنوات، بلت الشربات .

وغاب والدى قبل الأربعين من عمره وكانت صدمة حفرت أثرها فى أعماقى.

وهنا أعاننى الإيمان على الوقوف على قدمى من جديد .. بدأت أتلمس الطريق وأتحسب الخطى.. عرفت الخوف والرهبة عرفت الحيرة وسيالا من الدموع .

ثم آضت نفسى إلى السكينة من قرار عميق أحسست أن الله معى وكفى .

سرت وسارت الأيام عشت فى القاهرة مع جدتى لأبى الذى كانت تؤثرنى وتبالغ فى اعزازى وتؤمن بنجاحى بل تؤمن بكل كلمة أقولها أو أكتبها وهى لا تقرأ ولا تكتب ولكنه الحب وذكاء الفطرة معا.. ولها فى هذا الباب نوادر وحكايات لا تسعها هذه العجالة ..

وفى القاهرة عرفت المجامع الأدبية.. وفى القاهرة ارتدت المعارض الفنية.. وتزاوج فى نفسى الأدب والفنون.. غدت فى حياتى ، صحبة .. واصطبغت كتاباتى ، بالتعدد مع تعدد اهتماماتى .. وهى نعمة أحمد الله عليها.. ومن الرزق ما يفوق المال بلا حدود ، كالموهبة .. إنها حظ عظيم وثراء عريض .

ومن المواهب بهجة الرؤية .. وفن التذوق .

وفى القاهرة التقيت بقمم رفيعة الذرى ..

رأيت العقاد ولطفى السيد وأم كلثوم وطه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود تيمور وعبد الوهاب عزام ورامى وبيرم التونسى وزكريا أحمد والسنباطى ..

رأيت محمد حسين هيكل ورأيت حسين فوزى .

رأيت من رجال السياسة والدبلوماسية محمود فوزى .

بلا ألقاب سجلت هذه الأسماء لأنها أكبر من الألقاب .. كل الألقاب .. أكبر كثيرا ..

زرتهم وزارونى فى بيتى وأنا لم أتجاوز بعد، فى ذلك الوقت، مرحلة الشباب وحللت من نفوسهم مكانة كنت أنا نفسى أغبط نفسى عليها .. كان الزيات يدعونى . ابنته .. وكان يطلب الىَّ أن أناديه : بابا .. كان يقول : أنه لم يرزق فى حياته بنتا ولكنه وجدها كما يتمنى أن تكون .. وكم كان قوله هذا يغنينى ويشجينى .. كان أبا يقلق إذا مرضت ، ويقلق أكثر إذا ولدت، حتى إذا زال عنى رهقى ، كان أول الداخلين إلى حجرتى .. كان يفرح إذا كتبت ، ويسعد إذا تفوقت ، ويفخر إذا تقدمت الصفوف .

ومن الطريف أن الاستاذ الزيات حين كان يصدر مجلة الرسالة حال سكرتيره بينى وبينه على الرغم من وجود موعد سابق .. والقصة تبدأ حين كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب جامعة القاهرة. كنت أكتب

أبحاثا نقدية فى الأدب وأرسلها إلى مجلة الرسالة التى يرأسها أحد كتابى الأثيرين الذين كنت أقرأ لهم منذ كُنت فى العاشرة من عمرى. كان يرأسها الأستاذ الزيات .

وكنت على طراءة السن، فرحة سعيدة بانتسابى إلى كلية الآداب أيام كانت كلية الآداب بأعلامها المرموقين ومواقفهم المرموقة الشامخة فى الحياة المصرية لا الأدبية فحسب.. وكنت أترجم اعتزازى بها فى امضائى الذى أقرنه دائما باسمها .

وكانت مقالاتى وأبحاثى فى هذه السن الغضة تنشر فى مجلة الرسالة بعناية ظاهرة .. وعرفت فيما بعد أن الاستاذ الزيات ومعاونيه فى المجلة كانوا يحسبوننى أستاذة فى كلية الآداب لا طالبة قياسا على هذه الأبحاث ..

وشجعنى هذا على أن أطلب لقاء الاستاذ الزيات وما كان صوتى يصله عبر أسلاك التليفون أو المسرة . كما يريد المجمع أو الهاتف كما يقول إخواننا في سوريا حتى جاءنى صوته مرحبا متهللا وبسرعة حدد لى موعدا .

وذهبت فى الموعد بعد أن احتشدت طالبة السنة الأولى له فإذا بالسكرتير وقد رآنى فتاة صغيرة ، يتطوع بالحيلولة بينى وبين لقائه، متعللا بتعلات سكرتيرى المكاتب الكبيرة ..

أتراه حسب أنى أنتحل شخصية الكاتبة الجديدة وليست هى التى تقف أمامه ؟ أرجح هذا .. أو هو بالطبع .

ومضى على هذه الواقعة أربع سنوات وتخرجت فى كلية الآداب وملأت الصحف والمجلات والحياة الأدبية كتابة ونشرا .. ومن هذا المقال الذى نشرته سنة ١٩٥٦ بعد تأميم القناة بعنوان (من أجل هذا يحاربوننى) فإذا بالاستاذ الزيات يرد فى الصحيفة نفسها.. الشعب .. مسترسلا فى المعنى مستهلا كل فقرة من فقراته :

(وكما قلت فى مقالك الأدبى الجميل يا سيدة نعمات..) .

ولم ألبث أن طرق بأب بيتى عصر ذلك اليوم طارق.. وأفتح الباب فإذا بى وجها لوجه أمام سكرتيره الذى صدنى عنه منذ بضع سنوات، يطلب تحديد موعد ليزورنى من ؟

الأستاذ الزيات !!

وابتسم لى القدر ..

واتصلت الأسباب .

وكان الأستاذ العقاد يلقى الناس يوم الجمعة من كل أسبوع وبينهم صفوة من الأدباء والمفكرين ونخبة من مريديه وتلاميذه وكان يلقانى وحدى كل سبت من الخامسة إلى التاسعة مساء.. ويلغى مواعيده فى هذا اليوم من أجلى - كما قال لى - يحدثنى حديث الأدب والفن والسياسة .

كنت فى ذلك الوقت حديثة التخرج أحضر رسالة الماچستير عن المازنى رفيق عمره وصديقه على امتداد أربعين عاما لم يكدر صفاءهما كدر، أو يشوب علاقتهما طائف ينال .

وكان أستاذ الجيل لطفى السيد يطلب من ممرضته أن تدعه معنا زوجي وأنا وترجيء طلباتها فيما يتعلق بصحته حتي الدواء والعشاء كان يرجئهما على الرغم من إلحاحنا عليه بتعاطيه .

ومن الطريف أنه أهدى إلىَّ يوما كتابه صفحات مطوية وكتب فى الأهداء «إلى صديقتى» .. ثم استدرك فى خفة روح أو كمن يستدرك وقد نظر إلى زوجي ، وأضاف كلمة الشابة أى إلى صديقتى الشابة..

كم سعدت وكم سمعت وكم تعلمت وكم رأيت وكم وعيت وكم أثريت الثراء الذى يرتفع كثيرا على الأرصدة والمكاسب والأرباح مما يشغل عباد المال .

ويسألوننى فى برامج الإذاعة وفى لقاءات الصحافة فيما يسألونه عن مولدى فأقول المنيا أم التوحيد وأم تل العمارنة حيث أرسل العظيم اخناتون سبحاته.. المنيا التى كرمت المرأة الى الحد الذى اتخذت معه «نفرتيتى» شعارا لها .. المنيا المعطاء على مسار التاريخ .

ولكن إذا كانت المنيا التى أعتد بها ، وأعتز بأمجادها ، مسقط الرأس ، فإن القاهرة ، بعد سنوات مرفع الرأس .

فى المنيا ميلادى الأول وفى القاهرة ميلادى الثانى .

فى المنيا نشأت وفى القاهرة شببت وتعلمت وكتبت وتزوجت وأنجبت وحققت ذاتى بألوان من الأمومة ليس آخرها بنوة الأبناء .

شريط طويل حافل ، حياتى فى القاهرة ، والقاهرة فى حياتى وكم يطيب لى الحديث المفصل عمن ذكرت من الصفوة الأعلام لولا أنى كتبت عن «الأدباء» منهم كتابة مستفيضة فى كتابى (قمم أدبية) وكتبت عن «الشعراء» فى كتابى (خصائص الشعر الحديث) وكتبت عن أعلام الفن الموسيقى، فى كتابى (أم كلثوم وعصر من الفن) وكتبت عن التشكيليين فى كتابى (فكر - ادب - فن - سياسة) ولهذا اكتفيت بلمحات منهم اقتضاها السياق فى قصتى مع القاهرة مكتفية بما جاء فى كتبى الأخرى من تحليل متوسع بل أفردت لبعض هذه الأسماء النوابغ، كتابا مستقلا لكل منهم مثل : العقاد - المازنى - رامى - أم كلثوم .

شىء كبير أن يكون للإنسان قلم .. ولكن شىء نفيس أن يكون للإنسان موقف ومن نعم الله علىَّ أن وهبنى الكلمة.. والقرار أعنى القدرة على الاختيار الصعب، فعرفت المواقف ، وتحملت فى سبيل مواقفى ..الكثير عرفت المواقف وعلوت على الاغراءات والعروض والمناصب والبريق .

أعز منها جميعا تراب هذا البلد بكل ذرة من هذا التراب .

يكفينى من الدنيا دفاعى المستميت عن هضبة الأهرام .

يكفينى من الدنيا رفضى دفن النفايات الذرية للنمسا فى شرق لقاهرة .

يكفينى من الدنيا دفاعى عن حماية الآثار الإسلامية .

يكفينى من الدنيا دفاعى عن قبة الإمام الحسين .

يكفينى من الدنيا دفاعى عن نهب مصر . من خلال الرئاسة السابقة لبنك العربى الأفريقى، فى هذا وغيره كفاء .

محمود أمين العالم

بداياتى اتسمت بالتمرد والتساؤل والقلق

أمسك بالقلم لأكتب عن سنوات التكوين يثب إلى خاطرى سؤال إشكالي مشاكس: هل هناك سنوات محددة للتكوين؟ ، سنوات لها بداية ونهاية ؟ أم أن التكوين بداية متجددة مستأنفة لا تتوقف أبداً ؟ ، هل هناك حدّ يبلغ عنده تكوين الإنسان مداه فلا يتعداه . أذكر أننى منذ أكثر من أربعين عاما ترجمت موضوعا فى مجلة علم النفس التكاملى عن أن السنوات الخمس الأولى من حياة الإنسان هى سنوات تكوينه النهائى، وأن كل مايتلوها بعد ذلك من سنوات هو امتداد لجذر تثبت، وتفريع على أصل اكتمل، هل هذا صحيح؟ اليوم.. ما أظن ذلك..

إن ما أشعر به ـ عن خبرة ويقين ـ بعد كل هذه السنوات، أننى وأنا أختتم العام الأول بعد السبعين من عمرى، لا أزال أتكون، لا أزال

أحتاج إلى مزيد من الخبرة والتكوين، لاتزال تغمرنى الدهشة ويغمرنى القلق والتوتر والهوس احيانا امام كل لحظة وخبرة جديدة.

لايزال يشتعل فى كيانى كله الاستعداد والرغبة فى التجدد والتغيير والتجاوز، لكل ماسبق أن مارسته قبل هذه اللحظة الراهنة فى مجالات المعرفة أو التذوق أو الشعور أو العمل.

هل أقول إن هذا هو ما تكونت عليه؟ هذا هو تكوينى، الذى هو التكونن المتصل المتجدد - لو صح التعبير - وليس التكوين النهائى؟ هناك بغير شك مغالاة فيما أقول . فثمة ملامح لشخصيتى قد تحددت بالفعل ، أرت أم لم أرد ، وثمة رؤيا إنسانية وثقافية قد تبلورت وإن لم أقل إنها استقرت وجمدت نهائيا.. هل يمكن القول - خروجا من هذا الاشكال - بأن حياة الانسان هى مزيج من الكينونة والصيرورة، من الثبات والتغير، وأن بين هذين الطرفين جدلا حيا متصلا لا ينقطع أبدا؟ لعل هذا ان يكون أقرب الى الصواب.. فالحق أنه لا نهاية ولا حدود للتكوين والتكونن، وللتجديد والتجاوز فى تاريخ الفرد أو فى التاريخ الانسانى العام، وإلا أصاب هذا التاريخ - الفردى أو العام - نوع من تصلب الشرايين، ففقد تاريخيته - أى فقد حياته حتى وإن استمرت فى ظاهرها، ولعل هذا هو مايجعلنى أكاد أبصر سنوات حياتى مراحل مختلفة متغايرة من التكوين والتكونن، ولا أكاد أشعر بالحدود النهائية لكل مرحلة، ولا أكاد أشعر حتى اليوم بتوقفها أو اكتمالها، ولا أقصد

كمالها، ولهذا أقول لنفسي، وأنا اكتب بصوت عال، أكتب بتلقائية ، وبغير إعداد مسبق، أقول لنفسي ليكن حديثي إذن عن السنوات الاولى للتكوين، وليس عن سنوات التكوين على اطلاقه. ولا أستطيع هنا أن أغوص فيما هو ثابت ومتغير، فيما هو موروث ومكتسب ، وما دار بينهما منذ بداية العمر- ولا يزال حتى اليوم - من حوار وصراع وتداخل باطني، حسبي أن أحاول أن أرسم على الأقل - بعض التضاريس الخارجية فلعلها أن تساعد على تحديد بعض المعالم الدالة.

بين أحياء القاهرة القديمة

ولدت في اليوم الثامن عشر من شهر فبراير عام ١٩٢٢ في حارة الكحكيين بحي الدرب الاحمر بالقاهرة، وما أذكر إنني غادرت سكني هذا الحي وحي الازهر عامة قبل أن أبلغ الثلاثين من عمري عندما تزوجت، على أني انتقلت مع اسرتي داخل إطار هذا الحي نفسه بين حارة الكحكيين وحارة القربية ودرب المحروق ودرب الدليل وحيضان الموصلي. وكان من الطبيعي كذلك أن يكون تعليمي الأولي والإبتدائي والثانوي في احضان هذ الحي الشعبي العريق. بدأت تعليمي الأول في كتاب الشيخ السعدني في مدخل حارة السكرية عند بوابة المتولي، ومازلت أذكر الشيخ السعدني بوجهه المتجهم دائما وعصاته الطويلة التي ما كانت تعجز عن الوصول الى أي تلميذ منا ونحن نحفظ معه

القـرآن الكريم، ولا أدرى لماذا تثب إلى ذاكـرتى الآن زيارتى فى هذه السن المبكرة مع شقيقى محمد شوقى أمين لأديب كبير كان يسكن فى حارة السكرية فى بيت من البيوت الاثرية القديمة هو حسن القاياتى ، ما أعتقد أن جيلى فضلا عن الأجيال التالية يعرف هذا الأديب الكبير، ولا أدرى لماذا لا أزال أذكر حتى اليوم ظلال بعض ما أخذ يلقيه علينا فى هذا اللقـاء من شـعـر، بل لا أزال أذكـر بعض ألفـاظه التى تتـسم بالعراقة اللغوية.. بل لا أزال اذكر نكتة عن صديق له، حكاها لنا وانطلق يضـحك هو وأخى شـوقى عليـها، أمـا أنا فلم افـهـمـهـا إلا بعد أن أخذ يشـرحـهـا لى أخى شـوقى بعد خـروجنا من عنده، قال الاسـتـاذ حـسن القاياتى انه أرسل الى صديق له يدعى فؤاد رسـالة بدأها بقوله: سـمى قلبى يافؤاد. فـرد عليه صديقـه فـؤاد برسـالة بدأها بقـوله: سـمى قلبى ياحـسن ! طبعـا لم أفـهم آنذاك أن الفـؤاد هو اسم مـرادف للقلب، أمـا حسن فليس اسما أو مرادفا للقلب! عذرا على هذه الانعطافة من كُتَّاب الشـيخ السـعـدنى الى هذه الزيارة العـابرة للاسـتـاذ الأديب حـسن القاياتى.. ولكن لعلها تشير إلى مازالت تحمله وتحياه الذاكرة من عطر أدبى قديم عريق، وما انتهيت من كُتَّاب السعدنى حتى التحقت بمدرسة الرضوانية الأولية بالقربية، وهو جزء من حى الدرب الأحمر كانت تصنع فيه قرب الماء التى كان يستخدمها السقاء ون فى ذلك العهد. وما أعتقد

أن المجال يسمح لي بأن أترك بعض ذكريات هذه المدرسة تفرض نفسها - كما تحاول الآن معي - على هذه السطور الوصفية الخارجية عن حياتي في هذه المرحلة . المهم أنني التحقت بعد مدرسة الرضوانية بمدرسة النحاسين الابتدائية بالقرب من ميدان بيت القاضي على مقربة من جامع سيدنا الحسين، وقد علمت بعد ذلك أن جمال عبدالناصر كان تلميذا في نفس المدرسة وإن كان يسبقني بعامين. وكان الالتحاق في هذه المدرسة بمصروفات، لأني مازلت أذكر حتى اليوم أنني لم أتمكن من دخول المدرسة عندما أخذني أبي إليها فقد أخرج كيس نقوده الدموري، واكتشف أن مافيه لايكفي لدفع المصروفات فتركني وذهب الى قريب لنا هو الشيخ منير الدمشقي صاحب المكتبة المنيرية المشهورة فاقترض منه مايكمل به مصروفات دخولي المدرسة، وعاد اليَّ وأنا في انتظاره على باب المدرسة، وبعد أن حصلت على الابتدائية من مدرسة النحاسين التحقت بمدرسة الاسماعيلية الثانوية بميدان السيدة زينب.. وكان ذلك في عام ١٩٣٥، وكان عاما عاصفا بالأحداث السياسية التي لا أزال اتذكر الكثير منها، على أني لم أمكث في مدرسة الاسماعيلية - وكانت مدرسة أهلية - غير سنة واحدة، انتقلت بعدها الى مدرسة حكومية هي مدرسة الحلمية الثانوية - بحي الحلمية - التي حصلت فيها على الشهادة الثانوية، وانتهت بهذا المرحلة الاولى من حياتي التعليمية - بل المرحلة الأولى من تكويني الثقافي.

وقد يعطى سكناى فى حى الدرب الاحمر وانتقالى بين مدارسه.. لا مجرد إطار عام لهذه السنوات الأولى من حياتى، وإنما يعطى كذلك عمقا له دلالة خاصة، ففى هذا الحى الشعبى الدينى قضيت الثلاثين عاما الأولى من عمرى، تجولت فى كل حواريه وأزقته ، وعرفت كل آثاره، وصليت فى كل مساجده ، واختلطت بناسه بمستوياتهم الاجتماعية المختلفة وتمثلت ومارست تقاليده وعاداته، ومن أحد منازله فى منطقة «الباطنية» كنا ونحن أطفال نستطيع أن نمضى رأسا الى جبل الدراسة، وأن نشتبك هناك فى معارك مع الأحياء الأخرى بالطوب والمقاليع. ومازلت أذكر هتاف حارتنا آنذاك «إحنا بتوع الباطنية واللى يعادينا مين».

ومنطقة «الباطنية» كانت مشهورة وأظنها لاتزال ـ بتجارة الحشيش وما أكثر ما كنت أشاهد آنذاك عمليات بيع الحشيش فى ميدانها الصغير.

أجمل علاقات الصداقة

وفى أثناء سكننا فى درب المحروق عاصرت البدايات الأولى لمحمود شكوكو الذى كانت عائلته من سكانه أيضا ومازلت أذكر بعض مونولوجاته الاولى . وفى جامع المردانى بشارع الغورية، بالقرب من بوابة المتولى كنت أذهب لأذاكر فوق قاعدة نوافذه الكبيرة، أو فى باحته

الواسعة.. ولا أكاد أنسى أبدا حتى اليوم نسائمه الرخية على وجهى.
وبالقرب من هذا المسجد الجميل كانت تسكن عائلة ناظر مدرسة
النحاسين آنذاك وهو عبد الهادى برادة، كانت تسكن بيتا كبيرا ـ كما
هو فى ذاكرتى الآن ـ كنا نلعب فى حوشه الواسع، فقد كنت على علاقة
طيبة مع أولاده وخاصة ابنه كمال الذى ما أزال أحمل له الود العميق
رغم هذه السنوات البعيدة التى فرقت بيننا، وفى شارع قريب كذلك من
المسجد كانت تسكن اسرة المناديلى، وهى أسرة تجارية عريقة، كان لها
محل مانيفاتورة مشهور آنذاك فى حى الغورية ولا أزال أحمل عطر
علاقات الصداقة مع أطفال وشباب هذه الأسرة الكريمة، ولا أدرى كيف
وجدت طريقى فى هذه السن المبكرة الى السير الشعبية.

بداياتى مع السير الشعبية والقراءة

كان لى صديق من منطقة الباطنية عرفنى على مكتبة من مكتبات
شارع الازهر، لعلها مكتبة صبيح أو مكتبة أخرى، وكانت هذه المكتبة
تعيرنا ملازم مفرقة من بعض السير الشعبية لقاء ملاليم تقريبا. كنا
نأخذ الملزمة نقرؤها ثم نعيدها ونأخذ الملزمة التى تتلوها وهكذا حتى
ننتهى من قراءة السيرة، وأذكر فى هذه السن اننى قرأت سيرة الأميرة
ذات الهمة، وعنترة ولكننى تعلقت تعلقا شديدا بسيرة عمر العيار ولاتزال
فى نفسى من هذه السيرة أطياف بطولية لا تختفى. كما تعلقت بعد
ذلك فى بداية مرحلة الدراسة الثانوية بقصص اللص المصرى الشريف

حافظ نجيب ثم بارسين لوبين، على أن أخطر ما أتاحه لي هذا الحي الي جانب هذه العلاقات الانسانية والمعنوية هو قربه الشديد من دار الكتب بباب الخلق، كنت أذهب اليها لاقرأ وأستعير ما أشاء من كتب . وكان يجلس بجوار مبنى هذه «الكتبخانة» بائع صغير للكتب في مثل سني، كنت اشترى منه بعض القصص باللغة الانجليزية التي كنا نتعلمها تعلما جادا في هذه المرحلة الابتدائية، وفي دار الكتب كنت أغامر كثيرا بالاطلاع على كتب لا أحسن فهمها تماما، بل أحيانا لا أفهم منها شيئا، كان يغريني بها عنوانها اساسا.. اذكر في بداية المرحلة الثانوية.. وقوعي على كتاب بالانجليزية في مكتبة باب الخلق أغراني عنوانه وهو «حب الحياة في الطبيعة» ، كان الكتاب في البداية مستغلقا على فهمي، ولكنني أخذت أحاول أن أستوعب بعض دلالاته وأذكر أنني استطعت أن أفك بعض رموزه أخيرا، واعتقد إنه كان البداية السحرية لي لتعرفي على نظرية التطور وعلى أنني في مدرسة النحاسين الابتدائية أتيح لي الحصول على كتابين كان لهما أكبر الأثر في تشكيل بعض ملامح حياتي الفكرية، ولازلت أذكرهما جيدا. وكان حصولي على هذين الكتابين في إطار مصادفة نادرة، لولاها ما واصلت تعليمي، فقد كنت في السنة الثالثة فيما أذكر - وعجزت اسرتي عن دفع مصروفاتي المدرسية ، ففصلت من المدرسة ومكثت في البيت - وأخذتني

أمى الى زوج خالتى الشيخ منير الدمشقى صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة الذى اشرت اليه من قبل، وكان هدفها أن اتعلم صنعة بدلا من مكثى عاطلا فى البيت، وفى بضعة أسابيع استطعت أن اتعلم جزءا كبيرا من صندوق الحروف وتركيب الجمل والعبارات وربطها بالخيط مع غيرها من الجمل الأخرى، وابنى صفحة كاملة من الرصاص، على أنى فى أغلب الاوقات كنت أعمل مساعدا للعدد البسيط من العمال الذين كانوا يعملون فى هـذه المطبعة، لا فى الأعمال الطباعية أساسا وإنما فى الخدمات الصغيرة كإحضـار الشاى وشراء السجائر لهم إلى غير ذلك.

المجانية والتفوق

ولم تطل غيبتى عن المدرسة، إذ سرعان ماجاء خطاب رسمى منها يدعونى الى العودة معفى من أداء المصروفات، وكان السر وراء ذلك أن الملك فؤاد كان مريضا آنذاك وشفى، فتقرر منح المجانية للمتفوقين فى سنوات الدراسة الابتدائية فيما يبدو.. وهكذا عدت الى مدرسة النحاسين لأواصل دراستى بها، على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد أجريت فيما يبدو مسابقة عامة نجحت فيها، فحصلت على جائزة من وزارة المعارف آنذاك.

وكانت الجائزة تتمثل فى كتابين: أولهما هو كتاب أحمد حسنين

باشا عن رحلته فى الصحراء الغربية واكتشافه لواحة من واحاتها.. والثانى هو كتاب يعقوب صروف عن مكتشفات العلم الحديث، أو مايقرب من هذا العنوان.

ولاتزال مغامرة أحمد حسنين فى مجاهل الصحراء، والمغامرات العلمية التى عشتها فى كتاب يعقوب صروف تواصل رفيفها الحى فى وجدانى حتى اليوم.. ولعل هذين الكتابين قد أثرا فى مسلكى العملى والفكرى عامة، على أنى مازلت أحمل من هذه السنوات المبكرة فى حياتى سواء فى حى الدرب الاحمر أو فى مدرسة النحاسين بعض الذكريات السياسية فمازلت أذكر مظاهرة شاركت فيها بعض طلبة مدرستنا مع بعض طلبة مدارس الحى - كمدرسة الجمالية مثلا -.

لست أذكر كيفا! ولكنى أتذكر صداما مع البوليس آنذاك فى ميدان بيت القاضى، واتذكر بقايا هتافات واهازيج لاتزال ترن فى أذنى مثل «احيه يانسيمُ يا أبو عقل «تخين» . ونسيم هو نسيم باشا الذى كان رئيسا للوزارة آنذاك.. ويبدو أن المدرسة كان يغلب عليها الاتجاه الوفدى شأن القاعدة الشعبية عامة فى هذه السنوات على أن أول مظاهرة سياسية اشتركت فيها كانت قبل ذلك.. وكانت محصورة فى حارة القربية أمام بيتنا.. كنت حدثا صغيرا.. وكان العام هو عام ١٩٣٠.

وكان مصر كلها تغلى بالمظاهرات الوفدية ضد صدقى باشا. وفى هذه الايام، اعتقل اخى شوقى.. على أن المظاهرة التى قامت فى الميدان الصغير أمام بيتنا لم تكن احتجاجا على اعتقاله، وانما كانت جزءا من الاحتجاج الشعبى العام الذى كان يشارك فيه الكبار والصغار.. وأذكر فى هذه الايام ، أن بعض أفراد اسرتى صحبنى الى سجن قراميدان بحى القلعة فى محاولة للاتصال بأخى من خارج الأسوار بالطبع، عن طريق النوافذ الصغيرة لزنازين السجن التى كان أخى شوقى يقبع فى إحداها ومازلت أتذكر جيدا هذه الزيارة، ولم أكن أدرى حينذاك أننى سأكون داخل أسوار هذا السجن، وفى إحدى زنازينه بعد أكثر من ثلاثين عاما! .

أبى والشيخ محمود خطاب

على أن اعتقال اخى شوقى كان شيئا شاذاً فى اسرتنا.. فأسرتنا لم تكن تهتم بالسياسة، فقد كان أبى من رجال الدين، وكان من اتباع الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية، وكان أبى على صداقة حميمة بالشيخ محمود خطاب ، فكان يصحبه فى رحلة صيد من حين لآخر تصحه بها الاطباء، وكان يذهب اليه عصر كل يوم فى مسجده الذى بناه فى حارة فى المغربلين بعد نهاية شارع الخيامية، هذا الشارع الفريد الذى يغطيه ـ ولازال ـ سقف خشبى. وكنت أذهب مع أبى أحيانا،

كنا ننتظر الشيخ محمود خطاب عند أسفل السلالم الداخلية لبيته الذى كان ملحقا بالمسجد، ويقبل الشيخ محمود فى عباءته الفضفاضة وجلاله المضىء الفريد، ويتجه الى مجلسه بالقرب من ساحة المسجد، ويتحلق حوله مريدوه.. وكان للشيخ محمود خطاب مهابة ما أزال استشعرها حتى اليوم، ما أزال استشعر صفاء وجهه وشفافية نفسه.. وعندما مات حزنت عليه حزنا شديدا، وتولى بعده ابنه الشيخ أمين، وأذكر انه كان رجلا طيبا للغاية.. ولكن لم تكن له مهابة الشيخ محمود، وكنت أحرص فى نهاية كل عام دراسي، وأنا فى المرحلة الابتدائية - أن أحمل الى الشيخ محمود خطاب شهادة نجاحى. وكان يطلب منى أن أقرأها فى مجلسه أمام الجميع وكان يمنحنى دائما قطعتين لامعتين من الفضة، أظن أن كل قطعة منهما كانت تساوى عشرة قروش، وكنت أفرح جدا بلمعانهما ورنينهما ولكن أبى كان دائما يأخذهما منى.. وكنت أحزن لهذا كثيرا، على أني أذكر- بخجل شديد - أننى آخر مرة حصلت على هاتين القطعتين، ولم يكن أبى حاضرا بالمصادفة ، استوليت على إحداهما ، وكذبت على ابى وقلت له: أن الشيخ محمود لم يعطنى إلا قطعة واحدة.. واستغرب ابى كثيرا. واعتقد انه شك فى كلامى.

بدايات التمرد

على أنى كنت مغرما آنذاك بأفلام توميكس فى سينما أولمبيا. وكنت فى العادة أشاهد أفلامه فى التيرسو. وكانت الصالة فى العادة مزدحمة

جدا والمتابعة فيها مرهقة ولهذا صممت أن أذهب لمشاهدة أحد أفلام توميكس في الدرجة الثانية، واصطحبت معي اختي أمة الله التي تصغرني ولقد كان هذا السلوك جزءا من حالة تمرد أخذت تملأ نفسي في هذه السن المبكرة في مواجهة أبي.. وأذكر أنني بعد خروجي من الفيلم قررت أن أقوم بعملية تمرد اخرى أشد خطورة . فذهبت واشتريت «سردينا» وأكلته أنا واختي في الطريق وأخذنا نبذل جهودا لازالة رائحته عنا قبل عودتنا الى المنزل.. ذلك أن أبانا كان يعتبر أكل الفسيخ والسردين من المحرومات ، لانهما من الميتة، ومازلت أذكر كتابا حول هذا الموضوع هو «الف سيخ في عين من أكل الفسيخ». ولقد كان تذوقي لطعم السردين المملح لأول مرة تذوقا يمتزج فيه الاحساس بالمتعة بالاحساس بالخطيئة فضلا عن الاخساس الواعي بالتمرد، والحقيقة أن علاقتي مع ابي منذ طفولتي المبكرة وحتي وفاته كان يطغى عليها دائما طابع التصلب والتوتر على خلاف علاقتي الحميمة مع أمي.. وما أكثر التفاصيل المعقدة التي تصلح للسيرة الذاتية وليس لهذا الاستعراض الوصفي الخارجي لهذه المرحلة الأولى من سنوات التكوين.. على أن ابي لم يكن رجل الدين الوحيد في بيتنا.

أخي وعطر الثقافة العريقة

كان هناك أخي أحمد، وكان كفيفا، يدرس في الازهر، وواصل دراسته حتي حصل على شهادة كلية الشريعة . وكان للشيخ أحمد

فضل معرفتى بالتراث القديم منذ هذه السنوات المبكرة، لم تكن معرفة بالمعنى الحقيقى، وإنما اقرب الى المعايشة الخارجية لمتون هذا التراث وهوامشه والتلمس الغامض السحرى لبعض دلالاته ، فقد كان الشيخ أحمد يحرص على أن ينقل كل كتبه الدراسية الى طريقة بريل، كنت أملى عليه، ويقوم هو بتخريم أوراق خاصة مثبتة على لوح خشبى بمسطرة معدنية مستخدما لهذا ما يشبه المسمار المثبت فى قبضة خشبية، ولقد ظللت أملى عليه، وأقرأ له منذ أن استطعت القراءة حتى سن المراهقة، خائضا فى مختلف كتب التفسير والحديث وأصول الدين وعلم الكلام واللغة إلى غير ذلك ، أفهم بعض المعانى، ويغيب عنى أغلبها، ولكنى كنت أعيش عطر ثقافة عريقة لايزال رحيقها الغامض يغمر نفسى، رغم استيعابى ومعرفتى بعد ذلك بل قيامى بتدريس بعض جوانب هذا التراث العظيم، وكان الشيخ أحمد عضوا - مثل ابى - فى الجمعية الشرعية - ،كان متطوعا لاحياء صلاة الجمعة وإلقاء خطبتها فى أحد مساجد هذه الجمعية المنتشرة فى القاهرة وخارجها.. وكنت أصحبه دائما أو فى أغلب الاحيان، وكان هذا يغيظنى كثيرا رغم محبتى الشديدة لأخى أحمد وحرصى الدائم على مساعدته ، ذلك أن أيام الجمعة كانت تعنى عندى المشاركة فى ماتشات الكورة فى أحواش جبل الدراسة، أو الذهاب الى حمام سباحة وزارة المعارف فى الجزيرة، الذى

كنت مشتركا فيه طوال سنوات المدرسة الابتدائية . ولكننى فى الحقيقة كنت استمتع بصحبة أخى أحمد، فقد كان على جديته العلمية والدينية ، شخصا مرحا فكها لا يعرف التجهم والتزمت. ولقد مات للأسف دون أن أراه. علمت بموته من بعض الجرائد التى كانت تهرب الينا ونحن فى سجن الواحات الخارجة، وحزنت عليه كثيرا .

وكان شوقى هو الأخ الاكبر. وإن كان لى أخ أكبر منه ولكنى لم أره. مات قبل أن أولد. قيل لى انه مات فى ثورة ١٩ فى ميدان الازهر ، وكان اسمه فهمى، وأننى اشبهه تماما ولهذا عشت فترة طويلة من حياتى استشعر اننى امتداد له. وعندما قرأت شخصية فهمى فى الجزء الأول من ثلاثية نجيب محفوظ خيل الىّ أننى أقرأ شخصية اخى فهمى . وأعود إلى أخى شوقى الذى كان فى الحقيقة أكثر من أخ ، كان العائل الحقيقى للأسرة وخاصة بعد أن فوجئنا بأن أبانا قد باع بيتنا فى حارة القربية الذى كان يدر علينا بعض الدخل ولهذا كان علينا أن نبحث عن سكن وعن مصدر للرزق! وحمل أخى شوقى العبء وكنا اسرة مكونة من سبعة أفراد، فإلى جانب الوالد والوالدة وشوقى، كان هناك أحمد وأمة الله وعائشة وأنا..

وكنا نحن الأربعة لانزال فى مرحلة التحصيل العلمى.

ولهذا كان شوقى مشغولا بنا دائما، ومشغولا عنا دائما. كان طالبا

في الازهر مثل أخي أحمد، ولكنه وهو مازال طالبا فى الابتدائية ألف كتابا صغيراً فى نقد الأزهر ورجاله بعنوان «الأزهر فوق المشرحة». ففصل من الأزهر. وكان محبا عاشقا للأدب واللغة.. فراح يشق طريقه للعلم والكتابة، وأخذ اسمه يلمع على صغر سنه، وأخذ ينشر مقالاته الادبية واللغوية في جريدة الاهرام، وكان من أوائل الداعين لانشاء مجمع اللغة العربية، ولهذا كان أول المعينين فيه عند إنشائه، ثم أصبح بعد ذلك وبعد جهاد علمي طويل عضوا من أعضائه..

وفى منتصف هذا الجهاد كان عليه أن يحمل عبء أسرة بكاملها ما أكثر ما عطلت مسـيرته العلمية الصاعدة ! ولقد كانت مكتبة أخي شوقى ، البحر المحيط الذى رحت انهل منه كنوز المعرفة التراثية القديمة، والجديدة، العربية والغربية المترجمة، والحديث عن هذه المكتبة وعن بعض ما كان فيها، مما كان له أثر عميق فى توجيهى وتكوينى فى هذه المرحلة المبكرة من حياتي، حديث يطول، ولكن حسبى أن اشير الى أثر واحد هو مجموعة مجلة الرسالة للأديب الكبير أحمد حسن الزيات، وجدت أمامى فى هذه المجموعة منذ بدايتها ، فضلا عن استمرارها، ما فتح لي آفاق الثقافة الرفيعة فى مختلف مجالاتها، وما أكثر ماقرأت فيها من صفحات أرعشتني وهزتني وأقلقتني ولكن حسبى أن أكتفى داخل هذه الآفاق الثقافية أن أذكر ترجمة فيلكس فارس لكتاب نيتشه «هكذا

تكلم زارادشت» التى اطلعت عليها بل عايشتها معايشة حميمة بعد ذلك بسنوات. وكانت الخطوة الحاسمة الأولى فى حياتى نحو التخصص فى دراسة الفلسفة.

أخى شوقى وكامل كيلانى

على أن فضل شوقى علىَّ لم يقتصر على مكتبته وعلى شخصه النبيل وعلمه الوافر، وإنما قد أتاح لى أفقا آخر كان له أثر كبير كذلك فى تطويرى الثقافى المبكر.. كان أخى شوقى صديقا حميما للاستاذ كامل كيلانى نقيب الأدباء كما كان يلقب فى ذلك العهد. وكان كامل كيلانى صاحب المبادرة العظيمة فى التأليف للأطفال.. تأليفا موسوعيا متنوعا يجمع بين التراث العربى القديم والحديث والغربى، الأدبى منه والعلمى والتاريخى والجغرافى . وكان للاستاذ كامل كيلانى مكتب خاص فى شارع حسن الأكبر غير بعيد عن بيتنا. وكان أخى شوقى يصحبنى معه فى ذهابه الى مكتب كامل كيلانى. وما اسرع ماجعل منى كامل كيلانى معياراً للقدرة على قراءة كتبه وتفهمها وتذوقها. وهكذا أصبحت أوجد فى مجالسه التى كانت تضم أبرز الادباء من مصر ومن سائر البلاد العربية، وأقوم بقراءة بعض صفحات من كتبه.

وأعتقد اننى قرأت كل ما كتبه ونشره كامل كيلانى من كتب فى هذه المرحلة.. ولم تتوقف قراءتى عند كتبه المخصصة للاطفال ، وإنما امتدت

لكتبه الأخرى التي كان يكتبها للشباب، فضلا عن دراساته العلمية المتخصصة الأخرى عن أبي العلاء وابن الرومي وغيرهما . واعترف إنني عرفت لأول مرة عن طريق كامل كيلاني شكسبير وبوكاتشو بوجه خاص والعديد من الادباء والمفكرين العرب والغربيين الآخرين فضلا عن العديد من المنجزات والحقائق العلمية التي كان يكرس لها سلسلة من سلاسله ، وبين طائفة الكتب الخاصة التي كانت موجودة في مكتب شارع جسن الاكبر وجدت كتاب تاريخ الفلسفة ترجمة أحمد أمين وزكي نجيب محمود وكانت قراءته تعميقا لتوجهي المبكر نحو دراسة الفلسفة.

ولست أذكر تماما في أي سنة من هذه السنوات علمت أثناء وجودي في مكتب كامل كيلاني أن بيرم التونسي قد استطاع أن يتسلل داخل مصر، متحديا القرار القديم بإبعاده ونفيه، وأن عدداً من الادباء يسعى لحمايته والتدخل لدى السلطات الرسمية للسماح له بالبقاء وبممارسة حقوقه المدنية .

وأذكر أن كامل كيلاني والشاعر الشعبي محمد همام وأدباء آخرين من بينهم أخي شوقي راحوا يبذلون جهوداً مختلفة في هذا الشأن، وأذكر انني حضرت حفلا أقيم للترحيب بعودة بيرم التونسي الذي كان لايزال مختفيا ولم يحضر الحفل.. ولا أكاد اتذكر بعض رفيف من كلمة كامل كيلاني في هذا الحفل.

وأذكر اننى فى هذه المرحلة كنت اشعر بوحدة شديدة، لعلى اخترتها اختيارا، أو لعلى وجدت نفسى فى اسارها. لقد كان حديثى مع نفسى أكثر من حديثى إلى غيرى.. بل لم يكن هناك من أتحدث إليه، فالواقع أن هذه العلاقات الثقافية الكبيرة التى أتاحها لى أخى شوقى، وهذه الآفاق الثقافية التى اتاحتها لى مكتبته ومكتبة باب الخلق (الكتبخانة) وقراءاتى الخاصة، قد أخذت تعزلنى عن تلاميذ مدرستى من ناحية، وعن معايشة ابناء الحى الشعبى الذى كنت أعيش فيه من ناحية أخرى، ولهذا أصبحت علاقتى بالثقافة، بالمونولوج الداخلى الذاتى، أكثر من علاقتى بالناس والحياة، وغلب علىَّ فى هذه المرحلة طابع الانطواء والعزلة الداخلية رغم وجودى فى زحام من العلاقات الثقافية والاجتماعية الأكبر منى!.

خليط من الثقافة

أين وصلت بحديثى هذا الذى أخشى أن يكون قد طال أكثر مما ينبغى؟ أظن أننى مازلت عند مشارف مرحلة الدراسة الثانوية.. لعلى عبرت الى بعض لحظات متقدمة فيها ولكنى فى الحقيقة مازلت فى هذه المرحلة الأولى من تكوينى.. فهل استطيع القول بأننى تكونت فى هذه المرحلة؟ ماهى ملامح هذا التكوين؟ هل هى هذه المعايشة الحميمة لحى الدرب الاحمر الشعبى بأجوائه الدينية التاريخية وسكانه البسطاء

الفقراء؟ هل هو هذا الخليط من الثقافة التراثية الدينية والشعبية والادبية عامة، وهذا التفتح المبكر على الثقافة الفلسفية والعلمية، وهذا التعرف الغامض على الواقع السياسى المضطرب، وهذه الرغبة فى التمرد من ناحية وفى العزلة الباطنية من ناحية أخرى؟ . حقا هناك العديد من العناصر والرؤى والتجارب والأجواء والتوجهات والمشاعر والافكار والقيم التى لاتزال باقية فى نفسى من هذه السنوات الأولى. ولكنها فيما اعتقد كانت مرحلة تلقى وتساؤل وتمرد وقلق وبحث وتطلع وتعرف غامض على الذات وعلى الآخرين أكثر منها مرحلة إجابات وتكون أو لعلها كانت مرحلة ـ كما ذكرت فى البداية ـ من مراحل التكونن التى لم تتوقف حتى الآن.. على أن المرحلة التالية لهذه المرحلة الأولى، أقصد مرحلة الدراسة الثانوية وخاصة فى سنواتها الأخيرة، كانت نقلة أكثر تحديداً وبلورة فى تكوينى الثقافى. وقد يكون لهذا حديث آخر.

مازلت أسير فى الطريق العاصف الذى بدأته منذ سنوات

ما أن صدر العدد الأسبق من مجلة الهلال، وفيه حديثى عن المرحلة الأولى من تكوينى حتى اتصلت بى أختى التى تصغرنى، وقالت لى ضاحكة: تقول إنك مازلت تتكون أو تتكونن؟ والحقيقة اننى أراك قد بدأت تتفكك ! والواقع أننى انزعجت لقولها الحاد، ويبدو ان هذا ظهر واضحاً فى تساؤلى: كيف ؟ فأجابت. عذرا . لست أقصدك أنت وإنما أقصد ذاكرتك.

لقد اصبحت ذاكرتك مليئة بالخروم، وتداخلت فيها الأشياء والأسماء بل أخذت تتآكل في بعض الأمور! .

وخفف هذا من انزعاجي قليلا وواصلت تساؤلي بهدوء: خبريني كيف؟ فأجابت: إنك مثلا لم تذاكر دروسك في هذه الفترة الابتدائية في جامع الميرداني كما ذكرت وإنما في جامع المؤيد فقلت لها: هذه واحدة والثانية؟ قالت: إن مدرسة الرضوانية لم تكن في القربية بل في حي الدوادية قلت لها : حسناً: والثالثة؟ قالت: الثالثة هي ثالثة الاثافي، فشقيقنا الأكبر الذي مات في ثورة ١٩ لم يكن اسمه فهمي كما ذكرت بل كان اسمه فتحي وضحكت وقلت لها محاولاً تبرير أخطاء ذاكرتي: بل هذا دليل على أن ذاكرتي تزداد تكويناً وتركيباً ، حقا كنت اذاكر في جامع المؤيد لا جامع الميرداني ولكن ما أقرب الميرداني إلى المؤيد ، الاول يقع جنوب بوابة المتولي والثاني في شمالها ولقد قامت ذاكرتي بالتوحيد الجغرافي بينهما وكذلك الأمر بين القربية والدوادية إنهما يشكلان في ذاكرتي الطفولية آنذاك ساحة واحدة؟ فقالت لي في تحد: وفهمي وفتحي؟ قلت لها: نفس الأمر يا ست أمة الله، فهناك شبه كبير بين شقيقنا فتحي، وفهمي شقيق كمال في رواية بين القصرين! على انني بيني وبين نفسي أدركت ان كمال نجيب محفوظ - شقيق فهمي- لا يزال قابعا في جانب من جوانب شخصيتي برغم تصوري أنني

مختلف عنه ! كما أدركت بالفعل ان الذكريات والمشاهد والاسماء قد أخذت تختلط فى ذاكرتى عندما أستعيد بعض هذه اللحظات القديمة لا أقول هذا لأصحح بعض ما ذكرته فى حديثى السابق ، وإنما لأنبه القارئ العزيز أننى عندما اواصل حديثى هذه المرة فقد أقع فيما وقعت فيه فى الحديث السابق من خروم وتداخلات . والواقع ان الست أمة الله أشفقت بى فاكتفت بما ذكرت وهى تعلم بغير شك ان بعض ما تحدثت عنه فى المرة السابقة تداخلت فيه مرحلة المدرسة الابتدائية مع مرحلة الدراسة الثانوية على أنى سأحاول هذه المرة أن أقصر حديثى على المرحلتين الثانوية والجامعية قبل أن أخرج إلى شوارع الحياة المتلاطمة بأحداثها وبناسها.

ذكريات الطفولة

ولكن يبدو أننى لن أستطيع التخلص تماما من المرحلة الابتدائية فلا تزال تلح علىّ منها حادثة أشبه بالمأساة الضاحكة فى حياتى الصغيرة آنذاك ، وقعت هذه الحادثة لى فى السنة الرابعة الاخيرة فى مدرسة النحاسين الابتدائية.

كنت فيما أذكر أحب التلاميذ إلى تكلا أفندى مدرس اللغة الانجليزية ، وفى أحد الدروس الاخيرة راح يسأل تلاميذ الفصل عن كلمة محطة باللغة الانجليزية وعجز الفصل كله عن معرفتها ، وبثقة

واعتزاز لا حد لهما التفت الىّ تكلا أفندى طالبا الاجابة منى ولا أدرى كيف ضاعت منى الكلمة الانجليزية فجأة وألح تكلا أفندى فى طلبه فوجدت نفسى أقول وأنا فى حالة هلع شديد وبلهجة خواجاتية: مهطة وانفجر الفصل بالطبع ضاحكاً أما تكلا أفندى فتقدم منى بوجه يقطر غضبا وأمسك بكتفى بيديه ثم أخذ ينهال على بطنى ضربا بحذائه واعتقد الآن أن قسوته لم تكن نتيجة لخطئى وإنما نتيجه لخذلانى له امام تلاميذ الفصل . المهم اننى فى تلك الليلة قررت بينى وبين نفسى الا اذهب إلى المدرسة فى اليوم التالى وحاولت عدة محاولاتٍ ساذجة لأمرض ولكن دون جدوى وخرجت من البيت فى الصباح فلم أتوجه إلى المدرسة وإنما الى كوبرى قصر النيل ، ولازلت أتذكر حتى اليوم إحساسى بالجمال الناعم الرقيق لما كان يمتد أمامى من حدائق لازلت أتذكرها كلحظة حلم أخضر حر وإن كان مشبعا بالخوف والقلق والاحساس بالخطر! وفى اليوم الثانى كان لابد لى ان اذهب الى المدرسة وكان لابد ان احمل معى خطابا من ابى بأسباب غيابى وجلست فى المساء بعد أن انتزعت ورقة عادية من كراسات المدرسة لأكتب خطاب الاعتذار عن الغياب وبخطى الطفولى قلت لناظر المدرسة : إن ابننا محمود كان مريضا جدا جدا جدا بالامس وعلشان كده لم يحضر المدرسة ووقعت باسم ابى ووضعت الرسالة فى ظرف وكالعادة وقفت

بجوار حائط مع كل من تغيبوا بالأمس وما ان تحـركت طوابير التلاميذ حتى أخذ ضـابط المدرسـة يقرأ خطابات الاعتذار ، ومـا أن وصل إلى خطابى حـتى اخـذنى الى غـرفـة الناظر وكانت علقـة ساخنة ، ولكن فى الحـقيـقـة صـارحـتـهـمـا بما حـدث مع تكلا أفندى وذهبت بعـد ذلك الى الفـصل ولم يكن فى هـذا اليـوم درس لتكلا أفندى ومـضى ذلك اليـوم كالمعتاد وعندما كنت اسير فى نهاية اليوم الدراسى عائدا إلى بيتى عن طريق مـيدان بيت القـاضـى أحـسسـت بمن يداعب طربوشى من الخلف فالتفت فوجدت تكلا أفندى ينظر إلىّ نظرة تقطر مودة وحنانا وربت برقة شديدة على خدى ثم سار فى طريقه دون أن يقول لى كلمة واحدة تمنيت فى هذه اللـحظة أن أجـرى نحـوه وان اعـتـذر له وان اقول له إننـى احبـه جداً ولكنى تجمدت فى مكانى فقد كان نـهر من الدموع السـعيدة يمـلأ وجـهى ، لاأزال أتذكـر هذه اللـحظة الرهـيـفــة ويملؤنـى إدراك منذ تلك اللحظة بأن أجمل لحظات العمر وأعمقها تتمثل فى هذا التفاهم الصامت بين البشر.

أهم لحظات حياتى

وانتهت المرحلة الابتدائية ووجدتنى ذات صباح بدلا من أن أخرج من حـارة درب الدليل حيث كنت اسكن واتجه يمينا الى الباطنية فالحسين فبيت القاضى لأنعطف الى مدرسة النحاسين ، وجدتنى اتجه يساراً فى شارع حـيضـان الموصلى فبير ألمش لأواصل السـير حتى انـعطف فى

شارع الخيامية فالمغربلين ثم اخترق الحلمية فجنينة ياميش لأدخل مدرسة الإسماعيلية الثانوية في مدخل ميدان السيدة زينب ، كانت الرحلة الصباحية هذه المرة أطول من الرحلة السابقة في المرحلة الابتدائية ولكني كنت استمتع بها كثيراً ولعلها عمقت طبيعتي الإنطوائية فلقد اصبحت الرحلات الطويلة التي أقوم بها وحيدا هي أهم اللحظات في حياتي للتأمل ولحل الكثير من المشاكل الشخصية والفكرية ثم كانت عالمي الذي أخذت أنسج فيه البدايات الأولى لقصائدي الشعرية عندما بدأت أكتب الشعر ، كنت أنسج البداية أو يتوارد على وجداني بعض كلماتها وبعض تعابيرها وبعض صورها لأهرع بعد ذلك إلى البيت لكتابتها .

على أن مدرسة الاسماعيلية الثانوية لم تضف إلى حياتي شيئا كثيراً اللهم إلاّ ثلاثة أمور: الأول هو إحساسي بمزيد من حرية الحركة ، كانت هذه المدرسة مدرسة أهلية التحقت بها لعدم قدرة أسرتي على إلحاقي بمدرسة حكومية لارتفاع مصروفاتها - فيما يبدو - عن المدارس الاهلية آنذاك وكنت فيها اتغيب كما أشاء عن الحضور دون ضرورة تقديمْ خطابات اعتذار! . الأمر الثاني هو تعلقي برياضة ثالثة جديدة غير رياضة كرة القدم في أحواش جبل الدراسة وغير السباحة هي لعبة العقلة والمتوازيين في حوش المدرسة وجدت هذين الجهازين وتعلقت بهما

تعلقا شديداً ولم يكن يمر يوم دون أن اقوم ببعض التمرينات عليهما ، وأذكر انني قطعت شوطاً كبيراً فى ذلك ولا أزال حتى اليوم رغم سنى لا أجد متوازيين بالذات حتى اندفع محاولا - بصعوبة طبعاً - ممارسة بعض الحركات القديمة.

وكانت هذه السنة الاولى في مدرسة الاسماعيلية هى سنة ١٩٣٥ وما أدراكم بهذه السنة من الناحية السياسية! بدأت فيها المظاهرات مبكرة وكنا ننتظر أن تقبل علينا مدرسة الخديوية أو نذهب اليها، وكانت المظاهرات حامية ومعادية للمحتل البريطانى بالطبع ولكنها كانت بالذات ضد تصريح للوزير البريطانى هور ، وكنا فى أغلب المظاهرات نسقطه هاتفين: «يسقط هور ابن الطور» وكانت المظاهرات السياسية انطلاقا من مدرسة الاسماعيلية نشطة وميسرة للغاية فقد كانت شبه مندمجة فى هذا الحى الشعبى العريق حى السيدة زينب ولازلت اذكر بأسى عميق ما أتخيله حتى اليوم أننى كنت سببا فى مصرع أحد رجال الشرطة كنا قد علمنا بمصرع الشهيد عبد الحَكم وشهداء آخرين فخرجنا من المدرسة فى مظاهرة كبيرة عالية الهتاف تهتف باسمه وباسم بقية الشهداء وبسقوط هور والانجليز عامة وتصدى لنا كالعادة رجال الشرطة ولست اتذكر أنه كان بينهم بعض الضباط الانجليز الذين كانوا يملئون علينا الشوارع آنذاك فوق أحصنتهم وأخذت أجرى مع من كانوا

يجرون من حولى وفى لحظة رأيت أحد رجال الشرطة يجرى نحوى ويكاد يقترب منى ، وقد رفع نبوته الطويل ويهم باسقاطه فوق أم رأسى ولم أفعل شيئا غير اننى ضاعفت فجأة من سرعتى وسمعت ضربة النبوت على أسفلت الشارع فالتفت خلفى فإذا بى أجد الشرطى قد سقط فوق النبوت منكفئاً بلا حراك! لست أدرى ماذا حدث له؟ ولكنى تصورت أننى مسئول عما حدث وأننى سوف اتهم بقتله وامتلأت رعبا وعجلت من سرعتى وأخذت أجرى حتى كدت أسقط إعياء عندما وصلت أخيراً إلى بيتنا ولا تزال صورة هذا الجندى المنكفى خلفى على وجهه تلوح لى أحيانا وتملئونى بكثير من الحزن ولا تزال الاحداث السياسية فى هذا العام الصاخب حية بشكل أو بآخر فى ذاكرتى.

أول حادث سياسى

ولم أمكث فى مدرسة الإسماعيلية غير عام واحد والتحقت بعد نجاحى فى السنة الأولى فيها بمدرسة الحلمية الثانوية استطاع أخى شوقى بصداقته لأحمد نجيب الهلالى ولعله كان وزيرا للمعارف فى ذلك الوقت فى الوزارة الوفدية استطاع ان يتيح لى الالتحاق بهذه المدرسة بالمجان أو بنصف مصروفات لا أدرى تماما بعد ان قدمنا المسوغات الضرورية لذلك على أنى فى هذه السنة الأولى من وجودى فى المدرسة أو فى بداية السنة الثانية لا أذكر تماما وبرغم نعمة التحاقى بهذه

المدرسة الحكومية بفضل الحكومة الوفدية حدث لى حادث سياسى لعله كان أول حادث سياسى يمسنى بشكل شخصى ، كان قد تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ وكانت المدرسة وفدية شأن كل المدارس فى ذلك الحين . وكان زعيمها شابا وفديا صعيديا - أتذكر هذا من لهجته - ومن صوته الجهورى ولا تزال فى أذنى جملته المختارة التى كان يحولها دائما الى شعار وهى «الوفد عقيدة الأمة» المهم ان طلبة المدرسة أقاموا شبه مظاهرة داخل المدرسة تمهيداً للخروج تعبيراً عن تأييد توقيع معاهدة ١٩٣٦ على أن أربعة أو خمسة تلاميذ فقط فى المدرسة كانوا ضد هذه المعاهدة وكنت من بينهم وأذكر كذلك أنه كان من بينهم الصديق أمين صفوت وكان الدور الاول للمدرسة له ممر وسور خشبى يطل على الحوش الذى كان يحتشد بمظاهرة التأييد وكنا - نحن المعارضين - فى الدرو الأول نطل على مظاهرة الحوش ونتبادل الهتافات المتعارضة وبدأ طلبة المدرسة جميعاً يتحرشون بنا ويحتشدون ويتجهون للصعود إلينا لتصفية الحساب معنا ، إلا أن ناظر المدرسة كان رجلا حكيماً - فيما يبدو - تحايل واستطاع إخراجنا نحن الأربعة أو الخمسة من المدرسة سراً . وأذكر أننى خرجت مع أمين صفوت ورحنا ندور على الأحزاب المختلفة لنتعرف على مواقفها وأمين صفوت بهذه المناسبة هو شقيق الأستاذ جلال كشك وكان من ابرز من سمعتهم من خطباء فى

ذلك العهد على صغر سنه ، وكنت اقارنه بخطيب عظيم كان يملأ وجدانى إبان ذلك وأتابعه فى كل مجال يخطب فيه هو توفيق دياب.

المهم أننى ذهبت مع أمين صفوت إلى حزب الأحرار الدستوريين فقوبلنا مقابلة لم تكن تليق على الأقل بحماسنا ثم ذهبنا إلى اجتماع لبعض شباب الحزب الوطنى فى مكتب أحد المحامين ومازلت أذكر فى هذا الاجتماع اقتراح احد الحاضرين بتكوين حزب جديد باسم «الحزب البازى» وتساءلنا : لماذا هذا الانتماء لهذا الطائر الغريب ... الباز !؟ وفهمنا أن الأمر هو محاولة للتشبه حتى فى الاسم بالحزب النازى حزب هتلر الذى كان اسمه قد أصبح اسطورة ،خاصة بسبب عدائه لعدونا المشترك الانجليز! ومازلت أذكر احتداد أمين صفوت فى هذا الاجتماع ورفضنا ما كان يدور فيه من أفكار ومقترحات دون أن أتذكر تماما أى معالم تفصيلية أو عامة لذلك ، وهكذا خرجنا بعد أن انشققنا منذ أول اجتماع ! إلى أين؟ .. أذكر بعد ذلك عدة انتماءات سياسية عابرة كان لنا زميل فى مدرسة الحلمية لازالت أذكر وجهه وأذكر اسمه كان يدعى الجوهرى وكان يشبه موسولينى وكنا نجتمع معه فى مكان بالقرب من القلعة وكان يأتى دائما متأخرا وكنا نقول. هكذا يفعل الدوتش فى ايطاليا فهو يأتى دائما متأخرا وأظن أن الجوهرى كان منضما إلى القمصان الخضراء التى شكلها آنذاك حزب مصر الفتاة والحق أننى لم

أنضم إليهم ولم أنضم بالطبع إلى القمصان الزرقاء التى شكلها حزب الوفد وإن كنت بعد ذلك فى الاربعينات قد بدأت اقترب من الناحية السياسية الوطنية عامة إلى مجموعة الطليعة الوفدية على أنى أذكر أننى ذهبت كذلك مع أمين صفوت - وإن كنت لا أذكر العام - إلى مقر الإخوان المسلمين فى حى الحلمية والتقينا مع الشيخ حسن البنا واعجبت بهذا اللقاء الغريب فى شخصيته بين طربوشه المدنى ودعوته الدينية ! ولكني لم أشترك في حركة الإخوان المسلمين كان فكرى قد أخذ ينشغل بالفلسفة انشغالا جادا وبفلسفة نيتشه بشكل خاص وكان ذلك بفضل بعض القراءات فى مكتبة أخى شوقى وبفضل مدرس اللغة الفرنسية مسيو دانييل الذى كان يحدثنا عنه رغم نذر الصراع بين هتلر وفرنسا فى هذه السنوات قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ وفى هذه المرحلة شكلت بالفعل مع عدد من الطلبة من مدرسة الحلمية ومن مدارس أخرى مجموعة سرية أطلقنا عليها اسم «المجد الفرعوني»! وكان للمجموعة برنامج أتذكر انه كان مزيجاً من العداء للإنجليز والدعوة للإصلاح والاهتمام بالرياضة ولا أدرى لماذا لا استبقى فى ذاكرتى من هذا البرنامج بشكل محدد إلاّ فقرة أخيرة نؤكد فيها على ضرورة إعداد لقاء كل عام وأن نشرب فى هذا اللقاء شايا ونأكل جاتوها! .

عشقت الشطرنج

على أنى داخل المدرسة كنت قد بدأت اهتم اهتماما
بالشطرنج، وكان ناظر المدرسة من هواة هذه اللعبة فشـ
تشكيل جماعة لها، وأمدنا ببعض المال لشراء أدواتها ولقد ع
اللعبة عشقاً قاتلاً. أخذت أقرأ كل ما وجدته عنها فى دار الكتـ
فى قراءة بعض الكتب الانجليزية عنها وتعلقت بلاعب اسمه إلـ
أجمع كل أدواره وأصبح عندى كراس أسجل فيه الافتتاحيات
والدراسات الخاصة بكل قطعة وبعض الادوار المهمة ومن بـ
الادوار التى لعبتها ولم يقتصر اهتمامى على الشطرنج فى ا
خرجت ألعبه فى مختلف المقاهى التى اشتهرت به كقهوة
العتبة الخضراء وغيرها ، وكان يصاحبنى فى هذا أمين صـ
كان لاعبا ماهرا كما كان يصاحبنى فى ذلك صديق آخر
شاعرا جيدا هو محمود عزمي اسماعيل لازلت اذكر وجهه و
الدمثة أتمني أن يكون حيا فى صحة وعافية وأتمنى ذلك كـ
صفوت الذى انقطعت عنى أخباره منذ فترة بعيدة.

الفلسفة والتأمل الذاتى

المهم إننى فى هذه المرحلة الثانوية وخاصة قرب نهاـ
اهتمامى السياسى يخفت أو رحت أتحرك فيه بشكل هامشـ

وبدأ يزداد اهتمامى بالشعر والفلسفة والشطرنج والتأمل الذاتى . أذكر أننى كرست كشكولا لتأملاتى كان عنوانه «بينى وبين نفسى» مازلت احتفظ به أقرأ فيه أحيانا ما كنت أكتبه فيه فأجد تأثراً كبيراً بابن المقفع وخاصة بأدبه «الكبير» و «الصغير» بل ألمح محاولة لتقليد أسلوبه وأجد تأثيراً كبيراً بالحلاج وملخصاً لبعض القراءات وبرنامجاً لإصلاح نفسى وإصلاح العالم واعترافات باحساس عميق بالعزلة الشديدة داخل أسرتى بل وخارجها . والواقع أنه لم يكن لى فى البداية أصدقاء غير أمين صفوت ومحمود عزمى اسماعيل . حقا لقد قامت مودة كبيرة بينى وبين طالب فى الصف الثالث من المرحلة الثانوية كان مهتما اهتماماً كبيراً بالاختراعات وقام بالفعل باختراع بعض الأجهزة والادوات وكان شابا على درجة عالية من التهذيب والنبل اسمه احمد الشايب كان بيته فى مواجهة القصر الملكى فى عابدين كنت أزوره لنلعب الشطرنج وكنت أحاول تقليده فى الاختراع وأذكر أننى قمت باختراع قفل آلى يغلق ويفتح بغير مفتاح! لا أدرى الآن كيف؟ ولكن لم أواصل هذه الهواية فقد غلب على توجهاتى الجانب النظرى ، ولكن لم تخرج علاقتى مع أحمد الشايب عن هذه المودة العلمية والشطرنجية وأتوقع أن يكون قد بلغ مرتبة عالية فى مجال الاختراع وأتمنى أن اسمع عنه خيرا وعرفت فى الفصل نفسه أمين عز الدين الذى كان يجاورنى فى مقعدى الدراسى

وظلت صداقتنا ممتدة من هذه السنة الثالثة الثانوية حتى اليوم وتحولت في بعض المراحل إلى لقاء فكرى ونضالى ، وأصبح أمين عز الدين بعد ذلك أبرز مؤرخ للحركة النقابية العمالية فى مصر ، أما زميل الدراسة الآخر فهو مصطفى سويف ، لم نكن فى فصل واحد كنت أسبقه فيما يبدو بعام ولكن مازلت أذكر حتى اليوم محاضرة له ألقاها فى مدرسة الحلمية الثانوية باللغة الانجليزية ونحن سعداء أن يقوم تلميذ منا بالحديث باللغة الانجليزية - ولاتزال تعلق بذاكرتى السمعية والعاطفية عبارة له فى هذه المحاضرة هى Our beloved Country لقد اتصلت بعد ذلك مودتنا واهتماماتنا العلمية وأصبح مصطفى سويف اليوم من أبرز علمائنا ومفكرينا فى مجال علم النفس.

نعم كان هناك كل هؤلاء الأصدقاء والزملاء وغيرهم فى هذه المرحلة ولكنى مع ذلك كنت أعيش احساسا عميقا بالوحدة والعزلة وكان الاستغراق فى الشعر والشطرنج والقراءات الفلسفية تعبيراً فكرياً عن هذا الإحساس ومحاولة لتجاوزه.

الجامعة وفى وزارة المعارف

ثم كان انتقال إلى الجامعة وكان من الطبيعى أن اتمسك بالالتحاق بقسم الفلسفة بكلية الآداب متأثرا بقراءاتى فى الفلسفة وتعلقى بنيتشه بالذات وكان أخى شوقى حريصاً أن التحق بقسم اللغة العربية ، كان

العميد آنذاك هو الاستاذ الكبير أحمد أمين وكان صديقاً لأخى كذلك وحاول أن يقنعنى هو نفسه بقسم اللغة العربية ولكنى مع انبهارى بشخصيته وحديثه تمسكت بقسم الفلسفة وفى هذه السنة الاولى من حياتى الجامعية وجدت نفسى أكثر حرية وتفرغا لكتابة الشعر ولعب الشطرنج والاستغراق الذاتى فى التأمل ولم أهتم كثيرا بالدراسة المنتظمة اللهم إلاً بعض الدروس وخاصة محاضرة الدكتور توفيق الطويل كان إنسانا واستاذاً ساحراً فى شخصه الشفاف وحديثه الفصيح الحريرى الجميل . والواقع أننى رسبت فى السنة الاولى رغم نجاحى فى جميع العلوم ! وكان ذلك بسبب نظام إدارى غريب كان هذا النظام يفرض على الطالب ألا يدخل الامتحانات الشفهية وكانت تشمل جميع المواد تقريباً إلا بعد دخوله امتحانات جميع المواد التحريرية! وفى هذه السنة كانت اللغة اللاتينية من أصعب مواد الدراسة علىّ فقررت تأجيلها إلى الملحق لأستعد استعداداً أكبر للامتحان فيها . وكان معنى هذا تأجيل امتحاناتى الشفهية فى جميع المواد الأخرى التى كنت قد نجحت فيها بالفعل ونجحت فى امتحان اللغة اللاتينية فى الملحق أو ما كنا نسميه بالدور الثانى الذى ينعقد فى مطلع العام الجديد ، ولكنى للأسف رسبت فى مادة أو أكثر فى الامتحانات الشفهية فما اهتممت اهتماما كافيا بمراجعة موادها إذ كنت مطمئناالى معرفتى بها بدليل

نجاحى فى امتحاناتها التحريرية من قبل ، والمفارقة الغريبة أننى رسبت فى امتحان الفلسفة فى هذه الامتحانات الشفهية . حضرت هذا الامتحان شبه نائم من ارهاق السهر طوال الليل محاولا تحصيل المقرر كله وكان الدكتور عبد الرحمن بدوى - فيما أذكر جيداً - فى لجنة الامتحان وما أعتقد أنه اغتفر لى ذلك ابدا بطبيعته النيتشويه الصارمة! المهم رسبت فى السنة الأولى وأذكر أن الاستاذ أحمد أمين انزعج لهذا جداً وسارع الى تغيير هذا النظام الإدارى للامتحانات الشفهية وكان من الصعب بعد ذلك ان اواصل دراستى الجامعية لولا أن أختى عائشة أصرت على ذلك وكانت مستعدة أن تبيع «مصاغها» من أجل ان اواصل الدراسة وكان الحل أن أعمل وأن أواصل الدراسة فى الوقت نفسه وهكذا التحقت بعمل كتابى بديوان وزارة المعارف (آنذاك) انتقلت بعده الى العمل أمينا للمخازن ثم سكرتيراً لمدرسة الأورمان الابتدائية لأكون قريباً من الجامعة ولأتمكن من مواصلة الدراسة إلا أن ناظر المدرسة عندما علم بأنى طالب فى كلية الآداب وأننى أذهب أحيانا لأحضر بعض الدروس منعنى من ذلك ولهذا حاولت ونجحت فى إيجاد عمل داخل الكلية نفسها وذلك بعمل بدل بينى وبين أحد موظفيها إلا أن عملي داخل الكلية كموظف كتابى كاد يحرمنى تماما من حضور أى محاضرة بل كاد يفصلنى منها! ذلك أن الموظف الذى أخذت مكانه كان طالبا بها

كذلك ولكنه استغل عمله بها وسرق بعض الامتحانات وخشية أن استغل عملي في الكلية فأكرر ما فعله . طلب مني عميد الكلية وهو آنذاك الدكتور حسن ابراهيم حسن أن ابحث لي عن عمل خارج الكلية وإلا سيضطر لفصلي على أن امتنع نهائيا عن حضور أي محاضرة . وبعد فترة توطدت الثقة بي وواصلت وجودي في الكلية مع استمرار شرط عدم حضور المحاضرات أثناء العمل الرسمي وقد ساعدني ذلك تماما في الاعتماد أساسا على المراجع والقراءة الخاصة الشخصية في المواد المختلفة وفي الحرص على تجويد الأبحاث التي كان يكلف بها الطالب وقامت علاقة شخصية بيني وبين اساتذة الكلية عامة وأساتذة قسم الفلسفة بوجه خاص ، وفي مقدمتهم الاستاذ الجليل يوسف مراد الذي كان له أكبر الأثر في توجيهي العلمي . والغريب أن أقرب الناس إلى فكري في هذه المرحلة وهو الدكتور عبد الرحمن بدوي كان أبعد الناس عني لطبيعته الشخصية التي كانت تتسم بالصرامة والتعالي النيتشوي! وتعمقت علاقتي بأستاذ آخر من قسم اللغة الانجليزية كان قادما لتوه من انجلترا هو الدكتور لويس عوض وقد جمعني مع لويس عوض في البداية أمران: الموسيقى الكلاسيكية والشعر اشتركت معه في تأسيس جمعية الجراموفون التي كنا نقيم جلساتها في نادي الكلية ، ويحضرها العديد من اساتذة مختلف كليات الجامعة مازلت أذكر منهم العالم

المصرى الجليل الدكتور مصطفى مشرفة كما كان يحضر بعض المثقفين من خارج الجامعة ، ولعل هذه كانت المناسبة التى تعرفت فيها على الأديب والفنان العزيز عبدالرحمن الخميسى على أن علاقتى بلويس عوض توثقت كذلك عندما قرأت له بعض شعرى الذى تحمس له وقام بترجمة قصيدة طويلة منه إلى الانجليزية ثم توثقت علاقتى الفكرية به بعد ذلك عندما أخذت اقترب من الفكر الاشتراكى العلمى . والواقع أننى فى هذه المرحلة الجامعية كنت أتراوح فكرياً بين نيتشوية ووجودية عبدالرحمن بدوى واشتراكية لويس عوض والغريب أننى كنت أرى فى وجودية عبدالرحمن بدوى - وخاصة بعد أن طبع رسالته عن الزمان الوجودى - انها وجودية مغدورة ذلك لانه صبها فى قوالب ومقولات تجمد - فى رأيى آنذاك - طبيعتها الوجودية وكان يشاركنى هذا الرأى صديق العمر فى هذه المرحلة الجامعية وهو عباس أحمد المفكر والقصاص والروائى والإذاعى والتلفزيونى الكبير الذى لم يأخذ حتى اليوم حقه من التقدير . وأذكر أننا قرأنا معا رسالة الدكتور بدوى وامتلأنا غضبا عليه وقررنا الذهاب اليه لمحاسبته ومحاكمته فى بيته ولحسن الحظ انه لم يقابلنا عندما ذهبنا إليه فقد كنا فى حالة من الهياج الفكرى والنفسى وخاصة بعد أن شربنا نصف «فياسكة» من النبيذ استعداداً للقائنا به! وأذكر أننا ذهبنا بعد ذلك إلى صديقنا «فرحات

توما» فى بيته بالجيزة لنحكى له صدمتنا وفجيعتنا الفكرية فى عبدالرحمن بدوى! والواقع أن القضية الفلسفية كانت آنذاك - قضيتنا الحياتية الحميمة وإذا كان هذا هو موقفى آنذاك من وجودية عبد الرحمن بدوى فقد كان موقفى مشابها من اشتراكية لويس عوض ، كنت آراها اشتراكية ملتبسة غير علمية رغم اننى لم أكن اشتراكيا فى فترة الدراسة الجامعية بل كنت مختلفاً فلسفياً مع الماركسية وأقرب سياسيا إلى النشاط الوطنى الديمقراطى عامة على أن الدكتور يوسف مراد بمنهجه التكاملى واستاذيته الرفيعة كان يتيح لى قدرا من التوازن الفكرى بين وجودية بدوى ، واشتراكية لويس عوض ، وحول الدكتور يوسف مراد تحلقت مجموعة من طلبة قسم الفلسفة كان منهم مصطفى سويف ويوسف الشارونى ومحمد جعفر وبدر الديب وعباس أحمد وبهيج نصار وأنا ومن معطف يوسف مراد تشكلت بيننا ملامح مشتركة ونضجت فى الوقت نفسه ملامح مختلفة متمايزة وتفرقت بيننا بعد ذلك السبل الايديولوجية والعملية وإن ظلت بيننا مودة من أغنى كنوز الحياة على أنه خارج هذه المجموعة قامت صداقة نادرة أخرى بينى وبين طالب سورى فى قسم الفلسفة هو سامى الدروبى وكان لسامى الدروبى بشخصيته النورانية البالغة الشفافية والصدق وثقافته العميقة فضل تفتحى على الحركة القومية العربية . وبرغم ما كان بيننا من اختلاف

حول منهجها في حوارنا المشترك الحميم الذى لم ينقطع حتى آخر أيامه فقد ظل سامى الدروبى ولا يزال أعز الأصدقاء وأقربهم إلى نفسى.

أنا والواقع السياسى

ما أكثر ما يقال عن هذه المرحلة مرحلة الأربعينات وعن كل ما كان يزخر فيها من أحداث وأفكار وعلاقات شخصية وعامة فى بدايتها كنت أقرب إلى الفكر المثالى بل الصوفى ، كانت لى شطحات مع هيجل بوجه خاص ونيتشة وبرجسون والحلاج . وأذكر أننى ألقيت محاضرة فى الجمعية الفلسفية فى كلية الآداب آنذاك بعنوان «اللامعقول فى الطبيعة والفن» دافعت فيها دفاعا مجيداً عن اللامعقول ثم ساهمت فى إصدار مجلة بعنوان «البشير» صدر منها أربعة أعداد أو خمسة كانت افتتاحيتها بالذات التى كتبتها دعوة إلى التمرد العدمى المطلق على كل تحديد ، انطلاقا من رؤية مثالية للعلوم الطبيعية نفسها . على انى فى الوقت نفسه كنت اشترك فى المظاهرات السياسية والاجتماعية طوال فترة الاربعينات بروح نقدية رافضة للأوضاع القائمة ويغلب عليها الطابع الوطنى الديمقراطى مع اختلافى مع الفكر الماركسى وإن كنت أنسج فى الوقت نفسه علاقات فكرية حميمة مع العديد من الماركسيين أخص منهم بالذكر الشهيد عبد الخالق محجوب والزميل التيجانى الطيب اللذين كانا طالبين بقسم اللغة الإنجليزية ، ولهذا سجلت رسالة

ماچستير فى الفلسفة عندما تخرجت فى القسم موضوعها «المصادفة فى الفيزياء الحديثة ودلالتها الفلسفية» محاولا بها أن أنفى الاساس الموضوعى لعلم الطبيعة بالذات وأن أؤكد جذره المثالى الذاتى وفى الوقت نفسه كنت اشترك اشتراكا عمليا فى حركة ١٩٤٦ «لجنة الطلبة والعمال»، وكنا قد رشحنا عباس أحمد ممثلاً لقسم الفلسفة فى هذه اللجنة وأذكر أنه فى هذه الايام العاصفة من عام ١٩٤٦ بحث عنى سكرتير الكلية لأقوم ببعض الأعمال الإدارية التى كنت لا أزال مسئولاً عنها فلم يجدنى واكتشف غيابى فى مظاهرات هذه الأيام فأوقع علىّ عقوبة إدارية كنت ممزقا فى هذه الفترة بين اتجاهات وارتباطات وأنشطة شتى كنت التقى بيوسف مراد الذى كان مشرفا على رسالتى والتقى بلويس عوض ورمسيس يونان وجورج حنين فى المجلة الجديدة التى تركها سلامه موسى لرمسيس يونان ليشرف عليها فى هذه الفترة وكنت أحرص على حضور محاضرات سلامه موسى فى جمعية الشبان المسيحيين . وأذكر لقاء مع علال الفاسى والشيخ أمين الحسينى وصالح حرب وغيرهم حول قضية فلسطين فى جمعية الشبان المسلمين . وأذكر حوارات سياسية واقتصادية ذات توجه ماركسى فى دار البحوث العلمية قبل لقائى بعد ذلك بأنور عبدالملك وشهدى عطيه الشافعى على انى لا انسى أبدا زيارة قام بها ثلاثتنا يوسف الشارونى ومصطفى

سويف وأنا للدكتور طه حسين ذهبنا لأقرا له شعرى ويقدم الشارونى حصيلته من القصص ومصطفى سويف عمله العلمى فى مجال علم النفس ، ولكن طه حسين سرعان ما تحول بنا من هذه الاهتمامات الادبية والعلمية ليسألنا عن موقفنا من الواقع السياسى السائد وكانت حركة الإخوان المسلمين قد أخذت تبرز وتسعى لفرض فكرها بل حركتها على الشارع المصرى آنذاك وكنا بالطبع فى الجانب المعارض لهذه الحركة وقد أحسسنا من طه حسين رضا عن ذلك ثم فاجأنى بقوله ناقداً لنا بما معناه «إنكم تتبنون أفكاراً جيدة ، لكنكم لا تعرفون ولا تدرسون التكتيك والاستراتيجية الثورية التى تتيح لكم تحقيق هذه الافكار» ولعلى ذكرت هذا فى مقال قديم لى عن طه حسين وقد خرجنا من عنده مذهولين بهذا الوعى السياسى العملى! وفى هذه المرحلة جاء استاذ فرنسى زائر لقسم الفلسفة هوجان جرنييه وكان استاذاً للمفكر والأديب الفرنسى كامو ورغم انى آنذاك كنت قريبا منه فكرياً ولكنى اختلفت معه كثيراً ثم جاء بعده استاذ فرنسى آخر زائر هو ادوار موروسير وهو هيجلى النزعة وله كتاب فكرى مهم يقوم على اساس مفهوم النفى وقد اقتربت كثيراً منه وأسعدنى وجوده الفكرى خلال فترة كتابتى لرسالتى العلمية التى أصبح مشرفا عليها مع الدكتور يوسف مراد.

وكنت فى هذه الفترة قد انتقلت من موظف إدارى فى كلية الآداب،

إلى امين مكتبة قسم الجغرافيا ثم إلى مترجم ومنظم محاضرات بالكلية، وأخذت انقطع تماما للإنتهاء من رسالتي العلمية، وعندما كنت اكتب في فصولها الاخيرة حول بعض الاتجاهات الابستمولوجية «المعرفية» في القرن التاسع عشر في انجلترا وفرنسا وألمانيا، وقع في يدي كتاب يعرض لهذه المرحلة عرضا نقديا، وحرصت على ان اتوقف عنده استكمالا لمراجعي . وكان الكتاب هو «المادية والنقد التجريبي» لفلاديمير إيلتش لينين. وما ان انتهيت من قراءة هذا الكتاب، ومن كتاب آخر قادني إليه هو «جدل الطبيعة» لفريدرك انجلز، حتى تزلزلت كثير من افكاري التي كنت اعرضها في رسالتي العلمية، بل حسمت بعض القضايا التي كانت ضبابية قلقة في رأسي ، وهكذا قمت بتغيير عنوان رسالتي من نظرية المصادفة في الفيزياء الحديثة إلى نظرية المصادفة الموضوعية في الفيزياء الحديثة، وبدأت أعيد كتابة العديد من فصول الرسالة على أساس من رؤية موضوعية للعلم.. وهكذا بدلا من ان اقدم رسالتي بعد بضعة اشهر أخذت مني سنتين أو ثلاث سنوات أخرى لاستكمالها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد.

بل تحولت عن الرؤية الفلسفية المثالية إلى الرؤية المادية الجدلية، والى الاشتراكية العلمية ، وأخذت اقترب بحماس فكرى من بعض التنظيمات الماركسية السرية، وانتهى بي الأمر إلى الانضمام إلى

إحداها، والمشاركة فى نشاطها، وانتهيت من رسالتى العلمية التى تضمنت هذا التوجه الفكرى الجديد، وإن حاولت إخفاءه باستخدام بعض المصطلحات الملتبسة،، فبدلا من كلمة الجدلية مثلا كنت استخدم كلمة «التكميلية» على مابين الكلمتين من اختلاف وحصلت على درجة الماجستير ، وعلى جائزة الشيخ مصطفى عبدالرازق للفلسفة تقديرا لهذه الرسالة، وعينت مدرسا مساعداً لمادة المنطق وفلسفة العلوم بقسم الفلسفة بالكلية، وقمت بتسجيل رسالة للدكتوراه اواصل بها دراسة موضوع الضرورة ـ الوجه الآخر للمصادفة ـ فى العلوم الانسانية، بعد دراستها فى الفيزياء فى رسالة الماجستير، وكان العام وهو عام ١٩٥٤ كنت قد تزوجت عام ١٩٥٢ من طالبة فى قسم اللغة الانجليزية كانت تواظب على حضور جلسات الموسيقى الكلاسيكية التى كنت اعقدها كل اسبوع هى سميرة الكيلانى ، واصبحت لنا فى عام ١٩٥٤ طفلة جميلة، وامتلأت حياتى بمشروعين كبيرين ، هما مشروع فلسفى علمى لستكمل به بحثى السابق، ومشروع سياسى نضالى أحقق به علميا رؤيتى الفكرية الجديدة.

وكنت فى عام ١٩٥٤ اختلف اختلافا كبيرا حاداً مع النظام الناصرى بعد ان كنت قد أيدته تأييدا متحفظا مشروطا فى بدايته عام ١٩٥٢ .. وكانت قضية الديمقراطية والعلاقة مع الامريكان هى نقطة الاختلاف الاساسية حينذاك معه.

قرار بالفصل من الجامعة

وفى عصر يوم من أيام صيف ١٩٥٤ اتصلت بى كلية الآداب، وطلب مني سكرتيرها ان احضر فورا لمقابلة عميدها الدكتور يحيي الخشاب، ولبست ملابسي وذهبت مسرعا الى غرفة السيد العميد.. ومنذ الوهلة الأولى احسست بشيء غير عادى . وجدت معه الدكتور لويس عوض وكانا ينتظرانني فى صمت غامض، ثم مالبث الدكتور الخشاب ان ابلغنا بحزن عميق وتأثر صادق ان هناك قرارا بفصلنا من الكلية.. وشكرنا مشاعره الدكتور لويس عوض وانا، بل اخذنا نخفف عنه الامر وخرجنا.

وأتذكر الآن الطريق الطويل الذى اخذنا نقطعه بتمهل لويس عوض وانا، من كلية الآداب ـ جامعة القاهرة الى ميدان الجيزة، من ساحة الجامعة التى كانت فارغة فى هذه المرحلة من الصيف وفى فترة بعد الظهر، إلى ميدان الجيزة الزاخر بالناس والحركة، ما تكلمنا كثيرا لاشك ان حزنا ذاتيا كان يملأ قلبينا .. بل كنت احس شخصيا بأن حلمى بالمشروع الفلسفى قد أخذ يتلاشى ، واشعر بتهديد غامض لمستقبل ابنتى الوليدة.. ولكنى اتذكر اننا ونحن نفترق لويس عوض وانا، قلنا معا شيئا واحدا واتفقنا عليه معا، بوضوح وحسم. سوف نغيب عن ساحة الجامعة ، ولكن لاينبغى أن نغيب ابدا عن هذه الساحة التى نمضى

نحوها، ساحة شعبنا ، بلادنا ساحة مصر كلها. سنواصل فيها الرسالة التى يؤمن بها كل منا.

وواصل لويس عوض مسيرته المضيئة الشريفة التى لاتزال رغم وفاته تنبض في وجدان شعبنا وثقافتنا العربية بفعلها التنويرى.

أما أنا ، فمازلت فى الطريق العاصف الذى بدأته منذ تلك السنوات البعيدة ، أتحرك فى مساراته السياسية والفكرية والأدبية قدر طاقتى، ومازلت اتعلم واحاول ان اتكون واتجدد كل يوم، وان اكون نافعا للناس وللثقافة.

وأتمنى عندما تقترب ساعة الذهاب الأخير، ان اكون قادرا على أن اقول ما قاله الفيلسوف كانط وهو على فراش الموت يتأمل حياته هذا حسن، ولكن.. هيهات لى أن ابلغ هذه المرتبة الرفيعة.

محمد سيد أحمد

برغم تفوقى ظلت معرفتى للغة العربيــــة قاصرة !

كان والدى يزعجه كثيرا ، وقد بلغت سن العاشرة ، أننى لم أكن قادرا على التكلم باللغة العربية .. فلقد ربتنى «دادا» اسكوتلاندية .. ولأن المظاهرات عمت المدارس عام ١٩٣٥ ، تقرر أن أذهب إلى مدرسة فرنسية ، هى «الليسيه فرانسيه» بباب اللوق .. وفى عام ١٩٣٨ ، عين والدى محافظا لبور سعيد . فواصلت الدراسة بمدرسة «الليسيه» هناك . ولم تكن مصادفة أن «الليسيه» كانت أفضل مدارس بورسعيد ، ذلك أن الجالية الفرنسية كانت تضم الكثير من كبار القوم ، بعضهم من بقايا الارستقراطية المنقرضة .. فان «شركة قناة السويس العالمية» وكان يديرها فرنسيون كان يتقاضى كبار العاملين بها مرتبات سخية .. وكان كبار موظفى الشركة يتمتعون بامتيازات كثيرة ، دون أن يطالبوا بعمل

جاد ! .. ولذلك خصصت هذه الوظائف لعائلات تنحدر من البرجوازية الكبيرة الفرنسية وحتى من الارستقراطية القديمة السابقة على الثورة ..

وهكذا وجدت نفسى أجيد التحدث بالانجليزية والفرنسية .. ثم أخذت أنسى الانجليزية ، بسبب التحاقى بمدرسة فرنسية ، وبسبب أنها اللغة التى كانت تتقنها والدتى .. وأصبح هذا كله سببا لانزعاج والدى ، لتخلفى الشديد فى تعلم لغة بلدى !

وكان يزورنا فى بورسعيد شيخ يرتدى جلبابا أخضر أو أصفر أو بنفسجيا (!!) - «الشيخ رزق» على ما أذكر - ليحفظنا ، أنا وإخوتى ، بعض آيات القرآن .. وليباشر معنا قدرا من المطالعة باللغة العربية .. وكان الشيخ أكثر حرصا على التردد على سراى المحافظ منه حرصا على تعليمنا .. ولم نكن نستفيد من دروسه كثيرا .. وقد بدأت فى عمر الثانية عشرة اتطلع إلى تأليف كتب (!!) على غرار تلك التى كنت أقرؤها .. وكان «لجول فيرن» كتاب شهير بعنوان «تجوال حول العالم فى ٨٠ يوما» . فقررت تأليف كتاب بعنوان «تجوال حول العالم فى ٦٠ يوما» ! . ولم أكن أدرك أن «جول فيرن» كان قد ألف كتابه قبلى بقرن ، وأن التجوال حول العالم فى ٨٠ يوما وقتذاك كان معجزة ، ولم يعد ذلك شأن التجوال حوله فى ٦٠ يوما فى منتصف القرن العشرين !.. وكنت بوجه عام ، طالبا نجيبا . وكنت متفوقا باستمرار .

وكان بعض التلاميذ يتصورون أن تفوقي مجاملة لوالدي المحافظ .. ولكن ثبت لهم فيما بعد أن منصب والدي لم يكن له أي اعتبار في هذا الصدد ..

مشكلتي مع اللغة العربية

وفي عام ١٩٤٢ ، عدنا إلى القاهرة وواصلت الدراسة «بالليسيه فرانسيه» بباب اللوق .. ولكن تقرر أن انتظم في القسم العربي بالليسيه وهو القسم الذي كانت تجري الدراسة فيه حسب برامج المدارس المصرية ، وكانت تفضي إلى ما يقابل الآن الثانوية العامة .. وقد ركزت جهودي على تعلم اللغة العربية . وقد نجحت بتفوق في امتحان «التوجيهية» وأصبحت رابع القطر ، مع تقدمي في العام ذاته لامتحان البكالوريا الفرنسية وحصولي على أعلى الدرجات .. ولكن ظلت معرفتي للغة العربية قاصرة .. وما زال كلامي باللغة العربية الدارجة تعيبه لكنة ، لأني لم اتعلمه على صغر .

وأذكر أن هذه مشكلة عقدتني .. وأذكر ذات يوم أن والدي كان قد دعا لمأدبة غداء الأستاذ محمود عزمي ، المفكر والكاتب وممثل مصر - في وقت لاحق لهذا اللقاء - بالأمم المتحدة . وكانت زوجته الروسية معه .. كان ذلك قدر ما أذكر - قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية .. ورحت أصارحهما ، ولا أدري لماذا ، بهمومي وشعوري بأنني غريب في

بلدى .. وانني أتقن اللغة الفرنسية ، بل إنني أنظم الشعر بالفرنسية ، وأنا لا أكاد أعرف لغتي .. وأذكر أن السيدة زوجة الأستاذ محمود عزمي قد دعتني بعد ذلك لحفل شاى عندها برفقة «نيفين» بنت رئيس الوزراء الأسبق حسين باشا سرى .. لتفتح معنا حديثا فيما تصورته هى مسائل نعلم عنها الكثير ، والحقيقة أننى لم أكن أعلم عنها ما تصورت .. فلقد خرجت نيفين من الزيارة وكانت تتقن العزف على البيانو بكتاب عن تشايكوفسكى .. وخرجت أنا بكتاب عن لينين ! .

توجهى نحو الماركسية

وكان الأمر بالنسبة لي – وقتذاك – غريبا ومثيرا . فكنت أسمع الكثير من الاتحاد السوفييتى بسبب انجازاته فى الحرب العالمية الثانية ، وبالذات وقت معركة ستالينجراد .. وكانت هذه المعركة موضوع خناقات حادة فى العائلة .. كانت بنات عمتى وهن فى سن والدتى – بنات اسماعيل باشا صدقى – يدافعن بحرارة عن هتلر .. وكان والدى الذى كان يؤيد بريطانيا يغيظهن بالتهكم على هزائم قوات هتلر فى ستالينجراد .. ومع متابعتى لانجازات روسيا وقت الحرب ، ظل اسم لينين غامضا فى ذهنى .. وكان كتاب مدام عزمى أول تنبيه لى بمن هو .. والواقع أننى لم أتعلم اللغة العربية إلا نتيجة توجهى فيما بعد نحو الماركسية ، وانغماسى فى الحركة السياسية .. عندئذ فقط . وبفضل تعاملى مع فئات مختلفة من الشعب تعلمتها .

والغريب أن الذى وجهنى هذا التوجه الماركسى كان أستاذا فرنسيا .. كان علىّ أن أتلقى دروسا خصوصية كى استطيع دخول امتحان البكالوريا الفرنسية بينما كنت أتابع فى الفصل مقررات البكالوريا المصرية .. وكان لى أستاذ أتلقى منه هذه الدروس فى الأدب الفرنسى والفلسفة .. كان يدعى «رينيه جرانييه» .. كان له الفضل فى إعدادى للبكالوريا الفرنسية . وكان له أيضا الفضل فى تلقينى «النهج الماركسى» دون أن أدرك أن ما كنت أتعلمه منه «ماركسية» .

وأذكر أنه قد طلب منا في موضوع الإنشاء الذى طرح علينا فى امتحان البكالوريا الفرنسية أن نعلق على السؤال : «هل الأدب يكتب بالقلب أم بالعقل ؟» .. وكانت إجابتى أن الأمر تحكمه فى النهاية الظروف الاجتماعية .. ففى عصر الكلاسيكية ، كان الأدب يكتب بالعقل لفرط إلتزام الكلاسيكيين بالعقلانية ، وأوردت أسبابا فسرت ما سقته فى هذا الصدد .. ثم فى عصر الرومانسية ، كان الأدب يكتب بالقلب ، وعددت الأسباب التى أوجدت هذه الظاهرة فى أعقاب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية .. ولم يعجب الأستاذ المصحح «نهجى» فى معالجة الموضوع .. وربما اعتبر ما كتبته منشورا شيوعيا وأنا لا أعلم ! .. وسألنى فى الامتحان الشفهى : «هل أنت الذى كتب كذا وكذا ؟ .. قلت بكل براءة : «نعم» قال : «كنت أريد أن أعطيك ٢ من ٢٠ لأن ما كتبته

خارج الموضوع تماما .. ولكن لأنك ملم بمعلومات كثيرة ، وأنك من حيث المعلومات تستحق ١٨ من ٢٠ .. فأعطيتك المتوسط ١٠ من ٢٠» .. ومع ذلك استطعت بفضل المواد الأخرى ، وبالذات الرياضيات والفيزياء ، تعويض هذه الدرجة السيئة ، وظللت أول الدفعة .. ولكن ما لم أكن أدركه أن موضوع الانشاء قد كتبته من منطلق ماركسى دون قصد ولا معرفة ! .. وربما اعتقد الاستاذ المصحح أننى أعلم وأننى أتحدى .. وقد يكون أنه كان من أعداء الشيوعية الألداء وأراد معاقبتى .

طموح موسوعى

وهكذا يتضح أننى كنت حتى عام ١٩٤٦ أعيش فى عالم يبتعد كثيرا عن محيطى المصرى .. ومازلت أتساءل : هل انطوى ذلك على سلبيات فقط ؟

فلقد أفسحت لى فرصة التعرف على ثقافات أخرى ، ورؤى أخرى .. ونشأ لدى طموح ، حتى قبل معرفتى بالماركسية ، بأن أكون ملما بكل ما هو وارد أن يلم به إنسان ! .. كان لى طموح موسوعى .. وكنت أعتقد أن هذا ممكن .. وقد مرت على سنوات كثيرة قبل أن أدرك أن الانسان ليس عليه «أن يعلم» بل أن «يعلم كيف يعلم» .. وأن القضية قضية «نهج» قبل أن تكون قضية «تخزين معلومات» .

وهكذا فإن ظروفا قد هيأتنى كى أصبح ماركسيا دون اقتران ذلك

بشعور بالانتماء إلى واقع شعبى وما أصابه من فقر ووهن وظروف بالغة السوء ! .. من هذه الظروف إعجابى بأدباء المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى فى السنوات الأخيرة من الحرب وبالذات بالشاعرين «أراجون» و «إلوار» .. وقد كان العديد من أدباء فرنسا وقتذاك شيوعيين .

وكما سبق وأشرت فى مقالات نشرتها فى مجالات أخرى – وربما بالذات مقال لى بمجلة «الهلال» منذ أعوام بعنوان «اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية والصراع العربى الاسرائيلى» ، وأيضا مقال نشرته مؤخرا فى نوفمبر الماضى بمجلة «القاهرة» عن «مستقبل الماركسية فى مصر» – أشرت فى هذه المقالات إلى أنه كان للجالية اليهودية فى مصر دور بارز فى الحركة الماركسية فى حقبة الأربعينات وكان الكثير من تلامذة «الليسيه» من أبناء هذه الجالية . وكان لى بالبداهة زملاء وأصدقاء بين هؤلاء ومنظمة «إسكرا» الشيوعية ، التى نشطت فى مصر وقتذاك ، ضمت فى مراكزها القيادية ما لا يقل عن ٢٠٠ يهودى ، وهكذا وجدت نفسى وقد انتقلت من بيئة ارستقراطية مصرية بثقافتها «العالمية» COSMOPOLITAN (الفرنسية بالذات) إلى ثقافة أخرى انتسبت إلى فرنسا لدرجة أو أخرى وكانت أيضا تنسب نفسها إلى الحركة التقدمية المصرية ، فضلا عن الدور المحورى الذى نهض به أستاذى «رينيه جرانييه» فى سنوات التكوين ..

أذكر أنني قلت لـ «جرانييه» ذات يوم أنني علمت بأن هناك مركزا للنشاط الماركسي بشارع الدواوين قرب ميدان لاظوغلي .. كان المركز معروفا وقتذاك «بدار الأبحاث العلمية» .. وكان يلتقي فيه عدد كبير ممن أصبحوا فيما بعد اقطاب الحركة اليسارية في مصر .. أجاب «جرانييه» بقوله لي : «حيرتني كثيرا ! .. فانني لم أكن أريد أن تتجه هذا الاتجاه .. ذلك أن لك ما يهيئك - فكريا ووجدانيا - كي تصبح ماركسيا .. ولكن ظروفك الاجتماعية عقبة في وجه هذا التحول .. ولذلك أخفيت عنك كل شيء بشأن هذه الدار» .

وليس من شك في أنه كان لـ «جرانييه» هذه الشخصية الجذابة الكاريزمية ، دور عظيم في تكويني ، وربما في تكوين كثيرين غيري في مصر .. وللأسف بعد ارتباطي بالحركة الماركسية المصرية ، وارتباطي بالذات - في نهاية الاربعينات - بتنظيم متطرف داخلها عرف بـ «م . ش . م» (المنظمة الشيوعية المصرية) ، ألح قادة هذا التنظيم على ألا تكون لي صلة بـ «جرانييه» قط .. وتحججوا بحجة «الأمان» في سنوات الأحكام العرفية إثر اندلاع حرب فلسطين الأولى كي أنقطع عنه .. وظل «جرانييه» في مصر حتى حرب ١٩٥٦ .. ثم سافر مثل غيره من الفرنسيين الذين توطنوا في مصر طويلا واعتبروها وطنهم الثاني .. ولم يعد إلى مصر مرة أخرى .. ولم أره بعد ذلك

إطلاقا .. وقد وصلنى منه خطاب فى يوم ما قال فيه إنه كان قد سمعنى فى الاذاعة ذات مرة وعرف منى كيف ينطق اسم الزعيم الليبى «القذافى» فكان ذلك آخر اتصال بيننا .. وقد علمت بعد ذلك من صديق حميم آخر له هو الدكتور أنور عبد الملك أن «جرانييه» كان قد توفى فى مونبلييه بجنوب فرنسا ..

ومع إحاطتى علما برحيله ، شعرت بأن سنوات التكوين فى عمرى قد طويت صفحتها نهائيا ..

دكتور محمد رجب البيومى

كانت القريــــة تغرس الفضيلة والحب والاحترام

حين أتحدث عن التكوين أرجع إلى الماضى البعيد منذ كنت طفلا أتأمل مظاهر الوجود فى روعة واندهاش، ولكن هل أستطيع أن أكون ذاكراً لهذه الأصداء البعيدة بحيث لا أتزيد أو أقتضب؟ إن الإنسان ليتحدث عن الأمس القريب فلا يستطيع أن يسجل أحداثه على وجه التحديد، فكيف بالماضى البعيد؟ ثم إلى أى مدى يقف زمان التكوين وفى كل لحظة تجد يضيف المرء إلى كيانه مالم يحط علما به من قبل؛ أفيمتد التكوين إذن إلى نهاية الحياة، أم أن هناك اصطلاحا عرفيا بأن التكوين هو ما يؤسس اللبنات القوية فى الدور الأول من المنزل، إذا قدر للمنزل أن يرتفع إلى عدة أدوار؟ خير لى أن أسترسل مع ذكرياتى دون

تحديد، فإذا تحدثت عن اليوم فهو ثمرة الأمس، والبذرة تأتي بالثمرة، وإذن فلا انفصال.

حين نشأت في القرية الصغيرة بمحافظة الدقهلية «الكفر الجديد» كان كل شئ فيها يعبق بأريج الايمان فالمسجد هو المكان الجامع، وشيخ المسجد صاحب القدوة والامتثال، والمناسبات الدينية كالهجرة والمولد والإسراء ورمضان ترسل البسمات الوضيئة في الوجوه الراضية ، كانت القرية مغرس الفضيلة والحب والتراحم إذ لا تباع فيها الفاكهة والخضراوات والألبان بل تهدى إهداء لكل طالب، والفتاة هي بيضة الخدر لا يستطيع أحد أقربائها أن يبادلها الحديث في الطريق، أما الآن فقد انتشر الفيديو وتجمع حوله الجيران يرون ويسمعون ما يفزع، ونشز الولد على أبيه، وجاهرت الزوجة صاحبها بالتمرد، واختفت البسمة المشرقة من الوجوه القانعة ليسيطر جدول الضرب بماديته الصماء.

في ذلك الزمن البعيد، وأنا في سن الخامسة ، كنت أفطن إلى صرير الباب قبيل الفجر، فأعلم أن والدي قد تأهب للذهاب للمسجد، وأبصر والدتي تقوم فتتوضأ وتصلي، فأقول لها أريد أن أصنع ما تصنعين فتقول: كلا، أنت ولد فاذهب مع أبيك، ولا أنسى فرحتي حين وجدت المسجد الريفي آهلا، والصغار مثلي يصحبون آباءهم، وصوت

القرآن يرتل فى خشوع، فإذا انتهت الصلاة رجع والدى مع نفر من أصحابه ليجلسوا فى فرجة المنزل يتحدثون حتى مشرق الصبح، ولم أنس أيضا أن والدى اصطحب ذات صباح شيخا مهيبا، أخذ يخاطبه فى إجلال - وحين جاء إلى المنزل لم يجلس معه فى الفناء، بل اصطحبه إلى حجرة الضيوف، هكذا كانت تسمى، ولم أفهم سر هذا الاحتفاء، فقلت لوالدتى من القادم؟ فقالت فى فرحة، واعظ المركز يابنى؟ وكان الرجل مهيبا بلحيته البيضاء، وعمامته العالية، ومسبحته التى لا ينقطع دورها بين أصابعه، وقفطانه اللامع، وما فوق القفطان من جبة وعباءة وشال!! وعلمت بعد حين أنه سيقضى بين متنازعين ويصدر الحكم فيقع موقع القبول دون خلاف، إذ هو القاضى العرفى بالريف الذى يعلو صوته على قضاء المحكمة نفسها، وتم الصلح عن تراض فتعانق الخصوم، ورأى أبى حيرتى فيما أرى وأسمع. فقال لى، ستدخل الأزهر إن شاء الله يا بنى وعليك أن تجتهد لتكون مثل هذا الرجل بإذن الله، لقد رأيت لك رؤيا صالحة، والله معك.

كان الأزهر لعهدنا لا يقبل أن تكون سن الطالب أقل من اثنتى عشرة سنة ليتمكن من حفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق، وقد حفظته فى سن العاشرة، وبقيت سنتان حفظت فيهما متون العلم فى الفقه والنحو والتجويد، مع ديوان حافظ ابراهيم الذى اختاره أبى مع قصائد من

كتاب (جواهر الأدب). وكان ذا ذيوع بين المتأدبين إذ وصلت طبعاته إلى العشرين، وإذن فقد التحقت بمعهد دمياط الديني وأنا أفضل علميا من كثير من الزملاء، وكان المعهد حينئذ يضم النخبة المختارة من الأساتذة اذ لم يزد عدد المعاهد في مصر على سبعة فقط، وشيخ المعهد هو رجل الاقليم هيبة وعلما وذيوعا، وكان من شأنه أن يمر بالفصول ليستمع الدرس ويناقش المدرس ويسأل الطلاب، فهو أستاذ الجميع، ولهذا المرور المتصل أثره في انكباب المدرسين على تحصيل المادة أولا ثم الاجتهاد في تذليلها للطالب المبتدئ ثانيا، وإذا كانت مدة الدراسة بالقسم الابتدائي أربع سنوات فقد كانت كافية لإتقان مواد الفقه والنحو والصرف والسيرة النبوية والتاريخ على أحسن وجه، بحيث كان الطالب الذي يحمل الابتدائية بالأزهر أفضل بكثير ممن يحملون الشهادات العالية منه اليوم، بل ليتهم يصلون إلى نصف مستواه العلمي، وكانت المجلات الدينية والأدبية ذائعة بين الطلاب ويقرأونها عن طريق التبادل، بحيث أصبحت مددا ثقافيا ممتازا لا ينضب له معين، وأذكر أني قرأت مرة مقالة بإحدى المجلات الدينية، تتحدث عن غزوة بدر، فوجدتها لا تخرج في مضمونها عن ما جاء بالكتاب المقرر بالمعاهد، فقلت في نفسي: إذا كانت الكتابة بهذه السهولة فلماذا لا أكون كاتبا؟ وكنت قرأت حديثا مسهباً عن كتاب رسول الله إلى هرقل يدعوه إلى الاسلام، وعن

أثر الكتاب فى نفسية الامبراطور الرومانى، واجتماعه ببعض التجار من العرب متسائلا عن النبى العربى ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقشهم فى أمر صاحب هذا الدين، فوقع فى نفسى أن أكتب مقالا يلخص هذه العناصر، وأن أبعث به إلى مجلة الأزهر، وكان هذا تسرعا مشتطا من طالب ناشئ يبعث بمثل هذا التلخيص إلى أكبر مجلة اسلامية! ولكنى فوجئت بعد أسبوعين بمظروف كبير يأتى إلى عن طريق البريد، ففضضته لأجد مقالى مع رد توجيهى من الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى رئيس تحرير مجلة الأزهر، وخلاصته أنه سر كثير السرور لاتجاهى الادبى الحميد، وهو لذلك يرسل ثلاثة من مؤلفاته العلمية هدية لى، ولكنه يلفتنى إلى شئ هام، هو أن المقال الاسلامى ليس ذكرا للأحداث المدونة كما جاءت فى صحف التاريخ، ولكن الكاتب المعاصر يتخذ من هذه الأحداث مجالا للتحليل والتعليل والاستنباط، ليضيف الجديد إلى المتعارف، وذلك لا يتأتى إلا بعد مران شاق فى الاطلاع والنظر والمقارنة! قرأت خطاب الأستاذ فعجبت لتسرعى، وعلمت أن مقال غزوة بدر لو أرسل إلى مجلة الأزهر ما ارتضى الأستاذ وجدى نشره، وكان سرورى بمؤلفاته المهداة قد جاوز حد الوصف فحرصت على تجليدها مع الاهداء، ولكن الزمن لا يبقى على شئ!

طلاب أدباء

وأنا أتساءل كم من رؤساء التحرير الآن يصنعون صنيع الأستاذ

وجدى؟ مع انتشار المجلات في كل قطر عربى إلى حد الاتخام؛ ولعل الأوفق أن يكون السؤال: كم من رؤساء التحرير الذين يصدرون المجلات المصقولة الأنيقة المعتزة بالمظهر فحسب من يماثل الأستاذ فريد وجدى!

على أنى لم أحرم فى المرحلة الابتدائية من موقف شد من عضدى، فقد أرسلت تعليقا أدبيا لمجلة الرسالة على مقال لأستاذ كبير فنشره الأستاذ الزيات دون إبطاء، نشره بالعدد الصادر فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٠م وكان للتعليق المتواضع دوى بالمعهد الديني، حيث لفت أنظار الأساتذة إلى، وفيهم من دعانى إلى زيارته بمنزله مشجعا وهو الأستاذ محمد عمر الذى رثاه صديقه الأستاذ طاهر أبو فاشا بقصيدة ممتازة فى ديوان (راهب الليل) فقام بما لم أقم به نحو الراحل العزيز..

انتقلت من دمياط إلى المعهد الثانوى بالزقازيق ، فرأيت المجال أرحب وأفسح لأن طلاب القسم الثانوى إذ ذاك كانوا أدباء كتابا وشعراء وخطباء، ولهم فى الجمعيات الدينية وأندية الأحزاب السياسية صولات أسبوعية تستدعى الانتباه وكان من المألوف أن يصدر الطالب الناشئ ديوانا شعريا يجمع ما قال من القصائد فى المناسبات. والطريقة سهلة مريحة، لأنه يطبع إيصالات تبلغ الخمسمائة. ويفرقها

على الطلاب كل إيصال بقرشين أو ثلاثة قروش على الأكثر، وفي إحدى مطابع الزقازيق المتواضعة يتم الطبع ورقة ورقة حتى يكتمل الديوان، فيجلد ويوزع على المشتركين، ومن المألوف حينئذ أن نرى في الصفحات الأخيرة سيلا من تقريظ الزملاء شعرا ونثرا ويبتدىء بالثناء على (أمير البيان) أو (بلبل العصر) أو (خليفة شوقي)! وأكثر من يبرحون الكليات الآن لا يقرأون بيتا شعريا صحيحا، فإذا كان طلبة الجيل الماضي بالمعاهد الثانوية شعراء يأتون بالصحيح المستقيم، فذلك لا يعدم مجال الموازنة بين ماض مزدهر وحاضر جديب.

لم أشأ أن أشارك في حركة التأليف عن هذه السبيل، بل رأيت أن أراسل الصحف بما أنظم، فإذا سهل النشر فهي شهادة لي، وإذا صعب فعلي أن أسعى مجدا متقنا، وقد سهل الله أمر النشر دون توقع، فقد كنت قرأت كتابا قيما تحت عنوان (محمد المثل الكامل) للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك من كبار رجال التربية والتعليم فوجدته يفي بما قاله الأستاذ محمد فريد وجدي في خطابه إلي إذ يتبع كل حادث بالتحليل والاستنباط، كما كان المؤلف أسدا هصورا في مواجهة مفتريات الخصوم إذ يدحضها بسيف لا يفل، وبمنطق لا يدفع، ثم قرأت نعيه في الصحف فتأثرت تأثيرا شديدا واندفعت أرثيه تلقائيا بقصيدة مطلعها:

حـــن الليـــث عـــرينـــه
مـــا عســى يجـــدى حنينـــه
كلمـــا ظـــن لقـــاء
عـــاجـــلا خـــابت ظنـــونـــه
كـــم غـــدا يســـأل عنـــه
أيـــن ســـاقتـــه منـــونـــه؟
فـــإذا لـــم يلـــف ردا
شـــافيـــا هـــاجت شجـــونـــه

وبادرت بإرسالها لمجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ونشرها الأستاذ صالح عشماوى رحمه الله فور وصولها.

تنافس أدبى

مضت أيام الزقازيق، وذهبت إلى القاهرة طالباً بكلية اللغة العربية، ووافق ذلك انتمائى إلى مجلتى الرسالة والثقافة كاتبا وشاعرا، والمجلتان - والرسالة بالذات - مهوى طلاب الأزهر، فانتشر لى بالكلية ذكر حميد، حيث عرفنى الطلاب، وشجعنى الأساتذة تشجيعا لم أكن أتوقعه، وأذكر أن أستاذى الكبير أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب المعاصر بالكلية كان يكلفنى بأن أعد بعض الدروس وألقيها لزملائى، وهو يسمع ناقدا، مما دعا بعض الزملاء إلى احتذائى فأوجد حركة أدبية بين المتنافسين عادت

بالأثر الحميد، كما أن عميد الكلية في بعض سنواتها كان فضيلة الأستاذ الكبير ابراهيم الجيالي، وهو عضو هيئة كبار العلماء، وممن سار لهم ذكر في مجال التفسير القرآني إذ كان يتولى تحرير باب التفسير بمجلة الأزهر تسع سنوات، فصدر عن ذاتية ممتازة في الاتجاه، وتعمق دقيق في الرأي، وسلامة رائقة في التعبير، حتى صار التفسير نموذجا من نماذج البيان، هذا الرجل الكبير كان لا يسمح لطالب أن يتأخر يوما واحدا دون عذر يفحصه شخصيا ويقتنع به، وكان من عادته أن يتقدم إليه الطالب مبديا عذره، ليتعرض لامتحان علمي في بعض المقررات، فإن أجاب فعذره مقبول، وإلا فلا سبيل إلى الاعتذار، وقد كتب لي والدي ذات يوم أنه سيحضر إلى القاهرة في موعد حدده، وعلى أن أكون في استقباله بباب الحديد، فرأيت أن أذهب للأستاذ معتذرا عن التأخير، وكان مجلسه ساعتئذ عامراً بالأساتذة فتطلع إلي، وسألني أن أجلس لأعرب له قول الفرزدق:

وكل رفيقي كل رحل وإن هما

تعاطى القنا قوما هما أخوان

وكان من حظي أن أحيط بالبيت من قبل، فابتسمت وقلت: ياسيدي سأعرب البيت كما تود، ولكني سأسألك بدوري عن قائله ، وعن مناسبته وعن أحد الأئمة الذي أخطأ في إعرابه من كبار النحاة، فائتلق

وجه الشيخ بالنور. كأنه يستمع إلى بشرى سعيدة، وقال الله أكبر يا بنى، ما دمت تعرف أن ابن هشام قد أخطأ فى اعرابه فى كتاب المغنى فأنت على علم به . أما القائل وأما المناسبة فأنا لا أعرفهما! لقد جئت بأبدة، لقد جئت بأبدة!! وكان الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بين السامعين فقال للشيخ: إن الطالب من كتاب مجلة الرسالة، فنهض الرجل من مكانه محييا وقال: إذهب كما شئت دون اعتذار، لأننى أحرص على حضور المتعلمين لا العلماء!

هذه واحدة، أما الثانية فقد قابلنى أحد الأساتذة، وقال لى إن الشيخ الجيالى يرغب أن تزوره فى منزله فى أى يوم تريد. بعد صلاة العشاء، فقلت: ومن أنا، حتى أشغل الرجل الكبير بلقائى؟ فقال هو الذى طلب فلا تبطئ، وقد سعدت بما سمعت ، وسارعت إلى لقاء الرجل ، فرأيته يجلس على السجادة بأرض الحجرة وكان قد فرغ من صلاة العشاء فدعانى إلى الجلوس معه، وكأننا فى مسجد، ودار حديث رقيق سجلته فى بعض مقالاتى، وأهم ما به حديثه عن زيارته للهند مبعوثا على رأس بعثة أزهرية لاستطلاع حالة المنبوذين، وزيارته أكثر من خمسين مدرسة وجمعية هناك، واستقبال البعثة الأزهرية بأسمى مظاهر الترحيب. وقد عقد لقاءات مع الزعيم الكبير محمد على جناح والشاعر الفيلسوف محمد إقبال. وكان يعانى من مرضه الأخير، ولكن الشاعر

العظيم تحامل على نفسه فتحدث أكثر من ساعتين عن تحامل الانجليز على المسلمين وانتصارهم للهنادكة وتقديمهم عليهم فى أرقى الوظائف وقد حدثنا عن غاندى ونهرو بأشياء لم نكن نعلم عنها شيئا إذ إنها تخالف ما تذيعه الصحف المصرية عن تسامح الزعيمين. وهما عنصريان كبيران، كما صلينا الجمع فى المساجد الكبيرة، وخطبنا المصلين بالعربية التى يعشقونها، لقد كانت جلسة الأستاذ على السجادة، واسترساله فى الحديث عن المسلمين بالهند أنفس ما سمعت، ولم تكن الباكستان حينئذ قد خرجت إلى الوجود ، ولكنها أصبحت كيانا مستقلا بعد رحلة البعثة الأزهرية بسنوات!

القاهرة وكبار الأدباء

كانت سنوات القاهرة بالنسبة إلى وسيلة للتعرف بأدباء كبار سمعت عنهم، وراسلت بعضهم، وحفظت آثارهم من قبل، ومن أبرزهم الأستاذ محمد فريد وجدى والأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ أحمد أمين والأستاذ محمود تيمور، وكلهم علم فى بابه، ومنهم من هو علم الأعلام.

أما الأستاذ محمد فريد وجدى، فقد هرعت إلى لقائه بمجلة الأزهر إذ كان رئيسا لتحريرها، فاستقبلنى مشجعا حين ذكرته بخطابه السابق، وبمؤلفاته التى تفضل بإهدائها، وكنت قد قابلت موظفا ببريد

قرية بالدقهبية تدعى (إخطاب) فعرض علي أكثر من عشر رسائل علمية كتبها له الأستاذ وجدي، وكل رسالة تضم مقالة علمية ذات صفحات، فتعجبت أن يخص الأستاذ هذا الموظف برسائل علمية دون أن يشرك معه الجمهور فيذيعها على الناس فى مجلة أو فى كتاب! فحانت المناسبة لسؤاله عن هذا الاتجاه، فقال لى الأستاذ فى هدوء باسم، لقد كتبت بمجلة الأزهر مقالا عن الاسلام والمسيحية، فأرسل لى هذا الرجل ردا مليئا بالأخطاء العلمية، وخفت أن أنشره معقبا بدحضه فيحدث بين إخواننا المسيحيين بلبلة لا أريدها، وخشيت أن أهمله فأعد ساكتا عن تصحيح الخطأ، فرأيت أن أفند أقواله فى خطاب خاص أرسلته إليه ولكنه رد فى إسهاب، وفتح لى مجال التصويب، وكلما رددت أخذ يعقب ووجدت من الأمانة أن أرد حتى بلغت الرسائل عشرا كما ذكرت، فعجزت!! عجزت! هكذا قالها الأستاذ المتواضع، قلت: ولكن هذا جهد صامت لا يعرفه أحد، فقال الأستاذ الصامتون كثير لقد كان الاستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعى بعد اعتزاله الإفتاء الرسمى لبلوغ المعاش يتلقى الرسائل من شتى بلاد الإسلام فيجيب عنها على الفور، ويرسلها بالبريد خاصة بالمستفتى، وبعض الإجابات تصل إلى سبع صفحات فأكثر إذا أتيح لى أن أطلع على إحداها حين اختلف بعض العلماء فى مسألة «التشريح» ، واستند كاتب ما إلى فتوى الشيخ التى أرسلها إليه

فى خطاب خاص، وعرضها على ' ولو جمعت فتاوى الشيخ على مدى عشرين عاما بعد المعاش لبلغت عدة أجزاء! ولن يضيع ثوابها عند الله! كان حديث الرجل يملأ نفسي. وأنا أذكره الآن حين أرى من يتخاصمون على مكافأة جلسة رسمية لم يقولوا فيها شيئا ولكنهم حضروا، فلابد من أن تملأ الاستمارات''

ذكرياتى مع الأدباء

أما الأستاذ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر فيما بعد) فقد تشبعت بمقالاته وبحوثه العلمية قبل أن أراه، وكلها قوى محكم ، وهو من ذوى الثقافة الشاملة المحيطة بحيث يعد إماما فى عدة فروع مختلفة كالشريعة والعقيدة وعلوم الأدب والتاريخ، وحين شرفت بلقائه وجدته صامتا، حديثه همس أو كالهمس، فهو فصيح القلم، وليس محدث جمهور، ومن طرائفي معه أني توجهت مرة إلى مقر جمعية الهداية الإسلامية، وكان رئيسا لها فوجدت معه شيخا وقورا مهيبا، عرفت أنه الأستاذ العلامة الشيخ عبد القادر المغربى نائب رئيس المجمع العلمى بدمشق، وتلميذ جمال الدين الأفغاني، فاستمعت إلى العالمين الكبيرين يتناقشان في تفسير حديث الرسول «إن منكم محدثين وإن منهم عمر بن الخطاب» فأفاض المغربى فى ترجيح كلمة (محدث) على أنها اسم مفعول، ورأى الشيخ الخضر أنها محدث على أنها اسم فاعل، وصال

دليل على دليل، وزاحم ترجيح ترجيحا، وأنا صامت اسمع ولا استطيع أن أتكلم، فوجدت العلامة المغربى ينظر إلى فى ابتسام ويقول. أى الرأيين ترجح فقلت عجلا: معاذ الله يا سيدى؛ أيتناقش الخضر والمغربى فى الحديث واللغة، وأكون أنا مرجع الترجيح؟ أأنا الاسكندرى؟! أأنا حسين والى؟! أنا طالب بكلية اللغة، فربت الرجل بيده على كتفى، وقال مبتسما: من يدرى ، قد تكون؟

ومجالس الأستاذ الزيات بالرسالة لا تنسى فقد كانت ندوات حافلة بائمة من أهل الفضل فى العالم العربى، وبها عرفت الأستاذ ساطع الحصرى والأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى والأستاذ على الطنطاوى والأستاذ روفائيل بطى، والأستاذ محمد البشير الابراهيمى من كبار المفكرين فى العالم العربى.

أما الأستاذ أحمد أمين فمن ذكرياتى معه أنى كتبت بحثا عن المؤرخ الكبير جرجى زيدان، ودفعت به إلى مجلة الثقافة. وانتظرت قرابة شهر فلم ينشر، فتوجهت للسؤال عنه فأسعدنى أن يكون الأستاذ الكبير بإدارة المجلة فسألته فى خشية، فأشرق الابتسام على وجهه، وقال لى أنا احتفظ بالمقال حتى تأتى لتزيد فيه سطرين، فأنت وازنت بين مسلك الشيخ الخضرى فى التأليف التاريخى، ومسلك الأستاذ جرجى زيدان، فقضيت بأن مسلك صاحب الهلال أعم وأوسع دائرة من مسلك الشيخ

الخضرى، حيث تحدث زيدان عن سائر نواحى التمدن الحضارى فى الإسلام، واقتصر الخضرى على القليل، وكان عليك أن تضيف إلى قولك أن الخضرى كان مقيدا بمنهج دراسى مقرر على طلبة مدرسة القضاء فليس له أن يتسع أما زيدان فيكتب كما يشاء دون أن يتقيد بمنهج دراسى كالخضرى وفى استطاعته أن يجارى زيدان فيما انتحاه!! قلت، لِمَ لَمْ تعقب الثقافة بسطور قليلة تكشف هذه الناحية، قال الأستاذ أضف أنت ما سمعت، فذلك أفضل! وكتبت سطرين أضفتهما فى حضرة الأستاذ وخرجت متعجبا من دقة الرجل، وحرصه على أن يكون الكاتب وحده صاحب الرأى دون أن يفاجأ بزيادة ليست فى باله! أليست هذه هى الأمانة؟!

بقى حديثى عن الأستاذ محمود تيمور، وقد كان البادئ بمراسلتى تفضلا، لأنى نشرت بمجلة الكتاب (ابريل - ١٩٤٨) بحثا تاريخيا ضافيا عن والده العلامة أحمد تيمور، إذ كان الأستاذ محب الدين الخطيب دائم الحديث عن جهوده الصادقة فى خدمة الاسلام والتراث العربى فشغفت باتجاهه، وتتبعت ما نشر من مؤلفاته، واندفعت إلى كتابة هذا الفصل عنه، وبعد ظهور المقال، رأيت طردا كبيرا يحمل أكثر مؤلفات الاستاذ محمود تيمور، وعلى كل مؤلف إهداء كريم عاطف، مع خطاب رقيق يثنى على ما كتبت فى مجلة الكتاب ويدعونى إلى لقاء

الكاتب الفنان، فكان ذلك مصدر سعادة لى، ومن الطريف أن مجلة الكتاب أرسلت لى شيكا بمبلغ قدره ثلاثة جنيهات، ولم أكن أعرف أن المقال يؤجر وأننى أستحق قليلا أو كثيرا على ما كتبت، فلما وصلنى الخطاب المرفق بالشيك، أخذت أعرضه على معارفى مباهيا، وأذكر أنى قلت لوالدتى إننى تسلمت ثلاثة جنيهات مكافأة على مقال أدبى، فقالت: اكتب دائما لتنشر وتكسب! فقلت فى نفسى، أما الكتابة الدائمة فسهلة، وأما النشر والكسب فقد أجاب عنهما أبو العلاء حين قال:

فيا دارها بالحزن إن فرارها

قريب، ولكن دون ذلك أهوال

ولن أترك حديث القاهرة دون أن أشير إلى اتصالى بالدكتور زكى مبارك، وكان فى آخر مراحل حياته الحرجة، هذه المرحلة التى آثر فيها الصراحة الكاشفة والفاضحة أحيانا - فقد كان يكتب مقالات (الحديث ذو شجون) فى البلاغ على نحو غير المعهود فى أحاديث مجلة الرسالة إذ كان الزيات يحذف من شطحاته مالا يليق، أما البلاغ فقد اتسعت أنهاره لمهاجمة أدباء كبار وصفهم الدكتور بالانحطاط والجهل والملق، والرجل معذور بينه وبين نفسه، إذ رأى أنه لم ينل بعض ما يستحق على حين وصل تلاميذه إلى القمة، وبقى فى السفح، فلجأ إلى الشراب كى ينسى، فى هذه الآونة كثر ترددى على مجلسه فى جريدة البلاغ، وقد

طلبت منـه أن يعرفنى بالشـاعر الكبيـر الأستـاذ خليل مطـران إذ لا أجـد السبيل إلى لقائه مع أنى مولع بفنه، وقد حفظت أكثر ديوانه عن هـوى شـديد، وكـان الشـاعـر الكبيـر فى أخـريات أيامـه ينزل بأحـد مستشفيات حلوان ليرد عينا من عيون الماء بها، قيل إنها تعوق انتشار الداء، فاستجاب الدكتور مبارك لرجائى وصحبنى لزيارة الشاعر الكبير، وقد دهشت حين وجدته كما قال بشار:

إن فـى بـردى جسما نـاحـلا

لـو تـوكـأت عليـه لا نهـدم

على أنه سر كثيرا حين علم أن أزهريا ناشئا مثلى يحفظ ديوانه، ويجعله شاعره المفضل، وقد طلبت أن أسمعه بعض ما نظمت، فقرأت قصيدة ظننتها ستحوز قبوله إذ كانت مما نشرته لى مجلة الرسالة، ولكن الرجل الصادق قال لى بإخلاص، أنت تملك النول الجيد، وعليك أن تبحث عن النسيج الممتاز، فالشاعر لا يعبر عن العواطف العامة قدر ما يلتـفت إلى الخـوافى الكامنة فى مطاوى الأحـاسـيس، وحين شـاهد وجـومى، قال: لا بأس ، أنت مثل الكثيـرين من المشـهورين، وأريدك أن تكون سباقا مرفرفا على هؤلاء ! وإذن فقد صدقنى الرجل حين محضنى النصح، ومن يومـها بدا لى أن أتئد ولا أتسـرع فكانت جلسـة واحدة بألف.

انتهت دراستى بكلية اللغة العربية وانتقلت إلى معهد التربية العالى بالاسكندرية، ففوجئت بعلوم جديدة لا عهد لى بها، يقوم على تدريسها أساتذة من حملة الدكتوراه من أرقى جامعات الغرب، يشرحون لنا علوم النفس والتربية والاجتماع والصحة النفسية، ولكن هؤلاء الكبار ليسوا فى مستوى واحد ففيهم الناقل المردد، المتباهى بالمصطلحات العلمية فى علوم النفس والتربية دون أن يسوقها مساق الدارس المستوعب، وفيهم من خلط جوارحه بالمادة بعد أن هضمها هضما ممتازا، وأضاق إليها تجاربه الخاصة فى الحياة ثم ساقها مساق الشراب الصافى الهنىء .

وكانت الاسكندرية تضم نخبة من الأدباء ، يكتبون فى الصفحة الأدبية التى تصدر يوم السبت فى جريدة البصير، وهى جريدة تهتم بالشئون المالية وتتحدث عن أعمال البورصة والبنوك والغرفة التجارية، ولكن صحيفة الأدب فى يوم السبت ذات صدى حى بين أدباء الثغر، ويقوم على تحريرها الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب، فحرصت على لقائه، ووجدته على قدر هائل من الثقافة الرفيعة، ومن قبل قرأت له فصولا بارعة فى الثقافة والرسالة. والمقتطف والكتاب، فحدثته عنها، فكانت مفاجأة لى أن أنكر علمه بنشرها فى هذه المجلات، وحكى لى أنه لم يكتب فى غير البصير، ولكن من تتحدث عن مؤلفاتهم من أمثال بشر

فارس ومحمود تيمور وحبيب الزحلاوى وعبد الرحمن بدوى لا يقنعون بجريدة البصير فينقلون كلامه إلى صحف مختلفة، ولم يشأ أن يعاتبهم فقد أدى دوره المتواضع فى صحيفته الإقليمية دون ضجيج ! كم أثر فى نفسى هذا التصوف المجرد عن عوامل الاستعلاء والذيوع! كما أثر فى نفسى أن تحتجب ثمرات هذا القلم الثرى فى أضيق مكان! ثم تأكدت صلتى به حتى لقى ربه فى هدوء صامت كعهده فى الحياة.

إلى هنا انتهى دور التكوين الرسمى فى معاهد التعليم، حيث استقبلت الحياة مدرسا لأستقبل تكوينا آخر ذاتيا، وليس لى أن آخذ من صفحات الهلال أكثر مما أخذت، فحسبى أن أشير إلى الخطوات الأولى، وفى رأيى أنها حددت مسارى المتواضع فى درب الحياة! وياله من درب مديد...

دكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»

علاقتى بالنهر وبالقرية شكلت وجدانى

ألتفت إلى الوراء أحاول بنظرة سريعة أن أختزل تلك الرحلة الطويلة التى قطعتها ، فأستجلى خلاصة عمر كامل فى صفحات قليلة !. كان العلم هو القيمة الأساسية التى أثرت فى تكوينى منذ الطفولة المبكرة ووجهت خطاى . تعاقبت علىّ المراحل ، كل منها تسلمنى إلى أخرى ، وتعددت معها سبل العلم ومصادره وشيوخه، لكن تعلقى به لم يفتر قط ! واستزدت منه حتى انتقلت من مقعد المتعلم إلى منصة المعلم ، لكن يقينى لم يتغير بأن طريق العلم لا نهاية له وأن العالم يظل مرجوا مادام بقى له شعوره بالقصور وإدراكه لمشاق الطريق !. وقد وعى الإمام مالك بن أنس من وصية شيخه هرمز قوله : «ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول : لا أدرى ، فإن العالم إذا أخطأ لا أدرى أصيبت مقاتله» .

أنا ربيبة شيوخ ، ولى نسب فى الشيوخ عريق .

فأبى عالم متصوف هو الشيخ القدوة محمد على عبدالرحمن ، وأمى هى السيدة فريدة عبدالسلام منتصر حفيدة الشيخ إبراهيم الدمهوجى الذى كان شيخا للجامع الأزهر . سمانى أبى «عائشة» تفاؤلا باسم أم المؤمنين رضى الله عنها ، واختار لى كنية «أم الخير» ووهبنى للعلم منذ وضعتنى أمى فى المهد !.

بدأت أعى خطواتى على الدرب على شط النيل بمدينة دمياط . كان شاطىء النهر ملعب الطفولة وملتقى الرفاق ، وكان كما علمت فيما بعد ، شاهدا على مأساة أسرية سبقت مولدى إذ لقيت جدتى لأمى مصرعها غريقة فيه وتركت فى قلب ابنتها «أمى» ووالديها لوعة لم تنقض أبدا وفى تلك المرحلة المبكرة ، بدأت أيضا علاقتى بالريف المصرى . لقد كنا ننتقل كل صيف من مدينة دمياط ، حيث كان أبى شيخا بالمعهد الدينى ، إلى قريته شبرابخوم من ريف المنوفية لنقضى إجازة الصيف .

ولا أشك فى أن علاقتى المبكرة بالنهر وبالقرية كانت ملمحا مهما فى تشكيل وجدانى وزادا نهلت منه فى مراحل متقدمة من العمر والخبرة عندما كتبت أعمالى المختلفة عن القرية والفلاح وبيئة الصيادين .

بداية الطريق

ببلوغى العام الخامس من عمرى ، بدأ والدى الشيخ تلقينى المبادىء

الأولية لعلوم العربية والإسلام ، وفاء بنذره القديم ، وكنت أصحبه إلى مكتبه فى جامع البحر حيث أعكف على حفظ مالقننى من دروس أثناء انشغاله بالتدريس ، أما فى عطلات الصيف فقد أتممت حفظ القرآن فى كتاب القرية .

عندما بلغت سن الالتحاق بالمدرسة الأولية ، فوجئت برفض أبى التحاقى بها أسوة بزميلاتى ، وكان رده حاسما : «ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الحديثة ، وإنما يتعلمن فى بيوتهن» تدخل جد أمى عندئذ فى الأمر وظل يلح على والدى فى قبول التحاقى بالمدرسة حتى خضع أخيرا ، ولكن بشروط ، أهمها متابعة دروسى الدينية فى البيت ، والانقطاع نهائيا عن الخروج إلى المدرسة بمجرد أن أشارف سن البلوغ .

دخلت المدرسة ، بعد طول عناء ، وقد انتهت السنة الدراسة وهكذا جلست فى يومى الأول بالمدرسة أؤدى مع زميلاتى امتحان النقل للسنة الثانية بمدرسة اللوزى الأميرية للبنات بدمياط !. مرت بى الأيام سراعا، وأنا أجمع بين دراستى فى المنزل وتعليم المدرسة مع الحرص على تلافى أى تقصير فى دراستى المنزلية حتى لايتسبب ذلك فى حرمانى من المدرسة ، وقد سهل لى ذلك أن علومى المدرسية لم تكن تكلفنى أى جهد بعد ما تلقيته من علوم على يد الوالد وزملائه المشايخ .

وقد ظلت نفسى ، وما كانت إلا طفلة ، يتجاذبها حب العلم من ناحية والرغبة فى الانطلاق واللهو من ناحية أخرى ، حتى قيض الله لى ماثبت قلبى على طريق العالم ! فقد حدث أثناء دراستى بالفرقة الثالثة ، أن دخل مصلب مفتش ليمتحننا فيما نحفظ من القرآن الكريم ، وحين بدا ضيقه بتعثر الزميلات اقترحت الناظرة السيدة «زينب الحناوى» أن يقرئنى شيئا مما أحفظ . وقد أصغى الرجل إلى قراءتى فدعا لى ثم انصرف راضيا

ملاك من السماء

وفى تلك الليلة رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة ، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة ويعطينى مصحفا شريفا فى لفافة خضراء ، أيقنت بعد ذلك الحلم، الرؤيا بمنطق والدى المتصوف ، أيقنت أن حياتى كلها ستكون مرتبطة بالمصحف الشريف ومنذ ذلك اليوم ، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ والعلماء ، بل صرت أحاول أن أسبق عمرى فى دراسة علوم العربية والإسلام .

أنهيت ، على مضض من والدى ، دراستى فى المدرسة الأولية ثم الراقية ، وكدت استسلم لضرورة حجزى فى البيت ، إذ كنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمرى ، لولا أن ظفرت لى أمى ، بعد بدء الدراسة

بشهرين ، بالإذن فى التعليم ممن لايملك والدى أن يعصي له أمرا ، وهو إمامه فى التصوف وقدوته الشيخ «منصور هيكل الشرقاوى» . واستقر بى الحال ، بعد عناء فى مدرسة المعلمات بطنطا ، القسم الداخلى ، حيث أديت امتحان السنة الثانية ، إذ كان يسمح لمن أتممن التعليم بالمدرسة الراقية أن يلتحقن بالسنة الثانية معلمات مباشرة !

أظنه واجبا على أن أؤكد على أهمية الدور الذى قامت به أمى فى مؤازرتى فى تلك المرحلة . لقد كدت غير مرة استسلم لراحة اليأس ، فكانت تلك السيدة البسيطة العظيمة ، رحمها الله ، تأبى إلا أن تدفعنى دفعة تعبر بى من راحة اليأس إلى تعب المجاهدة لتحقيق أمالى !

حنان الأمومة ودفعة للأمام

هل كان حنان الأمومة هو الذى يدفعها إلى مساعدتى وهى ترانى أنوى وأنا أرقب انهيار آمالى ؟ أم تراها كانت تستشف أننى سأكون واحدة من الجيل الذى يشهد محنة الحيرة بين القديم الذى عرفه والجديد الذى يبلوه لأول مرة . أم لعلها كانت مسوقة ، مثلما كنت ، بدافع لاراد له لأن تدفعنى إلى الطريق الآخر الذى لم أكن حتى فكرت فيه !

من ذلك مثلا أنه عندما أوصدت مدرسة المنصورة للمعلمات بابها دونى ، أدهشنى أن أمى لم تعد بى إلى دمياط ريثما تدبر أمرها ، وإنما

انطلقت تبيع سوارا ذهبيا كانت تتزين به وقطعت لنا تذكرتى سفر إلى القاهرة بحثا عن مكان لى بمدرسة المعلمات بحلوان !

أما عندما أصر والدى ، فى عطلة ذلك الصيف ، على ردى إلى طريقى الذى حدث عنه ، فقد كادت تعرض بيتنا للانهيار وهى تحاول الذود عن طموحى ! ورغم أننى رضخت لأوامر الوالد فقد رحت ألتمس منفذا أطمئنها به إلى أن كل ما احتملناه فى الشوط الفائت ، لم يذهب عبثا .

ولم يكن من منفذ إلا أن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات ، حيث عكفت على تحصيلها ، ثم تسللت من البيت ، وأبى غائب عن المدينة فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا ، وخرجت منه - وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل - أولى الناجحات فى القطر كله ، بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع ، عن الطالبة التى تلينى فى ترتيب النجاح !

وفى ذلك الامتحان لاحت لى ، لأول مرة ، بداية ذلك الطريق الآخر الذى لم أكن قط تمثلته أو رنوت إليه ، وهو طريق الجامعة !

لقد أعجب الاساتذة الممتحنون بتلاوتى للسور القرآنية وإنشادى لأبيات من شعر الجاهلية وأخرى من صدر الإسلام وأخيرا قصائد من

نظمى أنا . بعدها نصحونى بالعدول عن طريق شهادة المعلمات إلى طريق الجامعة ! وبدا لى ذلك شططا فى التفكير ، فما سمعت فى بيئتى عن الجامعة إلا كلمات مبهمة ترجمها بالزيغ والضلال ، ولا تصورت أن هناك علوما أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر ، ثم إن الدراسة بالجامعة تحتاج إلى زاد من اللغتين الانجليزية والفرنسية وهو ماليس لى به علم !

عودة إلى أول الطريق

قرر أبى ، نزولا على نصيحة شيخه وزملائه ، أن يتركنى أجرب مهنة التدريس ، على أمل أن أزهد فيها واتركها باختيارى!

واخترت أنا أن أعمل فى مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة حتى ابتعد عن جو بيتنا المشحون بالضباب والدخان ، ومن ثم أستطيع أن أجد فى تحصيل المنهج المقرر على القسم الإضافى للمعلمات وهو نهاية الشوط للتلعيم الأولى الذى بدأته .

وفى المنصورة توزع الوقت بين التدريس والتحصيل ، أما ساعات الترويح فإننى أدين بفضل كبير لمكتبة «السروى» التى هيأت لى أن أقرأ فيها مجموعة كبيرة من الكتب الممنوعة فى بيئتى! وهكذا قرأت ، نظير

قروش قليلة ، بنظام الاستعارة ، كل كتب المنفلوطي المؤلفة والمترجمة ، وكل روايات تاريخ الإسلام لجرجى زيدان ، وجمهورية أفلاطون ترجمة حنا خباز ، وأيام الدكتور طه حسين والإلياذة والأوديسة ترجمة البستانى وألف ليلة وليلة .. وغيرها .

خاب أملي في اجتياز امتحان القسم الإضافى لمدرسة المعلمات إذ إن اللوائح تغيرت فمنعت التقدم لذلك الامتحان من المنزل ، عندئذ اصطحبنى صديق الوالد ، الشيخ موسى قمر الاستاذ بدار العلوم آنذاك ، محاولا التماس استثنائي من تلك اللائحة بسبب أولويتى فى كفاءة المعلمات . لكن السيد مراقب تعليم البنات اعتذر ، واقترح على أن أتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية ! وبسرعة ملأت استمارة التقديم ، ثم تم نقلى من المنصورة إلى إحدى المدارس بحى السيدة زينب بالقاهرة ، قريبا من منزل الشيخ موسى قمر حيث سأقيم وأراجع الدروس المقررة على .

وهكذا وجدتنى ، بدون تعمد منى ، على بداية ذلك الطريق الذى لم أتصور نفسى أبدا سائرة فيه وهو طريق الجامعة !.

الوضع التعليمى يدعم الطبقية

ولم ألبث أن اكتشفت أن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته ، يسير فى اتجاه مواز لايلتقى أبدا مع الطريق الموصل إلى

الجامعة . وقد كان حريا بى ، لولا صغر السن وضآلة الخبرة ، أن ألاحظ أن ذلك الوضع الثنائى للتعليم يدعم الطبقية الاجتماعية والاقتصادية بطبقية عقلية وفكرية ! فالتعليم الأولى لعامة الشعب ، أما التعليم الابتدائى الموصل للجامعة فهو وقف على الأغنياء والقادرين ماديا .

وكان التباين بين المناهج التى درستها من قبل وتلك التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية تباينا شديدا . فلم أكن حتى تلك اللحظة تعلمت حرفا واحدا من لغة أجنبية ! حتى أننى اضطررت لنقل اسمى مكتوبا باللغة الأوربية كما ينقل الرسم ، كى أستوفى بيانات استمارة طلب التقديم للشهادة الابتدائية ، ولم أكن كذلك قد شاهدت أى جهاز من الأجهزة المعملية التى يجرى عليها التلاميذ دروسهم العملية فى الطبيعة والكيمياء فى المدارس الحديثة .

أديت امتحان الشهادة الابتدائية فى ذلك العام ، وكانت لى فى امتحان اللغة الانجليزية قصة لاتنسى ! كنت أضع أملى كله فى موضوع الإنشاء المعتمد على كتاب «السندباد البحرى» لكننى ما أن بدأت فى الكتابة حتى غابت عن ذاكرتى تماما كلمة «نسر» بالانجليزية ، وهى كلمة أساسية فى الجمل المطلوب كتابتها . وبدا لى أن الله لا يريد لى المضى فى ذلك الطريق ، وفيما أنا ألقى قلمى فى يأس وقع بصرى على

الكلمة المطلوبة محفورة على قلمي تحت صورة للنسر . وأقبلت على كتابة إجابتي وأنا موقنة أن الله معي .. على الطريق .

وفي العام التالي تقدمت إلى امتحان شهادة الكفاءة الثانوية ، بعد أن استوعبت المناهج المقررة على السنوات الثلاث .

ومرت الامتحانات بسلام فيما عدا امتحان الطبيعة ، سئلت عن خاصية الترمس «بضم التاء» في حفظ الحرارة ، وقد تصورت أن المقصود هو البقل المعروف فكانت اجابتي بالطبع فكاهة الموسم في لجان الامتحان ، لكن تلك الفكاهة كشفت لمراقب تعليم البنات عما أكابده من مشقة فأمر بنقلي من وظيفة معلمة ، إلى وظيفة كاتبة بكلية البنات بالجيزة .

وكانت سنواتي في كلية البنات حافلة بالتجارب والدروس ! أما الدرس الأول فقد تطلب مني أن أغير من مظهري بعض الشيء كي أصبح أكثر اتساقا مع ذوق المدينة الكبيرة . وهكذا نزعت من شعري المشط البراق الذي كان يمسكه وارتديت بدلا من ثوبي المزخرف ثوبا قطنيا بسيطا . كذلك تقرر أن أتناول طعامي في غير المواعيد المحددة للطالبات حتى يتم تدريبي على استعمال أدوات المائدة العصرية ، وكان ذلك أول عهدي بها ! وقد أدهشني أن علمت أن موظفات الكلية لايدفعن أي أجر لذلك الطعام الفاخر الذي يقدم في مطعم الكلية الأنيق . وللحق

فقد كانت دهشتى تشوبها الحسـرة، على أيام عدة عشتها على شطائر الفول والطعمية اشفاقا على نفسى وميزانيتى من ذلك الطعام الفاخر ! .

علاقتى بالصحافة

وفى تلك المرحلة أيضا بدأت علاقتى المباشرة بالصحافة . إذ كنت فى طفولتى قد اتصلت بها بشكل غير مباشر . كنت عندئذ طفلة ملازمة لجدى الشيخ المقعد ، وكان من مهامى اليومية أن أقرأ له الصحف ثم أكتب مايملى على من رسائل يبعثها إلى الحكام وإلى الصحف فى موضوع تعطل الميناء . وقد أفرحنى أن أرى ماكتبته منشورا فى الصحف فكنت أتفنن فى تجويده قدر طاقتى.

عاودت ، إذن ، اتصالى بالصحافة ، فأرسلت قصيدتى «فى الحنين إلى دمياط» إلى مجلة «النهضة النسائية» التى نشرتها ثم أفسحت صدرها بعد ذلك لتلقى مقالاتى وقصائدى . وقد أغرانى ذلك أن أرسل قصصى إلى الصحف اليومية وإلى مجلة «الهلال» التى كانت فى ذلك الحين تنشر لأعلام من كتاب الجيل ، وقد نشرت لى صحيفتا «البلاغ» و«كوكب الشرق» قصصا قصيرة أما مجلة «الهلال» فقد أعادت القصة مع بطاقة اعتذار باسم «اميل زيدان» وفى تلك الفترة ، عندما بدأت النشر فى الصحف اليومية ، بدأت أيضا فى التستر وراء اسم «بنت

الشـــاطىء» خـوفـا من أن يحـرم على الوالد مكاتبة الصحف إذا علم بذلك .

وأذكر فـى هذا السـيـاق ذلك الدرس الذى تعلمـتـه ، ولم أنسـه أبدا ، من علاقتى بمجلة «النهضة النسائية» . لقد دعتنى السيدة الحاجة «لبيبة أحـمـد» صـاحـبـة المجلة لزيارتهـا فـى دار المجلة ، وشـجـعـتنى حـرارة استـقـبـالها على تكرار الزيارة حـاملة مقـالاتى مـعى، ثم بدأت السـيدة الجليلة تكلفنى بكتابة مقالها الافتتاحى ، وتطور الأمر حتى صرت أتولى عبء المجلة كله نظير أربعة جنيهات شـهرية . لقد أرضى ذلك التكليف غـــرورى بالاضـافـة إلى زيادة مـواردى ، لكننى كنت أزيف ذاتى مقـابل ذلك ! كان على أن أتقمص شـخصية سيدة فى سن جدتى بالاضافة إلى اختلافها عنى فى الطبقة والبيئة والتجربة واستطعت بمشقة بالغة أن أسـترد ذاتى ، وتعلمت أن أحـرص عليـهـا ! وفـيمـا كنت أمـارس هواية الكتـابة ، وأحـمل عبء عـملى فى كليـة البنات وفى مـجلة «النهـضـة النسـائية» تابعت تحصيل المواد المقررة على طلاب البكالوريا ، وتقدمت للامتحان من المنزل واجتزته فى صيف ١٩٣٤ .

على أبواب الجامعة

لم أجرؤ على الالتحاق بالجامعة كطالبة منتظمة ، فقد كان هذا أكثر مما يمكن لأبى أن يحـتمله ، ولم تكن الجـامـعة تعرف نظام الانتسـاب

آنذاك ، وفى الوقت ذاته كنت أتعرض لجواذب خارجية مضادة كانت تشدنى بعيدا عن الجامعة ، فى بيتنا كان والدى قد نفد صبره ، وهو لايكف عن الكلام فى موضوع خطبتى لشاب من أبناء زملائه المشايخ .

وفى مجال عملى ، كانت شهادة البكالوريا قد رفعت وظيفتى إلى سكرتيرة لكلية البنات ، ورفعت راتبى ، أما فى مجال الصحافة فقد نشرت لى جريدة الأهرام ، مقالاتى عن الريف المصرى فى صفحتها الأولى، وزادت على ذلك أن رحبت بى عضوا فى أسرة التحرير .

ورغم ذلك كله ظل قلبى معلقا بالجامعة ! لم أدر وقتها ما الذى يشدنى إليها ، أنا التى لم أضق أبدا بطريقى الأول ولم أنفر منه أو أزهد فيه ، وإنما على العكس كنت أزهو على غيرى بما حصلته فيه! لقد حصلت علوم المدارس ، لكن ما من واحدة من طالبات المدارس تستطيع أن تقرأ فقرة واحدة من كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه ، التى درستها فى بيتنا !

ما الذى دفعنى إذن للوقوف بباب الجامعة لا أبغى عنه حولا ! أعرف الذى بعد أن أصبحت تلك الأيام ماضيا بعيدا ، أعرف أننى ما قطعت ذلك الشوط الطويل على دربى ، إلا لكى ألقاه !

أعرف أن تلك القوة ، التى لاتقاوم التى دفعتنى للخروج عن الطريق الى خطه لى والدى ، إنما كانت تدفعنى إلى حيث ألقاه على طريقه

فيتوحد بعدها بنا الطريق وتصبح قصتنا أسطورة الزمان ، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر ! إنه استاذى وشيخى ثم زوجي ووالد أبنائى ، الأستاذ الشيخ أمين الخولى .

قبل أن نلتقى

مضى عام كامل على حصولى على البكالوريا ، قبل أن أقدم أوراقى للدراسة بالجامعة . وقد هون على أن علمت أن تقدير نسبة الحضور اللازمة للنجاح يقررها الاساتذة وليس الإدارة .

وفى عامى الأول بها عجزت الجامعة أن تشدنى إليها ! وما كان حصاد ذلك العام إلا عزلة نفسية وفكرية عنها .

فمنهجها المحدث تقدمه تلقينا آليا لاينفذ إلى ما وراء ظاهر السمع ، وعلومها تعرضها إلقاء وترديدا بدون قدرة على التأثير فى الوجدان ، وتفضل أساتذتى الأجلاء ومنهم الأستاذ مصطفى السقا والدكتور حسن إبراهيم حسن بإعفائى من حضور محاضراتهم . تقديرا لظروفى . وما إن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثانية ، حتى تصورت أنه لم يبق لكى أصفى حسابى مع هذه الجامعة إلا أن أتعرف على ما عند الأستاذ «أمين الخولى» من علم يتحدانى طلاب قسم اللغة العربية أن أستغنى عن كلمة واحدة منه !

وبدأت عامى الدراسى الثانى وأنا أشد ما أكون ضيقا بالجامعة

ونفورا منها ، لقد استأنفت تلك الجامعة الدراسة بعد مصرع زميلنا الشهيد عبدالحكيم الجراحى برصاص الانجليز عند كوبرى عباس ، وكأن شيئا لم يكن . ولقد فشلت الجامعة فى الدفاع حتى عن الدرجات العلمية التى تمنحها ! وتفصيل ذلك أن البرلمان الوفدى استصدر قانونا يهبط بالحد الأدنى لنسبة النجاح من ٦٠٪ إلى ٥٠٪ على أن يسرى القانون بأثر رجعى . وهكذا انتقل عدد غير قليل من الطلبة الوفديين من ركن الراسبين إلى جماعة الناجحين !

أما على المستوى الشخصى فقد كنت أبدأ عامى الدراسى الثانى وأنا محررة ثابتة فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام التى طبعت لى مجموعة مقالاتى المنشورة بها بين دفتى كتاب عنوانه «الريف المصرى» وكان الكتاب مدخلا لنيلى الجائزة الأولى للمباراة الرسمية لوزارة على ماهر فى موضوع «إصلاح الريف والنهوض بالفلاح» ثم ترتب على ذلك الفوز اختيارى عضوا فى المؤتمر الزراعى الأول مع نخبة من أقطاب الزراعيين . وعن طريق الأهرام أيضا تمت دعوتى لأحاضر على منبر قاعة ايوارت التذكارية . وكان عنوان المحاضرة «واجبنا بعد المعاهدة» والمقصود بالطبع معاهدة ١٩٣٦ ، وكان من مستمعاتى فى تلك القاعة السيدة هدى شعراوى راعية النهضة النسوية فى مصر والتى امتدت علاقتى بها فمنحتنى شعورا بالأمومة الفكرية

والأدبية والاجتماعية وفتحت لى مجال إلقاء المحاضرات على منبر «دار الاتحاد النسائى» .

ودور الأهرام فى تكوينى لم ينحصر فى دفعى إلى بؤرة الحياة العامة ، وإنما امتد إلى إثراء زادى الثقافى والإنسانى ومساعدتى فى توسيع تلك الدائرة المغلقة التى كنت أتصور أن العالم كله ينطوى تحت نطاقها ! لقد جالست فى مكتب رئيس تحرير الأهرام أساتذة كبارا مثل العقاد وطه حسين وزاملت شخصيات ثرية لها أسماء لامعة فى عالم الصحافة مثل كامل النشاوى ، على أمين ، يضاف إلى ذلك أن عملى الصحفى هيأ لى أن أقرأ عددا كبيرا من الكتب فى المجالات المختلفة ثم أقوم بتقديمها للقراء .

ثم التقينا

وفى ذكرى يوم مولدى ، فى السادس من نوفمبر ١٩٣٦ ، وأنا على تلك الحال من الاعتزاز بنفسى ، كان ميلادا لى جديدا ، هو لقائى بالأستاذ الإمام أمين الخولى !

لقد جلست أصغى إلى الأستاذ وهو يلقى علينا مبادىء منهجه، حريصة على ألا تفوتنى كلمة واحدة مما يقول ، فما أزعجتنى غير دقات ساعة الجامعة معلنة عن سير الزمن !

وما أشك للحظة أن ذلك اللقاء بالأستاذ أمين الخولى كان بمثابة

الخطوة الأولى على الطريق الذى قطعت العمر أبحث عنه . فأما قديمى الذى جئت الجامعة به فقد جلاه منهج الأستاذ فمنحه روح الحياة ونبض العصر ، وأما المعارف التى قدمها لى التعليم المحدث فقد انتقلت من تلك الزاوية المعطلة من ذهنى إلى مجال الوعى والإدراك بتأثير شعورى بالحاجة إلى روافد منها سخية تخصب وجودى الفكرى .

وانتهت المرحلة الجامعية الأولى وبدأت مرحلة الدراسات العليا، فلم يرض لى استاذى أن أبدأ فى دراسة النص القرآنىّ حتى أتزود بما يكفى من علم فى دراسة النصوص الأدبية ، وهكذا حصلت على رسالة الماجستير عن أبى العلاء المعرى ثم الدكتوراه عن تحقيق لرسالة الغفران لأبى العلاء وكانت الرسالتان على الدكتور طه حسين .

ثم انتهى بى التخصص إلى دراسة النص القرآنى على منهج استاذى وظل الأستاذ الإمام لمدة ثلث قرن يقود خطاى على الطريق الشاق ، ويحمينى من عثرة الرأى ومزالق التأويل وسطحية النظر ، ويأخذنى بضوابط منهجه الدقيق الصارم الذى لايجيز لنا أن نفسر كلمة من كلمات الله تعالى دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها فى الكتاب المحكم ، ولا أن نتناول موضوعا قرآنيا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية ، دون استيعاب لنظائرها وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة ، وسياقها العام فى القرآن كله، ورحل عنى استاذى فى عام

١٩٦٦ ، تاركا لى ، ولغيرى من الباحثين منهجه المحكم ومنطقه الدقيق اهتدى بهما فى دراساتى القرآنية وفى إشرافى على دراسات طلابى بجامعات القاهرة وعين شمس والرياض والقرويين ، وأيضا فى كتاباتى بجريدة الأهرام ، التى امتدت رحلتى معها منذ عام ١٩٣٥ ، وحتى اليوم .

ومن أستاذى أمين الخولى تعلمت ، فيما تعلمت ، ألا أتعجل الوصول بأبحاثى إلى غايتها ، ولايزال ملء مسمعى قوله لى : «نحن نعيش العمر كله طلاب علم ، كادحين إلى مانستشرف له فى كل خطوة من جديد الآفاق والغايات ، وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة فى موضوعه ، وجهد طالب العلم لايقاس بمدى ماقطعه من أشواط ، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه ، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الممتد إلى غير نهاية ولا مدى» .

سهير القلماوى

الريادة فى الأدب

كنت أتطلع إلى أن أكون طبيبة فوالدى كان جراحا وككل بنت كنت مفتونة به وكنت أساعده . وأنا لا أزال فى المرحلة الثانوية ، فى عيادته (اسم المريض والمرض ونتيجة السكر والزلال) بالاختبارات البسيطة المعروفة .

وصدمت . بأن لم يكن من مفر لى إلا الدخول فى قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية وكان اسمها هكذا لانها الجامعة الوحيدة فى مصر آنذاك .

ولما كان تعليمى قبل الجامعة كله فى كلية البنات الأمريكية (رمسيس الآن) فقد كنت لا استطيع أن أنطق بكلمة عربية منذ دخولى المدرسة فى الصباح إلى الانصراف حوالى الرابعة بعد الظهر . لذلك اتقنت الإنجليزية واطلعت على كثير من كتبها بسهولة بسبب هذا .

ولما كانت المدرسة تبشيرية ولم تكن للحكومة آنذاك أية سيطرة على مثل هذه المدارس . حتى أن أبى طلب ألا أصلى معهم فى الكنيسة فرفض طلبه واستمررت لقرب المدرسة من سكنى بالرغم من أن سيارة المدرسة هى التى توصلنى فكان أبى حريصا جدا على أن أقرأ معه كثيرا في القرآن الكريم وفي التفاسير خاصة وكان هناك تفسير جيد مختصر لمحمد فريد وجدى وآخر للزمخشرى وكانا هذان التفسيران عند والدى فكنت أقرأ معه فيهما على صعوبة ذلك ونناقش الكثير من المسائل .

وفى هذه الفترة وطوال أحد عشر عاما كان علينا فى السنوات الست الأخيرة فى المدرسة أن نقرأ كل عام فى إجازة الصيف رائعتين زادتا إلى خمس روائع من الأدب .. ونمتحن فيها أول العام الدراسى وكان النجاح شرطا للالتحاق بالفرقة الأعلى . لذلك قرأت روائع الأدب الانجليزى والأمريكى والفرنسى وماترجم إليهما من روائع الأدب الروسى خاصة والأسبانى والإيطالى . وكانت القراءة قراءة من سيمتحن فيما قد قرأ . لذلك هويت القراءة منذ سن مبكرة .

واستكملت النقص أو بعض النقص فى العربية حتى ووجهت بضرورة التبحر فيها لأنجح فى قسم اللغة العربية ، الذى استسلمت للالتحاق به وفى تقديرى أنه مجرد قضاء أربع سنوات لأتم الحادية

والعشرين التى اشترط والدى أن أكون قد بلغتها قبل أن أسافر (كما كنت أقدر) لأدرس الطب فى انجلترا وأحقق أحلامى .

وهذا أول وأضخم درس تعلمته . كيف لا أيأس ، وكيف أتأقلم مع ماقد فرض عليّ ومما ليس منه بد ، والخيرة - كما يقولون - فيما اختاره الله . المهم أننى لم أكن أرضى إلا أن أكون الأولى على الفرقة أو على أسوأ تقدير الثانية . وساعدنى أساتذتى طه حسين وأحمد أمين وعبدالحميد العبادى وعبدالوهاب عزام وغيرهم ممن أفخر إلى اليوم بأنى تتلمذت عليهم وكنت فى غرفة الأساتذة فى القسم أتلقى منهم مايمكن أن أسميه اليوم دروسا خصوصية لأنهم جميعا آمنوا بجديتى وباتساع أفقى ووجدوا فيّ «خامة» طيبة.

تجربتى مع الصحافة والإذاعة

وتخرجت من قسم اللغة العربية الأولى وآخر ماكنت أفكر فيه هو التدريس. ونزلت إلى ميدان الصحافة وهذه عطفة أخرى فى حياتى .

وكنت وأنا مازلت طالبة فى السنتين الأخيرتين قد نشروا لى مقالات فى بعض المجلات «اللطائف» المصورة «العروسة» وأثناء عملى بالصحافة كتبت فى الهلال وفى مجلة «أبولو» للشعر ومجلة الرسالة وأشرفت على صفحة كاملة نسائية فى جريدة «البلاغ» مرة وجريدة «كوكب الشرق» مرة أخرى ولما اشترى أستاذى طه حسين ترخيص

جريدة الوادى رابطنا كلنا ، تلاميذه في الجريدة. وإلى جانب الصفحة النسائية كنت مسئولة عن صفحة الأدب التى شاركنى فيها بعض الزملاء .

وكل ذلك لم أكن أتقاضى عنه مليما واحدا لما عرض علىّ أستاذى أحمد أمين خمسة جنيهات فى مقابل ثلاث مقالات فى مجلة الرسالة رفضت لأنى لا أريد أن أكتب بأجر إلا فيما بعد . وكنت أحس أن أكثر الإقبال على طلب أن أكتب فى هذه الصحيفة أو المجلة كان بسبب أننى امرأة ومع ذلك اقبلت على الكتابة .

وفى هذه الفترة أيضا أشرفت على صحيفة «الجامعة المصرية» التى كان رئيس تحريرها طه حسين . ولكن التجربة الحقيقية كانت عند افتتاح محطة الإذاعة سنة ١٩٣٤ وقد اختارونى (الذين جاءوا للإعداد لها) بعد امتحان فى الأصوات أن أذيع حديثا . وكنت الآنسة الوحيدة ولم يكن هناك صوت نسائى آخر إلا صوت مذيعة واحدة (عفاف الرشيدى) . وكانت الإذاعة البريطانية قد افتتحت محطة القاهرة وأخرى فى «أوال» فى البحرين استعدادا للحرب ولبث الأخبار والسيطرة على الإعلام فى العالم العربى .

وكان لمحطة الإذاعة مجلة «الراديو» التى تنشر البرامج وبعض المقالات المتعلقة بها وتتلقى طلبات المستمعين وتنظر فى مشاكلهم وقد

اسندوا إلىّ الجزء العربى (بضع صفحات) من هذه المجلة وكان أجرى عليها وعلى أحاديث الثلاثاء (كل يوم ثلاثاء الثامنة مساء) هو أول أجر أتلقاه على تأليف أدبى أو صحفى . وكان مائة وخمسين قرشا .

كل هذه التجارب تدل على ضرورة انفتاح المؤلف فى بداية رحلته على أنواع كثيرة من التأليف وأن يجرب ويجرب ، جربت الشعر الحر ترجمة وانشاء فى الرسالة منذ الثلاثينات وكذلك فى مجلة «أبولو» ولكنى لم أتخصص فى الشـــعر وإنما كلها تجارب نافعة واراها جيدة إلى الآن .

وخاصة أن النقاش والنقد كان كثيرا وميسورا ، وهو مايفتقده شباب اليوم لكثرة المنافذ الثقافية ووسائل الالتقاء بالمتلقى عبر المؤلف الفنى .

هؤلاء علمونى

وجاء المنعطف الثانى الهام فى حياتى وهو التحول من الكتابة فى الصحف والمجلات وهو إغراء بعثة إلى باريس فريدة فى نوعها . فقد كانت تنص على أن ليس المطلوب منى أداء أى امتحان طوال أربع سنوات ، وأن لى حرية السفر على نفقة البعثة إلى انجلترا وألمانيا للاطلاع . كل ذلك للتحضير لدرجة الدكتوراه على أن أعود للإمتحان فى القاهرة .

وهنا كانت الفائدة الأعظم تعلمت الكثير على طريق البحث والتأليف «الأكاديمى» ورأيت أساتذة تركوا فى نفسى أروع الاثار ، أذكر على سبيل المثال «كاريه» الذى أكرر قولته لى إلى اليوم لطلابى «لست حريصا على أن تعطينى إجابة صحيحة على السؤال ، وإنما حرصى كل الحرص أن تسألى السؤال الصحيح».

كم ذا يحتاج الجيل الجديد أن يتعلم كيف يسأل ، وعن ماذا يسأل قبل ان يحرص على الرد الصحيح على سؤال مطروح !

وتأثرت كثيرا بأستاذى وأبى الروحى طه حسين ولكنى لم أقلد أسلوبه وكذلك أحمد أمين . ذلك أنى نشأت على التلقائية وأن أعبر كيفما أشاء ثم أعود إلى التعبير مرات لأصحح فيه . فإذا كتبت مثلا عناصر موضوع ثم عالجتها فقد تبين لى أنى تركت نقاطا فاذا كانت هامة أعدت الكتابة وأدخلتها أما إذا لم تكن فإنى أترك ماكتبت على ماهو عليه حتى لايفقد ميزة تلقائيته .

لم أمر بفترة أن أكتب ويصلح لى أستاذ ما أكتب ذلك أن هذه المرحلة قضيتها فى مدرسة لغات. والانجليزية لغة أدبية أسهل كثيرا وأوضح ومحدودة إذا قيست بلغة يبلغ عمرها أربعة بل خمسة أضعاف عمر الإنجليزية أو أى لغة أوربية أخرى .

تعليم العربية وتعلمها والضغط على مميزاتها وقدراتها الهائلة على

دقة التعبير وعمقه من أهم مايلزم الأديب العربى ، ودراسة القرآن الكريم تعين على كثير من هذا . وقد درس القرآن الكريم وتمثل بأياته كثيرون من غير المسلمين وليس مثل «مكرم عبيد» ببعيد ففى خطبه ألفاظ بل أحيانا آيات اسلامية فى حين أنه مسيحى لأنه أدرك مايمكن أن يصقل موهبته ولأن الأخوة بين المصريين كانت دائما تتجلى فى كل مناسبة .

***

ليس عندى للكتابة مواعيد وإنما الكتابة ساعة الصباح أفضل قبل أن أشعر بالتعب العضوى وأنا أكتب دائما على مكتبى ولا أستطيع أن استمر فى الكتابة طويلا إلا وأنا جالسة على هذا الكرسى ، وأهم ما أحرص عليه ، بعد استجماع الأفكار وبلورة الإحساسات ، هو محاولة إيجاد نقطة «ارتكاز» كما أسميها يدور فى فلكها كل شىء آخر . وماديا لابد لى من ورق مصقول وقلم جيد أو ممتاز وثلاثة أو أربعة أقلام إلى جانبى حتى لا أترك الكتابة واشغل بتعبئة القلم حبرا أو نحو ذلك . قطع الفكرة عندى لا يشكل عادة مشكلة ولكنى أتجنبه مخافة أن تحدث المشكلة التى لم أصادفها إلا قليلا جدا .

ووسيلتى أن أترك الكتابة كلية لفترة ثم أعود إليها من جديد منذ البداية حتى لا أفتقد الاتصال واستمرارية الفكر .

مجالى الأساسى التأليف «الأكاديمى» ولكن مساهماتى فى القصة القصيرة كثيرة جمعت بعضها والأكثرية الغالبة مازالت مبعثرة فى مجلات تلك الفترة . لى على الأقل ٣٠٠ قصة .

كنت قد كتبت فى جريدة الوادى عام١٩٣٥ قصة أدبية عن «أمة كريمة والحمام» فيها ذكريات أيام جدى ولما توفى والدى نصحنى أستاذى طه حسين أن أدفن أحزانى فى الكتابة . وقال لماذا لاتؤلفين قصصا أخرى مثل «أمة كريمة» وتنشرينها كتابا . وكان هذا كتاب «أحاديث جدتى» يعبر عن عمق الفجوة بين جيلى ومن سبقه من أجيال .

طبعت الكتاب على حسابى الخاص فى لجنة التأليف والترجمة والنشر وطبعت أربعة الاف نسخة قال أستاذى أنت مجنونة أنا طه حسين أطبع ثلاثة آلاف . قلت وأنا فى غاية الغرور (ياليت شبابنا اليوم عندهم قدر «صحى» من الغرور) أنت مقروء لأنك أديب ممتاز وأنا أديبة ممتازة زائد أنى امرأة وهذا فى حد ذاته طرافة تجذب القارىء . ولم يبع من الكتاب «أحاديث جدتى» إلا تسعمائة نسخة وقامت الحرب فاختفى من المخزن لأن غلافة كان هاما لصناع البلكونات فهذا الورق المقوى لم يكن متوفرا فى السوق وكان هو غلاف كتابى الأنيق .

ومع ذلك لم أيأس . أقول لطلابى دائما إياكم أن تيأسوا فالفشل مرحلة من مراحل الوصول إلى النجاح تقبلوا الفشل بهذا المنطق وذاك الاحساس فتنجحوا .

قراءاتى متسعة جدا ولغاتى الأجنبية فتحت علىّ أبواب الثقافة العالمية على مصراعيها . لذلك عجبى بل أعجب وأحزن أن ننادى بإهمال تعلم اللغة الأجنبية . ولا أدرى كيف سيكون تعامل هذا الشباب فى عصر الاتصالات الإلكترونية دون لغة أجنبية وما الضرر فى هذا فهذه الثقافة أغذى بها ثقافتى القومية وانعشها لتتفتح على الآفاق البعيدة .

المجلات الأدبية الغربية أقرأ أكثرها منذ أيام الرسالة إلى اليوم. وأشترك فى مجلات عالمية لا تشترك فيها مكتبة الجامعة للأسف مثل مجلة «العالمين» الفرنسية ومجلة «كنيون» الأمريكية ومجلة «علم الجمال والنقد» و«النقد الأدبى» وكلها مجلات علمية جافة وهناك المجلات التى تجد فيها إلى جانب السياسة الدولية بعض الأخبار الهامة فى الفنون مثل «نيوزويك» و«تايم» ولعل أهم مافيها فتح الآفاق بأخبار منجزات العلم الخرافية فى هذا العصر . وهناك مجلة «ديالوج» (الحوار) الفصلية تنشر مقالات هامة جدا فى كل ماهو جديد . وفى كل عدد موضوع يعالج بمقالات المختصين معالجة مستفيضة وعلمية موثوق بما فيها من معلومات حديثة .

الحياة بكل مافيها من عوائق الروتين والبيروقراطية قدر فرض علينا في هذا العصر، وخاصة في مصر في غياب حكم ديمقراطي سليم مبنى على فرد حر مؤهل لأن يختار وينفذ ويسهم فعلا في تطور المجتمع . ولا حيلة في نظرى إلا بالتكيف على نطاق الفرد والمساهمة الواجبة والفعالة والمستمرة نحو التغيير المطلوب ليصبح مجتمعنا مجتمعا سويا يبعزق طاقاته الضخمة الفريدة في هذا العبث أوالهراء الذى ندفع إليه دفعا .

كل فرد مسئول عن نفسه بل عن التغيير يجمع مع من حوله مجموعة ويجاهد في سبيل التغيير . وهذا التغيير لن يكون للأسف كما تدل مخترعات العصر الا تغييرا على مراحل . المهم البداية السليمة . التغيير بالطفرة انتهى زمانه . التغيير لا يأتى من فوق ولا بالأوامر ولا فرض ايديولوجيات . اهم ما انصح به الشباب الأدباء : أولا شطب كلمة يأس من قاموس حياتهم مهما كان الوضع . ثم العمل المستمر المؤمن . والقراءة ثم القراءة والتليفزيون ليس بديلا ولن يكون بديلا عن القراءة وإنما هو تحوير للاهتمامات. وانظروا لماذا تنتعش دور النشر وصناعة الكتاب في البلاد التى فيها تليفزيون راق ومجموعة قنوات وهو متاح لأكبر عدد من المواطنين اختلاف الكتاب ضرورة . ولكنه لايمكن أن يستغنى عنه المثقف .

دكتور أنور عبد الملك

عشت مرحلة صياغـــة الخط العام للحركة الوطنية المصرية

يبدأ المشوار فى ساعة الظهر يوم الخميس ٢٣ اكتوبر عام ١٩٢٤ بمنزل الأسرة ١٥ شارع الأهرام بمصر الجديدة، وتعدادها آنذاك ٨ آلاف نسمة. كان والدى «إسكندر عبدالملك» محاميا، بعد أن شارك عبدالحليم البيلى بك فى قيادة «اليد السوداء» منظمة الكادر الثورى فى قلب «التنظيم السرى» للوفد المصرى خلال ثورة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ينتمى إلى أسرة قاهرية عريقة منذ القرن الثامن عشر، والده شغل منصب «شاهبندر تجار القاهرة» ، وقد توفى قبل ميلادى، فكانت جدتى من أسرة كريمة فى حلب فتحت أمامى عندما كنت طفلا مجالا عربيا دافئا انصهر فى أسرة قبطية مصرية صارمة. ووالدتى «إلّيس زكى ابراهيم» لست أدرى كيف أصفها: شابة خارقة الجمال، زوجة مشرقة، وأم حنون،

والدها من مديرى هيئة السكك الحديدية المصرية والأسرة تتوزع بين القاهرة والمنيا، ولدت ظهرا كما قيل لى فيما بعد، فى يوم مشمس، ومن هنا تسمية «أنور» وهى فى الأساس تيمنا بالفريق أول أنور باشا، رئيس هيئة الاركان العامة للجيش العثمانى، ورائد حركة «الاتراك الشباب» ثم جمعية «الاتحاد والترقى» التى كان لها أبلغ الأثر على شباب الحركة الوطنية المصرية فى مطلع هذا القرن (ومنها تسمية العديد من جيلنا باسم «أنور»).

هناك مؤثرات تكوينية ثلاثة صهرت شخصيتى، وكانت بمثابة الأركان التكوينية لما أتاح الله عز وجل من فكر وعمل على أرض مصر، ثم خارجها وفى سبيلها: الأسرة، أولا:

كان والدى من الدفعة الأولى للسلك الدبلوماسى المصرى، عينه حافظ عفيفى باشا وزير الخارجية آنذاك نائب قنصل فى مدينة «ليفربول» فى انجلترا عاصمة صناعة نسيج القطن المصرى والهندى آنذاك، ثم بعد إصابته بالمرض الذى أودى به ، إلى لندن؛ ثم نائبا لمدير ادارة الجنسية فى الديوان العام بالقاهرة حتى لقى ربه عام ١٩٣٢ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره كان عالما ومفكرا وكاتبا باللغات الثلاث العربية، والانجليزية والفرنسية. علمنى معانى ثلاثة: الدأب على العلم دون كلل، الصدق فى القول والعمل، الشجاعة دون أدنى رهبة. كان

يقضى بعد ظهر كل يوم بين الثالثة والثامنة من عمرى يعلمنى التاريخ والجغرافيا وحضارة مصر والاكتشافات البحرية والفتوحات والمعارك الكبرى، استنادا إلى مجلدات كبيرة مصورة، بحيث أصبح «رمسيس» والاسكندر المقدونى، وكذا «صلاح الدين» و «نابليون» ثم «محمد على» و«اسماعيل» من ضيوف مكتبه الدائمين، يتعانقون مع «كولمبس» و«فاسكو دى جاما» و «كونفوشيوس» ثم رسالة الرسل، إذ كان والدى شديد التقوى إلى درجة التصوف. كان يعرض أمامى المعارك الكبرى فى تاريخ الانسانية: أذكر معارك «قادش» و «أوسترليتس» «أبا قير» و«ڤيردان» قلعة صلاح الدين وچنكيز خان، ثم مقام ابراهيم باشا وأحمد عرابى وصحبه، فى التل الكبير، اضطرنى إلى تعلم اللغتين الفرنسية ثم الانجليزية طفلا. ثم جاء البحر: كنا فى اليونان لعلاجه، فدأب على أن أتعلم مبادىء قيادة السفن الملاحية الصغيرة المتنقلة بين الجزر، وكأننى على موعد مع البحر. سنوات مشحونة، صارمة مشرقة، تصب فى معنى كبير: حضارة مصر، مكانة مصر، نهضة مصر ـ «عندما تصبح رجلا تتولى هذه الأمور مع زملائك، مثلنا اليوم» عبارة كان يكررها يوما بعد يوم.

ثم «مدرسة العائلة المقدسة» لهيئة الياسوعيين (١٩٢٩ ـ ١٩٤٠) فى القسم العربى منها، أرقى معاهد التعليم فى الغرب قاطبة حتى اليوم

وكانت آنذاك، ولاتزال ، المدرسة المرموقة لمن أراد أن يجمع بين التكوين الفكرى والروحى والاخلاقى من ناحية وحب الوطن من ناحية أخرى، إليها أدين بما يصعب التعبير عنه: فتحت أمامى أبواب ثقافات العالم أوسع الأبواب، عمقت معانى الإيمان والتصوف فى وجدانى، واصلت التربية الأخلاقية الصارمة، الحديدية آنذاك، وكأننا فى كلية عسكرية ثانوية، وفى الوقت نفسه أكدت يوما بعد يوم التوجه المصرى، واجبنا كما تعلمنا، بعد الله عز وجل، ثم الملك رئيس الدول آنذاك. وخلال هذه السنوات العشر، فتحت أمامى إمكان التعمق فى آداب لغتنا العربية على أيدى كوكبة من الأساتذة المتازين، ومنهم الشاعر «ريمون حكيم» وكان من رواد أمير الشعراء وجماعة «أبوللو» كان يبدأ الفصل الدراسى وكلنا وقوف ينشد المعلقات، ثم ينتقل تدريجيا فى الفصول المتقدمة إلى أحمد شوقى وحافظ ابراهيم وخليل جبران وشباب الشعراء. وفى هذا الخضم الذاخر من العلم والثراء الوجدانى، التقيت بمطلع القصيد الذى أصبح شعارا لى فيما بعد طيلة العمر:

«الوقت سيف وإن لم تقطعه قطعك».

نفس المعنى الذى تعلمته فى دار أسرتنا. نفس المعنى الذى فرضته علينا معارك الحياة فيما بعد.

وفى هذه الاثناء، وبعد وفاة والدى رأت والدتى أن تقودنى كل شهر

للصلاة والتأمل فى الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة-توكيدا لاستقلالية الكنيسة القبطية المصرية، وكثيرا ماكنا نعكف إلى حى الحسين مع أصدقاء الأسرة للتشبع بروح القاهرة، كما كانت تقول دوما، و«كما كان والدك يحبها أيام الثورة» - أيام ثورة ١٩١٩ التى انطلقت من رحاب الأزهر الشريف. لم يكن لنا معاش بعد وفاة والدى، نظرا لقصر المدة الأميرية ولا ثروة فقد ذهبت مع الثورة. وقد عاوننى أشقاء والدى، على رأسهم فؤاد بك عبدالملك، والدى الروحى الثانى ، مؤسس «جمعية أصدقاء الفنون الجميلة» والمشارك فى توجيه العديد من المؤسسات ومنها «الجمعية الزراعية الملكية» و«الجمعية الجغرافية الملكية» بعد ٢٨ عاما من الرحلات خارج مصر، فى روسيا والمانيا وفرنسا وأوربا وتركيا حتى عاد عام ١٩١٩ تلبية لنداء صديق الطفولة سعد زغلول باشا للمشاركة فى بناء الوفد المصرى، ثم أصبح بعد ذلك مستشارا للملك فؤاد ثم فاروق ومؤسسا «لمتحف الشمع المصرى» واصل ما أراده والدى، وأدخلنى إلى عالم الموسيقى الكلاسيكية والأوبرا وأيضا السيد درويش وأم كلثوم وعبدالوهاب، وفوق هذا وذاك محمود مختار وعالم التصوير والنحت والجمال فى عناق مع مصر المعاصرة وإلى جانبه عمى فريد، وكان من رجال طلعت حرب فى بنك مصر ومديرا لفرع البنك فى السعودية وعمى مجدى فى البنك العقارى المصرى وعمى فايز وهو الذى

واصل مسيرة الثورة في الثلاثينيات، ولكن هذه المرة من خلال «مصر الفتاة» و «مشروع القرش» لبناء الصناعة الوطنية وأخيرا خالى وديع زكى بك، الذى عينه السنهورى باشا أصغر مستشار فى مجلس الدولة عند إنشائه.

أحاطت بى الأسرة تحاول أن تسد فراغ وفاة والدى وصديقى الأعز، كانت الظروف الاقتصادية صعبة للغاية. وقد واجهتها والدتى بشجاعة. أصرت ألا تتزوج وهى فى مطلع شبابها لكى تعكف على إتمام الرسالة.

ومن حولى رجلان كانا أقرب المقربين إلى والدى: عمى «عبدالحليم البيلى بك» قائد جماعة «اليد السوداء» ومنه تعلمت الكثير عن تاريخ ثورة ١٩١٩.

ثم عمى الثانى الذى واكبنى حتى نهاية ١٩٥٨ قبل الخروج من مصر: «حافظ صدقى (باشا)» فلاح فقير من أم درمان جاء إلى أسوان ثم القاهرة على قدميه سعيا للرزق وكان قد تعلم فى الكتاب آيات القرآن الكريم، ثم دخل متطوعا في الجيش، فأرسله إلى «فيلق العمل المصرى» المعاون للجيش الانجليزى فى فلسطين والشام ضد تركيا. هناك استبسل حافظ صدقي، وكان أول جندى يرقى إلى مرتبة الملازم الثاني من تحت السلاح، وقد عرفته ضابطا عظيما تولى فى نهاية مساره

منصب كبير الياوران وقد علمنى مكانة الجيش المصرى فى تاريخ أمتنا المصرية وحركتها الوطنية، وقد علمت فيما بعد أنه كان استاذ التكتيك فى الكلية الحربية الذى تخرج على يديه العديد من صفوة «الضباط الأحرار» وعلى رأسهم جمال عبدالناصر.

كانت هذه مرحلة الولع بالقراءة، أقرأ كتابا كل يوم من خلال وبعد ساعات الدراسة التى كانت تنتهى السابعة مساء فى المدرسة. قرأت مئات بل مايقرب عدة آلاف من الكتب من الآداب الاوربية والفكر العالمى، وكذا كل ماكان متاحا آنذاك من كتب تاريخ مصر الفرعونية والقبطية والإسلامية ثم مصر المعاصرة منذ محمد على. اكتشفت «كتاب الموتى» و«مكسيم جوركى» ، «شكسبير» وأعلام الشعر العربى وكتب الرسل خاصة العهد الجديد والقرآن الكريم وكذا كونفوشيوس وغاندى، ومؤلفات الخيال العلمى لـ«جول ڤيرن» والرواية الواقعية عند «ديكنز» و «بلزاك» جنبا إلى جنب مع الرواية التاريخية الفلسفية عند «تولستوى» والمسرح العالمى الفرنسى والإنجليزى والإيطالى، وما تيسر من أجزاء «ألف ليلة وليلة» المتاحة للشباب آنذاك، كنت أحفظ آلاف الابيات من شعرائنا المصريين المعاصرين وقد حرصت والدتى على اصطحابى لمشاهدة «نجيب الريحانى» والاستماع إلى أغانى «السيد درويش» وكان من أصدقاء والدى المقربين أثناء الثورة ثم حفلات سيدة مصر الكبيرة «أم كلثوم».

هكذا بدأ شوط كسب العيش، أولا موظف فى «البنك الأهلى المصرى» فى مركزه الرئيسى (البنك المركزى حاليا) بقصر النيل من خريف ١٩٤٠ حتى ربيع ١٩٤٣. كنا نعمل نحو ١٢ ساعة يوميا فى ظروف الأحكام العرفية، ثم تحديد الإنارة ليلا بعد الغارات الجوية الألمانية على المطارات البريطانية ، وخاصة مطار ألماظة الحربى ثم انتقلت موظفا فى البنك العقارى المصرى ثلاث سنوات بالقسم القانونى (١٩٤٣ ـ ١٩٤٦).

كسب العيش صباحا. وبعد الظهر التحقت أربع سنوات لدراسة اللغة الانجليزية فى «المعهد البريطانى» بالقاهرة، فحصلت على إجازة الثانوية العامة البريطانية لجامعة لندن وكذا التوجيهية المصرية عام ١٩٤٤، وبدأت الاعداد سنتين لدرجة بكالوريوس الاقتصاد بالمراسلة لجامعة لندن فى نفس المعهد، مما أفادنى للتمكن من اللغة والثقافة الانجليزية بشكل متخصص، بعد التعمق فى الثقافة الفرنسية اثناء سنوات الدراسة السابقة.

بداية الحرب العالمية. الظلام يسود القاهرة والاسكندرية ومدن القنال. بدأت ألتهم الكتب السياسية والفلسفية، يمينا ويسارا، كما فعل على ما أعتقد معظم «الجيل الذى كان على موعد مع القدر» كان التساؤل هو : ما العمل؟ كيف يمكن الإفادة من صراع الدول الكبرى

لزعزعة قبضة الاستعمار البريطانى الحديدية على أرضنا، والقضاء على الاحتلال ؛ ثم، ما معنى التحرير، أو الاستقلال الحقيقى كما بدأنا نسميه آنذاك، بعد أن ثبت أن معاهدة ١٩٢٣ لم تمنع مصر من أن تصبح دولة تابعة للاحتلال الحربى والسيطرة الاقتصادية والسياسية للحليف البريطاني (كما كان يوصف رسميا آنذاك)؟ ما العلاقة بين الاستقلال الحقيقى والنظام الداخلى السياسي؟ كيف يمكن تأمين سيادة القانون وتمثيل إرادة الشعب فى البرلمان والحكم، وكذا دعم الاقتصاد المصرى، زراعة وصناعة ومالا؟ كيف يمكن، على وجه العجالة التجاوب مع مشاعر الشعب المتأججة ضد الاحتلال البريطاني، المرحبة بتقدم جيوش المانيا عبر الصحراء الغربية تحت شعار «إلى الأمام ياروميل!» من ناحية وبين ضرورة مساندة الدول الديمقراطية وحركات المقاومة في أوربا ضد النازية المحتلة لأراضيها؟ ثم ما العلاقة بين هذا كله وبين المعانى الكبرى التى أحاطت بتحرك مصر منذ منتصف القرن الثامن عشر وخاصة منذ محمد علي وثورة ١٨٨١ وثورة ١٩١٩ وما تلاها من وثبات ثورية شعبية حادة؟ وعلى وجه التحديد والتخصيص: ما العلاقة بين الثورة والنهضة؟

رحت ألتهم الكتب والمجلات فى كل اتجاه . كانت أمامى مكتبة هائلة دول علم المصريات وتاريخ مصر الحديث بفضل نسيبى الاستاذ الدكتور

«جرجس متى» وزملائه فى جامعة فؤاد الأول «سامى جبرا» و«مراد كامل» وكذا من خلال الجلوس إلى كبار أطباء مصر آنذاك المقربين إلى اسرتنا، الدكاترة «عبدالوهاب مورو» ، «على ابراهيم» و«فهمى البنياوى» كان هناك رافد جماعة «الخبز والحرية» أنور كامل، رمسيس يونان وصحبهما.

وكذا مكتبة نسيبى «سكيفيس سانتينى» ايطالى الجنسية اشتراكى التوجه صديق «أندريه مالرو» آنذاك فى هذه السنوات أى بين سنتى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢، اكتشفت الفلسفة فأحببت محاورات أفلاطون والفلسفة التساؤلية دون الفلسفة الإقرارية الجامدة. قرأت ماتيسر من كتابات «أبى العلاء المعرى والفارابى وابن سينا» واكتشفت مقدمة ابن خلدون العظيمة ـ وبها عبارات «مصر المحروسة» ، «مصر أم الدنيا» ـ وكذا فلسفة التاريخ عند «هيجل» . قرأت المجموعة الكاملة لـ«المجلة الفرنسية الجديدة» الشهرية. وكذا كتابات الموسوعيين الفرنسيين، ثم «ثراء الأمم» لآدم سميث. بدأت أتجه إلى كل مافيه رأى أو فكر تحريرى «جاريبالدى» وقادة ثورة ١٧٨٩ فى فرنسا، كتابات حرب الاستقلال الامريكية، وخاصة «فرانكلين» و «جيفرسون» ، سيرة «كرمويل» و «بسمارك» وفتح لى عمى فؤاد عبدالملك مكتبته النادرة فتعرفت على تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر فى مجلدات الدكتور «محمد صبرى» السوربونى.

ثم وفجأة عام ١٩٤١، عندما وجه هتلر جحافله ضد الاتحاد السوفييتي، بدأت أتكشف الفكر الاشتراكي بوجه عام والماركسي بوجه خاص. مختارات «كارل ماركس» لهنرى لوفيفر» كتابات ماركس وانجلز السياسية والفلسفية والتاريخية «البيان الشيوعى» كتابات لينين «الدولة والثورة» ثم ستالين وخاصة «الماركسية والمسألة الوطنية». وفجأة جاءنا كتاب الصحفى الامريكى الرائد «ادجار سنو»: «النجم الأحمر فوق الصين» (عام ١٩٣٨) وهو الكتاب الذى كشف للعالم حقيقة ثورة الصين التحريرية الكبرى بقيادة ماوتسى تونج «وشوثيه» وشوين لاى والحزب الشيوعى الصينى: التقى بهم فى مغارات «دينان» قاعدتهم فى الجبال النائية بعد «المسيرة الطويلة» لمدة سبع سنوات، قبل الانطلاق لتحرير الصين ودخول بكين معلنين اقامة جمهورية الصين الشعبية يوم الأول من اكتوبر ١٩٤٩، خمس المعمورة، تحت لواء الاشتراكية، إن هذا الكتاب الذى ترجم إلى أكثر من ٦٠ لغة وانتشر إلى ثلاثين مليون نسخة كان بمثابة المعلم الأكبر لفن «الدبلوماسية الشعبية» فهو الذى نحت فى الصخر طريق اعتراف الولايات المتحدة بالصين الاشتراكية، رغم كل العقبات ومواجهة السخرية والتهكم. كتاب له تاريخ، فقد صنع التاريخ. ثم، وعلى التوالى، مؤلفات شاب كان آنذاك فى نهاية الاربعينات من عمره يقود أعظم ثورة فى تاريخ الانسانية: «فى التناقض» ، «فى

الجدلية» ، «الديمقراطية الجديدة» ـ أعمال «ماوتسى تونج» باللغة الانجليزية فى القاهرة المحتلة فى بدايات الحرب العالمية.

اتضح الطريق. بدأ العمل

إن التنظيمات الشيوعية المصرية، التى استعادت منذ سنة ١٩٣٩ سيرة الحزب الشيوعى المصرى الأول المنحل، بدأت على صورة حلقات دراسية سياسية متعددة، تجمعت فيما بعد وخاصة منذ ١٩٤١ فى منظمات وطنية شاملة صبت فيما بعد فى اطار «الحزب الشيوعى المصرى» الثانى . وقد بدأت أجمع حلقة من الأصدقاء والزملاء فى شتاء ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ للدراسة الاشتراكية وسبل تحرير مصر، وكذا تبين معنى الحرب العالمية وكيف يمكن النفاذ من ثغراتها إلى ما نبغيه. حلقة من تسع زملاء مازال معظمهم والحمد لله يعملون على أرض مصر ـ يمنحونها العطاء كل فى جانبه، وإن شاء القدر أن يختفى الوجه المشرق الذى شاركنا فى هذه الحلقة منذ البداية فنانة مصر «إنجى افلاطون» وقد شاء القدر أن أكون بجانبها فى الأيام الأليمة الأخيرة فكانت ابتسامة حزينة فى عينيها، وكأنها تهيم صوب شباب مضى وتجلى. كان جوهر لقاءاتنا الأسبوعية هو الحوار بين القائلين بضرورة الانضباط الثورى والعمل الجماهيرى وبين دعاة العمل الثورى المباشر وكنا ننعتهم بـ «الفوضويين» كان أشدنا ثورية المرحوم (الدكتور) جمال العطيفى، ولكنه كان دوما يهتدى إلى موقف الاتزان والتوفيق بين الطرفين.

وفي اكتوبر ١٩٤٤، قررنا أن نتجه إلى ناد ثقافي ـ سياسي سمعنا أنه يتميز بمستوى رفيع من الوطنية والثورية والثقافة، فكان لقاؤنا مع «دار الابحاث العلمية» بعد ظهر يوم خميس من شهر اكتوبر ١٩٤٤، للاستماع إلى المحاضرة الاسبوعية، والمشاركة فى النقاش، وذلك بغية الـ «استيلاء» علي الدار.. كان المتحدث طويل القامة، متين البنيان، متمكنا من الاداء والنفاذ إلي عقول ووجدان الحاضرين، مبتسما دوما وساخرا عند اللزوم. شدنى فى حديثه نفس المنهج التساؤلى لمحاورات «أفلاطون». قالوا لنا إنه مقرر للجنة الادارة أى رئيس لـ «دار الابحاث العلمية» ، ولكنه كان متواضعا وشامخا فى آن واحد ، كان يعرض لكتاب رئيس الحزب الشيوعي الامريكى، «إيرل براودر» عن لقاء قادة الغرب والاتحاد السوفييتى فى «طهران» محبذا لتلاقى المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى الذى كان سيؤدى بعد سنة إلى اتفاقيتى طهران ويالطا، أى إلى إقامة القطبية الثنائية مركزا للعالم.

بدأت المناقشة تتابعت الأسئلة المحرجة الغاضبة، رغم استحسان الأغلبية لأفكار المؤلف وعرض المحاضر. وفجأة رأيتنى أقف أسائل وأتحدى:

ما هذا التهاون؟ أهذه اشتراكية؟ كيف نبرر تقسيم العالم، ونحن غير موجودين فى اللعبة ولا فى الحساب؟ احتد النقاش. ظل المحاضر

مهذبا مبتسما مالكا لزمام الموقف والقلوب. ازداد سخطى وكذا إعجابى. وبعد نهاية الجلسة، ذهبت أحييه فاستقبلنى بحرارة لن أنساها، ثم سألنى إن كنت على موعد هذا المساء وإلا فلنذهب معا لقضاء السهرة. ذهبنا إلى الحسين أولا لتذوق الكبدة المقلية طبقه المفضل، ثم عدنا نجوب القاهرة وسرنا على جانبى جسر قصر النيل من التاسعة مساء حتى شروق اليوم التالى. فتح قلبه. قص لى تاريخ حياته وكيف أنه قرر ترك بعثة الدكتوراه فى الفلسفة إلى جامعة «إكسيتيد» الانجليزية والعودة بآخر سفينة إلى بورسعيد عام ١٩٣٩ للعمل فى سبيل تحرير مصر. سألنى عن وجهتى فى الحياة، وكنت آنذاك أنوى دراسة الفلسفة ثم الذهاب للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس السوربون بعد الحرب، واذا به قبل الفجر بلحظات يضع يده فى يدى ويقول: «ولكننا الآن معا. هنا أرض المعركة. ولاشك عندى أننا سنكون معا لتحرير مصر. أما الدكتوراه، فلتؤجلها حتى ننتهى من الأمر. أليس كذلك؟ ..»

هكذا كان أول لقاء مع «شهدى عطية الشافعى» صديقا، معلما، قائدا، رائدا، فاتحا. هكذا تصورت أن اللقاء تم بين «ماوتسى تونج» الشاب و«شوثيه» قائد العصابات المسلحة ثم «شوين لاى» الارستقراطى خريج الاكاديمية الحربية ـ هكذا تصورت، كان لقاء كل من تلاقوا فى سبيل تحرير بلادهم والنفاذ إلى الغد.

وبعد أسابيع، أصبحت مرشحا في تنظيم منظمة «شرارة» (اسكوا) التي ركزت على تكوين الكادر القيادي للحركة الشيوعية المصرية، بينما كانت منظمة «الحركة المصرية للتحرر الوطني» تنهج نهج العمل الجماهيري أولا. كنا نتلقى سنتين من التكوين النظري والفكري والسياسي رفيع المستوى، ومن بعدها سنتين اضافيتين في مختلف التخصصات، على أن يدخل المرشح عضوا في التنظيم بعد قضاء الشهور الستة الأولى والاختيار السياسي وكان العمل العلني في «دار الابحاث العلمية» على قدم وساق تولاه في الاساس أعضاء منظمة «شرارة»: اجتماع كل من اللجان الاثنتي عشرة المتخصصة، من السياسة الخارجية إلى الاقتصاد، من الثقافة إلى التنظيم، لإعداد كادر الدولة البديلة المعنية بالتحرير والثورة والنهضة، المحاضرة الأسبوعية والمناقشة المفتوحة لجمهور الرواد يوم الخميس من كل أسبوع، اجتماع لجنة الادارة بعضوية مقرري اللجان الاثنتي عشرة ورئاسة مقرر لجنة الادارة رئيسا للدار، والكل منتخب بطريقة ديمقراطية بينما التنظيم السري الحديدي مركزي بطبيعة الأمر. كانت الدار آنذاك مركزا لأهم تجمع فكري - سياسي على أرض مصر، تجمع بين الشيوعيين وكل الفرق الوطنية، وكذا بين مختلف الأجيال. كان «اسماعيل الأزهري» ، والدكتور «محمد مندور» و «عصام الدين حفني ناصف» والدكتور «محمد

صبرى» السوربونى ثم «عزيز فهمى» من رواد يوم الخميس. كنا نستمع إليهم، نلتهم منهم الخبرة والمعرفة، وقد انصهرت الأجيال كما يقولون اليوم فى بوتقة واحدة تمزج بين صراحة المواجهة واحترام الخبرة والمقام - يديرها «شهدى عطية الشافعى» و «عبدالمعبود الجبيلى» بإيقاع صارم منفتح لم ينثن. ثم انطلقت الحركة الطلابية، والحركة العمالية العارمة فى عموم أنحاء مصر فى عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦، فكان انتخاب الاتحادات النقابية وكذا الطلابية ديمقراطيا، وكذا وعلى هذا الأساس انتخاب القيادة الوطنية لمصر الثورة أنذاك «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» عام ١٩٤٦، حول قادتها. «لطيفة الزيات، محمود العسكرى، جمال غالى ورفاقهم».

كانت تجتمع فى دارنا المتواضعة، ٩ شارع عبدالعزيز جاويش حى باب اللوق، وأنا بطبيعة الأمر غائب تماما حتى الثانية بعد منتصف الليل إذ لم أكن عضوا بها ولم أعلم بانعقادها إلا بعد أن تم حلها، وكذا كافة المنتديات والصحف الوطنية التقدمية يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦، عندما أعلن «إسماعيل صدقى» الحرب ضد «المؤامرة الشيوعية الكبرى».

كانت جبهة هذه الهيئات العاملة لبناء مصر الغد ستكون من: «دار الأبحاث العلمية» ، «لجنة نشر الثقافة الحديثة».

«اتحاد خريجى الجامعة» مجلة «الطليعة» مجلة «أم درمان» إلى

جانب عدد كبير من التشكيلات الأخرى، وقد تمحورت كلها حول «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة».

كانت هذه مرحلة صياغة الخط العام للحركة الوطنية المصرية ومصر المعاصرة قاطبة. وقد تولت الحركة الشيوعية المصرية مسئوليتها التاريخية بكل جدارة واقدام، ونجحت فى أن تطرح أركان المسألة المصرية ومحاور تحركها منذ مطلع الأربعينات حتى اليوم حول عدد من المفاهيم التكوينية التى لاتزال تؤرق الفكر والعمل على أرضنا المحروسة: التحرير، الاستقلال الاقتصادى، التنمية، السياسة الخارجية غير المنحازة، المتحالفة مع الحركات الوطنية، والقوى الاشتراكية ، الثقافة الوطنية ، النهضة الحضارية وقد عبر عن هذا الخط العام كتاب «أهدافنا الوطنية» بقلم «شهدى عطية الشافعى» و «عبدالمعبود الجبيلى» الذى واكب وثبة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى ربيع عام ١٩٤٦ وحدد مسار الخط العام الذى أصبح فيما بعد «ميثاق العمل الوطنى» (١٩٦٤).

كان لابد لهذا الخط العام من أداة التنفيذ لكى يصبح عملا محققا على أرض مصر: من هنا كان مفهوم «الجبهة الوطنية المتحدة» التى كنا نراها آنذاك تجمع بين العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين الجنود وصغار المنتجين والرأسمالية الوطنية بقيادة الطبقة العاملة المتحالفة مع

شباب مصر الطلابى، كما كنا ندرك ضرورة التلاقى مع جماهير التوجه الإسلامي، دون قيادة «الاخوان المسلمين» من هنا كان جلوسنا على حصيرة ميدان الحلمية الجديدة نستمع إلى تعاليم المرشد العام «حسن البنا» في ليلة الجمعة من كل أسبوع شهرا تلو الشهر لنتعرف على مشاعر وتوجهات إخواننا فى الوطن، وكذا إصدار كتاب «الإخوان المسلمون فى الميزان» الذى كشفت فيه «دار الأبحاث العلمية» النقاب عن تلاقى قيادة الإخوان المسلمين آنذاك بالمحتل البريطانى لمعاداة الشيوعية.

وبينما نحن فى هذا التأجج، كان لابد أن نحسب حساب العدو، بدأت موجات القمع فى يوليو ١٩٤٦. وكنت آنذاك آخر الذين تولوا منصب مقرر لجنة إدارة «لدار الأبحاث العلمية» عشرة أيام فقط بعد انتخابى يوم ١ يوليو ١٩٤٦، بعد زملائى «شهدى عطية الشافعى» و«عبدالمعبود الجبيلى» و «أحمد شكرى سالم» ثم «عبدالرحمن الناصر» وقد علمنا أن الاستعمار البريطانى يعد العدة لتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية على أرضها، مستهدفا بذلك ـ حسب ماكان مايصرح به رجاله علنا ـ كسر الحركة الوطنية وشطرها شطرين، إذ سوف يرفض الوطنيون تقسيم فلسطين، بينما يضطر الشيوعيون إلى قبول ذلك انسياقاً وراء قدوة الاتحاد السوفييتى.

وفى هذه الظروف، عرضت منظمة «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» بقيادة «هنرى كوريل» الوحدة على منظمة «شرارة». كان ذلك فى ربيع ١٩٤٧، وكنا نقترب رويدا رويدا من قرار تقسيم فلسطين فى ديسمبر ١٩٤٧، كان التنظيمان غير متجانسين كما ذكرت. اشتد الضغط على منظمة «شرارة» لقبول الوحدة الثنائية، بينما ظل التنظيم الثالث «طليعة العمال» على هامش هذه العملية. إذ كان من الواضح أن الهدف كان فى الأساس احتواء ثم امتصاص منظمة الكادر المرموقة . أى «شرارة» لحساب القيادة الشيوعية اليهودية التى أصبحت أكبر نصير لتقسيم فلسطين وإقامة الدولة الصهيونية بها منذ ديسمبر ١٩٤٧ حتى اليوم. عندئذ قررت اللجنة المركزية لمنظمة «شرارة» اجراء استفتاء لجميع مسئولى الأقسام بها (وكان القسم يجمع عدة فروع يتكون كل منها من عدة خلايا أعضاء ومن حولها عدد من مجموعات المرشحين) .

تم الاستفتاء فى شهر يونيه ١٩٤٦: وقد صوت ٥٥ من مسئولى الأقسام الـ ٥٦ مع قرار الوحدة، وانفرد مسئول قسم واحد برفض هذه الوحدة تحسبا لمخاطرها ، وقد كان لى شرف القيام بهذا الدور الصعب ربما نظرا لعمق مجال التكوين الوطنى والفكرى الذى عرضت له فيما سبق، أو ربما ابتداء من ليلة كوبرى قصر النيل...

تمت الوحدة فى يوليو ١٩٤٧، وخلال أسابيع، تبدى للجميع مخطط

«هنرى كوريل» لإذابة الكادر الثورى فى حركة تجمع بين مجموعة من الفئات (العمال، الفلاحين، المثقفين، الجيش، الطلبة، النساء ، الأجانب .... إلخ) بدلا من التنظيم الشيوعى التقليدى القائم على خلايا مؤسسات العمل وخلايا إقليم الاقامة توحدها لجان الفروع والمناطق حتى اللجنة المركزية. التنظيم الصهيونى لتفرقة الصفوف وتمكين القيادة من التلاعب بالمصالح المتناقضة، فى اللحظة التى بدأت فيها الطبول تدق معلنة قرب تقسيم فلسطين، وإقامة الدولة اليهودية على حدود أمن مصر.

كان لابد من التحرك. من هنا تم تشكيل «التكتل الثورى» بقيادة «شهدى عطية الشافعى» و «أنور عبدالملك» و «حسين الغمرى» و «سعد زهران».

بينما قاد «عبدالمعبود الجبيلى» و «أحمد شكرى سالم» المعارضة الشرعية داخل اللجنة المركزية. تم فصل جميع أعضاء «التكتل الثورى» من العضوية وكذا قرار تقسيم فلسطين فى ديسمبر ١٩٤٧.

بدأ العد التنازلى لأول حروب مصر ضد الدولة الصهيونية فى مايو ١٩٤٨.

بدأت أولى معارك الشيوعية الوطنية فى قلب الحركة الوطنية المصرية.

بدأ الإعداد للثورة والثورة المضادة. كانت لحظة الموعد مع القدر.

الفن والسياسة حدًّا

معالم طريقى فى الحياة

إيقاع التاريخ يتداخل هنا مع أركان التكوين ، وهذه الصفحات ليست «سيرة ذاتية» وإنما مسار فكرى وعملى يحاول أن يقدم بعض المداخل إلى تساؤل : كيف كان ما كان ؟ .

كانت الفلسفة ، ولا تزال ، مدرسة رئيسية لكل ما تم من فكر وعمل . وقد ذكرت بعض البدايات ، كانت مرحلة ١٩٤٨ - ١٩٥٦ هى الحاسمة فى هذا المجال .

بدأت أقرأ الفلسفة بشكل مكثف ، واكتشفت «هيجل» ومقولته «الحياة هى الموت» ، وكأنها من «كتاب الموتى» الفرعونى . ومنه إلى «ماركس» : «لقد اكتفى الفلاسفة حتى الآن بتفسير العالم ، وقد آن الأوان لتغييره» - إثنا عشر قرنا بعد التنزيل الحكيم ؛ قوله تعالى : **«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم»** الصلة العضوية التى لا تنفصم بين العمل بوصفه تحقيق وتجلى الفكر - دون التعليق على الهوامش والمكتبيات .

بعث الحكم الرجعى بمئات من التقدميين إلى معتقل «الطور» فى ١٥ مايو ١٩٤٨ (وكأنهم «مسئولون» عن تقسيم فلسطين ..) حتى ديسمبر ١٩٤٩ . عندما جاءت نتيجة الانتخابات بحزب الوفد إلى الحكم للمرة

الأخيرة رغم الطغيان ، شاء القدر أن أتمكن من الإفلات . فترة من العمل الدائب فى صفوف العمال ، بعيدا عن دوائر التحليل النظرى . أدركت حقيقة شعب مصر العامل ، وقسوة ظروفه المعيشية ، وتمسكه بقيم التضامن والبذل ، وحبه لأنس الوجود الإيمانى العميق بالله والوطن .. مدرسة لن أنساها ، لولاها لفاتنى قطار حقيقة الواقع المصرى ؛ وهى المدرسة التى أدين لها بأساس الخبرة العملية الميدانية لما أطلق عليها «شادى عبد السلام» العزيز النبيل بعد عودتى من المنفى ، أنه «إيقاع الشخصية المصرية» . أصر نسيبى الأستاذ الدكتور «جرجس متّى» أن أعود إلى الجامعة ؛ فكان أن قرر الأستاذ العميد الدكتور طه حسين - وزير المعارف آنذاك - أن يستثنى كاتب هذه السطور من الروتين فكان التحاقى بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة إبراهيم باشا الكبير «عين شمس فيما بعد» يوم إنشائها فى سبتمبر ١٩٥٠ حول عميدها رفيع المقام المؤرخ أ . د . «إبراهيم نصحى» كان هذا الموعد الحق مع الفلسفة .

قضيت أربع سنوات أتعلم من أستاذنا الجليل الدكتور «عبد الرحمن بدوى» ألتهم محاضراته ، والمراجع المواكبة ، أصطدم به كل يوم ثم يدعونى للجلوس إليه فى مكتبه للحديث فى كوم متراكم من الأسئلة .

ارتفعت العلاقة بين التلميذ وأستاذه إلى أرقى مستوى ؛ فإليه الفضل كل الفضل فيما أملكه من مبادىء المعرفة الفلسفية ، والبحث العلمى الدقيق ، والنظرة الموسوعية إلى عالم الفكر والثقافة الرحب ، تعلمت منه ، على وجه التخصيص ، أن واجب المفكر المصرى أن ينكب على أصول الفكر والثقافة الوطنية ، ليطورهما .

كان هذا المعنى الذى أنشأه الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مقدمة كتابه الرائد «مدخل إلى تاريخ الفلسفة الإسلامية» مغايرا تماما فى دراسة فلسفتنا وفكرنا «من خلال» فلسفة الغرب الإغريقية ثم الأوربية على وجه التخصيص .

من هنا فرض عليّ «عبد الرحمن بدوى» بعد أن تخرجت الأول من أولى دفعات ليسانس الآداب قسم الفلسفة «يونيه ١٩٥٤» أن أنصرف عن فكرة البحث فى فلسفة التاريخ عند هيجل ، وأن أكرس جهدى العلمى للتعمق فى دراسة الفكر المصرى ، بوصف هذا البحث واجبا وطنيا على المفكر المصرى . كانت هذه هى البداية الأولى لدراسة دكتوراه الدولة فى الآداب التى تمت بين ١٩٥٥ و ١٩٦٩ عن «تكون الايديولوچية فى نهضة مصر القومية (١٨٠٥ - ١٨٩٢) » ، (نهضة مصر فيما بعد) ولها قصة أخرى ، ألا وهى : التنقيب عن الأسباب التكوينية لذلك الصدام فى الظلام الذى دفع جمال عبد الناصر إلى

تفتيت وتدمير الحركة الشيوعية المصرية في معتقلات «أبي زعبل» (١٩٥٤ - ١٩٥٦) ثم «الواحات الخارجة» (١٩٥٩ - ١٩٦٤) - وكان نصيبي الأولى ، أن خرجت من مصر إلى المنفي ، تفاديا للحملة الثانية حيث تم التعذيب الجماعي واعدام ١١ شهيدا ، هذا ، وقد وجهني أستاذنا عبد الرحمن بدوى إلى إدراك الدور المركزي لـ «مارتن هايدجر» Heidegger في الفلسفة المعاصرة ، ومعه كوكبة من الفلاسفة الألمان، بدأت أقرأ لهم ، وخاصة «ما هي الميتافيزيقا؟» لـ «هايدجر» ، بدأت أتساءل وأتابع القراءة في الترجمات الفرنسية والانجليزية حتى أدركت جوهر الرسالة التي كنت أستشعرها في كتاب «طرق تؤدي إلى لا مكان» : «أن العقل هو أعدى أعداء الفكر» أي : أن الفكر في حاجة إلى سلوك عدة مناهج ومسالك ، ومنها مستوى العقل ، التحليل ، التركيب ؛ وكذا مستوى العيان الوجداني ، والإيمان ، ثم منهج واقعية الانجاز العلمي . مازال أستاذنا الجليل يعمل يوما بعد يوم في باريس بعد الكويت ، ينتج نحو أربعة مجلدات كل عام ، مازلت أستمع إليه في جلسات دافئة تجمع بيننا صباح الأحد أمام نهر «السين» حول الوجود والزمان ، ومصر ، دوما ، بداية ونهاية .

وكان لصديقنا الأستاذ «هنري لوفيفر» الفيلسوف الماركسي الفرنسي العظيم دور كبير مواكب خاصة في ثلاثيته «نقد الحياة

اليومية» . تعرفت على جيل كامل من الفلاسفة الوجوديين ، وخاصة «سارتر» و «دي بوفوار» وكذا أعلام فلسفة العلوم والماركسية النقدية «ديسانتي» و «جولدمان» خاصة ، أصدقاء المسيرة الفكرية .

لم أجد عند الوجوديين إلا الذاتية المتأصلة واعلان حسن النوايا ، بينما ذهب عبد الرحمن بدوى في رسالته «الزمان الوجودى» إلى الإشكالية الرئيسية في الفلسفة ، اشكالية الزمان ، دون التمركز على الذاتية المنغلقة . لم يتبق من هذه العشرة في باريس مع الوجوديين «١٩٥٩ - ١٩٦٤ » بمناسبة «لجنة الدفاع عن المعتقلين المصريين» إلا عبارة نيرة لـ «سيمون دي بوفوار» عن السعادة : «سعيد هو ذلك الذي يستطيع أن ينظر إلى حقيقة حياته وجها لوجه ، فيسعد بها ! سعيد ذلك الذي يستطيع أن يتبينها - أي حقيقة حياته - على وجه صديقه» .

ومن الفلسفة إلى الحضارة كنت قد التقيت بكتاب عنوانه «الزمان ، النهر المنعش» عام ١٩٤٣ في مكتبة الأنجلو المصرية لكاتبه «جوزيف نيدهام JOSEPH NEEDHAM» وكان ثمن الكتاب جنيهين وراتبي آنذاك عشرة جنيهات في الشهر ، فاشتريته إذ كان هاجسي آنذاك - ومازال - قضية الزمان في بحر الوجود . صفحات غير عادية : مزيج من التنقيب فى الاشتراكية ، فى الأديان ، فى حضارات الشرق ، فـ

العلاقة بين التحليل الفلسفى من ناحية وعلم الفيزيولوچيا والطد
ناحية أخرى . كتاب من سلالة فلسفة الطبيعة الانجليزية ولكن فى
الاشتراكية وتحرك شعوب الشرق التحريرى الثورى حول محور الا
- مصر ، وبدأت مراسلات مع المؤلف ، حتى دعانى إلى زيارته فى
Caiusj & gonville بجامعة «كمبريدج» وكان رئيسا للكلية آذ
كان لقاء الروح . رأيته منشغلا منذ ١٩٤١ بمشروع موسوعى جبار
«العلم والحضارة فى الصين» ، وهو المشروع الموازى لـ «الموسـ
البريطانية» : فهو يؤرخ لمركز الشرق الحضارى الرئيسى، الصد
بينما موسوعات الغرب تقدم معطيات النظرة الغربية للعالم . كانت
الزيارة بداية للتتلمذ على رجل يحتل الآن مقام «ديدرو» والموسوء
الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، وقد أحيا ، ومن حوله كوكبة
العلماء الشباب ، معنى الشرق الحضارى استنادا إلى أكبر مكتبة
علوم الصين وحضارتها أهدتها إليه حكومة الصين الشعبية برئا،
«شو اين لاى» ؛ وهى الآن الركن الأساسى لـ «مركز بحوث نيدهـ
بجامعة «كمبريدج» . حتى وافته المنية فى نهاية ١٩٩٣ .

مفاهيم الحركة الإفريقية

كنت قد التقيت أثناء الحرب بالمفكر الجزائرى «مالك بن نبى» ، لاج
آنذاك إلى مصر ، فقامت بيننا أواصر الصداقة خلال لقاءا؛

الأسبوعية ، تعرفت خلالها على مفاهيم الحركة الإفريقية – الآسيوية وخاصة الإسلام الحضارى العصرى .

ثم جاءت موجة تجديد الفكر اللاهوتي والحضارى فى الكنيسة الكاثوليكية بفضل الرئيس الأعلى السابق لهيئة اليسوعيين «پيدرو أروبيه» ،P.Arrupe وهو الذى وجه هيئته إلى لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية ابتداء من مفهوم تداخل الثقافات أو التثاقف incuet-uration لا تصارعها ، من خلال ما أسمى بـ «الحوار» ، مما دفع بابا روما الحالى إلى شن حملة ضارية ضد هيئة اليسوعيين انتهت بإصابة رئيسها آنذاك بشلل أودى به ؛ ثم تراجع نسبى لبابا روما أمام الإبداع الفكرى الرائد لأنداده .

تداخلت الدوائر، وأصبح البعد الحضارى هو الإطار الأعم ، وكذا المحور الرئيسى لأفكارى واجتهاداتى كلها منذ ذلك الحين .

وقد تم هذا التلاقى فى المرحلة التى عاودت فيها دراسة «رسالة التوحيد» للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، المصدر الأساسى للمرجعية الدينية المصرية المتحضرة فى العصر الحديث .

عشقى للفن

وخلال هذه الرحلة كنت دائم الهم والهيام بالموسيقى والأدب والتصوير والنحت والجمال ، معنى مشرق للحياة وخاصة عند تراكم

المآسي والمصاعب . باب واسع يصعب انتقاء من كان له دور في التكوين في مجاله بمعنى الكلمة . «المعلقات» ، في مطلع الدراسة مازالت ترن في وجداني ، وأحيانا في الأحلام . التراچيديا الكلاسيكية البطولية عند «كورني» Corneilee . «شيكسبير» ، التراچيديا والكوميديا والمسرحيات التاريخية ، بل وربما الشعر الرومانسي المرهف في المقام الأول . كان لكاتب روسيا المحورى «تشيكوف» أبلغ الأثر عليّ في مرحلة الثورة ، بوصفه كاتب تساؤل جماهير الشعب المغيبّة في روسيا أمام الغد القريب وإن كان غير محدد المعالم . وقد حاولت أن أنقل أفكاره ، في إحدى المسرحيات الإذاعية الإحدى عشرة التي أذيعت في البرنامج الثاني ، بفضل الزميلين «محمود مرسى» و «صلاح عز الدين» في ١٩٥٧ - ١٩٥٨ . لم أتأثر كثيرا بالرواية الواقعية الأوربية ، ثم استوقفني الروائي الفرنسي العظيم «مارتان دو جار» MARTIN DU GAR في المجلدات الـ ١٤ لرواية «أسرة تيبو» التي غاصت في أعماق حوار الأصالة والنفاق في البورجوازية الفرنسية والأوربية عبر حروب القرن العشرين .

كانت للموسيقي مكانة خاصة ، لا يقل سماعها عن ساعتين كل يوم ، إلا إذا تعذر الحصول على هذه المدة . تبحرت في الاستماع إلى البناء الرئيسى للموسيقى الكلاسيكية الغربية . وكذا الموشحات

وموسيقى يابان القديم ، وإيران وتركيا والموسيقى الدينية ، وذهبت إلى مئات من حفلات الأداء السيمفونية ، ثم الأوبرا «خاصة منذ ١٩٦٨». الاسماء تتزاحم ولعل قمة من تأثرت بهم «ريتشارد ڤاجنر» WAGNER ، قمة موسيقى ألمانيا وأوربا الرومانسية والفلسفية ؛ ومنه أدركت معنى إحياء التراث القومى - الثقافى العميق للأمة مع صراعات العصر .

أذكر بعميق التأثر الشاعر الروائى فيلسوف علم الجمال الفرنسى العظيم «لويس أراجون Aragon » سعدت بمواكبته بين ١٩٦١ - ١٩٧٣ ، كان حقيقة أميراً لشعراء هذا القرن ، أميرا فى مقامه وقامته، شديد التعلق بالحضارة العربية الأندلسية وكذا بمكانة الحزب الشيوعى الفرنسى فى المقاومة وتحرير بلاده ، علمنا أنه «لا يوجد شىء مؤكد للإنسان ، لا قوته ، ولا ضعفه ، ولا قلبه ، ليس ثمة حب سعيد» وكذا أنه على الإنسان «أن يظل ملكا لآلامه» - الإيجابية المأساوية على حد تعبير الكاتب المسرحى السوڤييتى المعاصر «فيشنيڤسكى» . كنا معا فى باريس دوما حول صديقى الأعز أثناء سنوات المنفى «١٩٥٩ - ١٩٧٣» ، الفنان والكاتب التركى العظيم «عابدين دينو Abidine » ، آخر سلالة أسرة «عابدين» (الذى جاء ضابطا شابا برتبة اليوزباشى مع قائده الشاب «محمد على» لحماية مصر من الفرنجة عام ١٨٠١ ، ومن ثم

أطلق اسم عابدين على ما أصبح فيما بعد قصر الوالى ثم الملك فى القاهرة) . كان مرسم عابدين فى باريس ، حتى رحيله منذ أشهر، يدا فى يد مع دارنا فى الحى الثالث عشر «بيت المصريين» ، ملتقى رجال الفكر والقلم ، والشخصيات السياسية العالمية ، وبفضله وإلى جواره تفتحت أمامى أبواب عالم الفن وخاصة التصوير العالمى من أوسع الأبواب ، منذ تعرفت عليه بواسطة صديقتنا المشتركة «أنچى افلاطون» فى ١٩٦١ ، ثم كان بعد ذلك خروج «ناظم حكمت» من سجون تركيا ، ثم المنفى فى الاتحاد السوڤييتى وكان هو وعابدين فى باريس يدا واحدة . أنشد ذات أمسية قصيدة «بور سعيد» فعبرت عن صدى عمله العظيم فى الوجدان المصرى ؛ طالبنى أن أقدم بعض الأمثلة فأنشدت قصيدة زميل النضال الشاعر الثورى الكبيرى «كمال عبد الحليم» :

«هذه أرضى أنا وأبى مات هنا وأبى قال لنا : مزقوا أعداءنا !» .

أيام حارة ، صاغت تواكب الرومانسية والثورية فى قطاع واسع من الفكر الفلسفى والسياسى فى الشرق المعاصر .

★★★

ثم مسرح الـ «نو» No الياباني : رحلة عبر الزمان الوجودى ، ميراث المسيرة الطويلة دونما تركيب ختامى ، تلاقى معانى مذهب

«زمين» البوذى ، فلسفة فئة «الساموراى» المحاربين مع التساؤل الفلسفى الإنسانى العالمى الرئيسى : حول الزمان والوجود .

الرواية الصينية المعاصرة حول عميدها «لوسين LUXUN » ؛ وبوجه خاص كاتبة بعيدة عن الأضواء ، نفذت إلى أعماق قلبى «لى تيين چين Li Tien Jien » فى ثلاثيتها «موجات فوق سطح المياه الهادئة» ملحمة فلاحة فاتنة عبر ثورة الـ «تايپنج Taiping» تحاصرها الخناجر وهيام الحساد ، ومن حولها تتدرج ملحمة شعب الصين بين ١٨٨٠ ، ١٩٢١ .

تتزاحم أسماء الذين صاغوا الوجدان : «السيد درويش» و«أم كلثوم» ؛ «عبد الرحمن الشرقاوى» . «عبد الرحمن الخميسى» ، «يوسف إدريس» ، «صلاح عبد الصبور» ثم السينما المصرية والعالمية (وقد كنت ناقدا سينمائيا لمجلة «الإذاعة» بين ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، تلبية لدعوة الأستاذ حلمى سلام) .

وهنا تبينت أن كل ثقافة أو أمة محددة يعبر عنها عدد نادر من الأفلام بل وأحيانا فيلم واحد ، وكأنه مفتاح لفهم خصوصيتها : «الساموراى السبع» ثم «كاجيموشا» اليابانى «أكيدو كوردزاوا» ؛ «السورجوم الأحمر» صداً للصين ؛ «أولاد الفردوس» لـ «كارنيه» الفرنسى ؛ «سينسو» الإيطالى «فيسكونتى» ؛ «الكسندر روبييوف» للروسى «تاركوفسكى» ؛ «باتر بنشالى» للهندى «ستيا جيت راى» .

وعلى أرضنـــا المحروسـة ، وكيف لا ، اسـاتذة كـبـار المخـرجين «صـلاح ابو سـيف» ؛ «هنرى بركـات» ، «يوسف شـاهين» ، حـتى قـمـة «شـادى عبد السـلام» المتـفـردة «المومياء» ومن قـبلها وبعـدها «الفلاح الفصيح» حتى «جيوش الشمس» ملحمة حرب اكتوبر : إيقاع الشخصية المصرية .

★★★

● ماذا عن السياسة ، فكرا وعملا ؟

هنا أيضـا زحـام ، تميـز من بينه عـدد قليل ممن صـاغـوا أفكارى وتوجـهاتى . دعـاء «رمسيس الثانى» فى معركة «قـادش» قبل أن يكسر الحصـار ، ويسـتولى على بلاد الحطيين ، دون إهانتـهم ولا التنكر له ، رائدا للامـبـراطورية الفـرعـونيـة الكبـرى . «أنطونيـو جـرامـشى» GRAMSCI ، الذى طور الماركسية إلى مفهوم الجبهة باستعمال أفكار «المثقف العضوى» وكذا «الحزب بوصفه العقل الجماعى للشعب والأمة» – وقد أهديت له أول مـجلد من عملى النظرى «الجدلية الاجتماعية» – ومن بعده «بيرلنجوير» الذى فتح الطريق أمـام «المهادنة التاريخية» بين الشيوعية والكاثوليكية فى إيطاليا . وخلال ، وعبر هذا التكوين كله أذكر «مـاو تسى تونج» تـعلمت ، تعلمنا منه . «أن التناقض جـوهر الوجـود» ؛ أن الجبهة الوطنية المتحدة تعلو على أى اعتبار حزبى ضيق ، أن الخط

الجماهيرى العام والمسيرة الطويلة ، دون سيادة التكتيك وانتهاز الفرص هو التوجه الوحيد الجدير بصياغة العالم الجديد. أن الفلسفة هى المحور الرئيسي لتحريك السياسة ؛ وأن السياسة تنطلق من الكفاح المسلح التحريرى ؛ أن الشعر والجمال والحب معان ثابتة يجب الاعتزاز بها . فوق هذا وذاك أن من يسعى إلى التقدم يجب أن يتعلم كيف يناضل لكى لا ينحنى مقام أمته أولا وقبل كل شىء - جوهر خطبته التاريخية فى ميدان «تين آن مين» Tien An Men يوم ١ أكتوبر ١٩٤٩ معلنا تحرير الصين وتأسيس «جمهورية الصين الشعبية» نفس الفكر الذى تبناه «شهدى عطية الشافعى» وصحبه على أرض مصر فى موكب بدأ مع «محمد على» و «ابراهيم» ، ثم «محمد عبيد» وشهداء معركة التل الكبير ، «محمد فريد» ، و «عبد الرحمن فهمى» ، و «سعد زغلول» ، و «جمال عبد الناصر ».

انطلق «ماو تسى تونج» من تعاليم أستاذه «صون تزو» SUN Tzu الذى استطاع من خلال مؤلفه «فن الحرب» (القرن الخامس قبل الميلاد) أن يهدى أمراء الصين إلى طريق وحدة الامبراطورية :

«ليس أعلى مقام فى المهارة أن تقهر قوات العدو مائة مرة فى مائة معركة وإنما قمة المهارة تكمن فى : أن تقهر استراتيجية العدو» . بداية الحرب السياسية «يد المسيرة الطويلة » ..

كتاب لم يفارقني يوما منذ طالعته عام ١٩٧٠ وقد تمت ترجمته إلى العربية فى بيروت عام ١٩٧٣ وانتشر فى الكليات العسكرية العربية وإن ظل بعيدا عن اهتمامات المثقفين المتغربين .

أعود بالذاكرة إلى «كتاب الموتى» وهو حقيقة أول من سطر مفهوم الحياة البعدية ، وهو مصدر أساسى للتوحيد فيما تلاه من ديانات الكتاب الثلاث في دائرة مصر الحضارية . يواجه الانسان بعد وفاته ، يوم الحساب : «أيا قلبى الذى جاءنى من أمى ! أيا قلبى الذى جاءنى من أمى ! أيا قلبى الذى من مراحل عمرى المختلفة !! لا تقف ضدى شاهدا . لا تعارضنى فى ساحة المحكمة ، لا تعادنى أمام ذلك الذى يمسك بالميزان ! .. » ؛ ثم يتلو «اعلان البراءة أمام المحكمة» ، وبها قائمة كل المزلات التى يجب نبذها ، سلم قيمى كنت أسمعه أيام الطفولة ثم الشباب ، وظل يرن فى وجدانى أحاول الاقتراب منه ؛ رغم المزلات والأخطاء .

فإن نجح الإنسان فى الامتحان ، هكذا يمضى نص «آنى» الرئيس لـ «كتاب الموتى» يأتى إليه قول المحكمة :

«قف فلن تفنى ، لقد نوديت باسمك ، ولقد بعثت من جديد .. » .

والحق أن كل ما تم - يدا فى يد مع الاحياء والراحلين الشهداء ،

وخاصة جيل الشيوعيين المصريين الذين كانوا على متفرع اجتهاداتهم وساما من ذهب على صدر حركتنا الوطنية المصرية - وكان ، ولا يزال إسهاما متواضعا فى مرحلة تغيير العالم تحقيقا للرسائل الثلاث ، بفضل السيدة الجليلة والدتى . لولاها لما حييت .

لولاها - سيدة رفيعة المقام من أرض مصر ، «ست الناس» كما كنت أداعبها - لما أمكن أن يكون ما سوف يشاء الله أن يكون .

د. حامد عمار

بين الصدفة والمعاناة والتمدرس
(مرحلة الطفولة)

فى أحضان الجبل بصخوره الرملية وترسباته الطفلية ، وفى مطلع السنة الأولى من الخماسية الثانية لهذا القرن كان مسقط رأسى بقرية سلوا فى موقع منتصف من مديرية (محافظة) أسوان. واذا كانت المديرية بأكملها فى ذلك الزمان فى شبه عزلة عن بقية أجزاء المملكة المصرية ، محرومة ومنفى للمغضوب عليهم والضالين فى نظر الحكم ، فإن قرية سلوا كانت قمة العزلة والحرمان والنسيان . لم يكن يصلها مع القريب من القرى والبنادر إلا ركائب الحمير ، ومع البعيد من الحواضر والعاصمة سوى قطار (القشاش) الذى يقف على محطتها مرة فى اليوم ، والذى يخضع له الزمن ليقف على كافة المحطات الأخرى ، والحسرة تملأ صدور (السلاوية) لأن (المفتخر) السريع لا يأبه لمحطتهم فى غدوه ورواحه .

وفيما وراء شريط سكة الحديد تمتد حقول المزارع بطينها الخصب حتى شاطىء البحر (النيل) الشرقى ، والذى تخنقه دون هوادة جبال الصحراء الغربية ومن ثم ضاقت الرقعة الخصيبة مصدر الرزق وقوت العيال . والنيل بترعه ومساقيه كان منبع الرى للطين والبشر ، ولم تقتصر خصوبته على ما كان يمنح الأرض من بشائر الخير بفيضانه ومائه ، وإنما كان فوق ذلك - كما كان منذ أيام الفراعنة - ملاذا للخصوبة الزوجية يقصده (العرسان) ليلة الزفاف أو كلما تأخرت بشائر الحمل ، ومع ذلك فقد كان النيل مثيرا للمتاعب المترتبة على نقل مياه الشرب مملوءة فى الجرار الفخارية (البلاليص) على ظهور الحمير أو الجمال لمسافة تتجاوز أربعة كيلو مترات . وكانت مشقة الصبايا أشد فى ورود الماء حين تحمل الواحدة منهن البلاص على رأسها فى تلك المسافة . بيد أن تلك الرحلة والتى قد تغدو مهمة يومية لبعضهن ، لا تخلو أحيانا من قدر من الترويح والتهوية حين يغادرن جدران البيت ، وتتم الدردشة وتبادل الاخبار والنميمة فى فضاء (الموردة) التى اصطلح طريق جلب الماء على تسميته .

نظام الفِردة

وكان من بين متاعب النيل ما عرف بنظام (الفِردة) والمرتبطة بصيانة الترع وشاطىء النيل من مخاطر الفيضان . وفحوى هذا النظام أنه يقوم على اختيار عدد محدد من (الأنفار) لحراسة الشواطىء

وجوانب الترع والقيام بصيانتها وتعليتها حين تزمجر مياه النيل وتطغى في موسم الصيف ، يصل التنبيه الى مقر العمدة ليرسل الى مواقع معينة ذلك العدد المحدد من قريته ليتولى تلك المهمات ، وكان على العمدة ومشايخ (الحصص) من خلال الحوار الصاخب مع رؤساء القبائل من ملاك الأطيان الذين تتألف منهم القرية تعيين العدد المطلوب من كل قبيلة حسب حجمها ، وكثيرا ما كانت الأهواء تتدخل فى معايير التعيين . وكان معظم طاقم الفِردة من فقراء القرية أو من ذوى الملكيات الصغيرة أو من العمال الزراعيين ، ولم يكن أمامهم من سبيل للرفض أو التمرد إذ أن مصير ذلك كان السجن أو الغرامة فى أحسن الأحوال .

وكانت (الفردة) عملا يقوم على السخرة دون أجر . وكانت أيام اختيارها والانتظام فى القيام بها من المواسم الكئيبة فى القرية . وكنت فى طفولتى وحتى بدايات مرحلة تعليمى الثانوى معايشا لأحداثها مستشعرا أحاسيس غامضة نحو قسوتها وما يتخللها من مظالم وجبروت . ولا أنسى أنه عندما كان استاذ التاريخ يشرح لنا كيف تم حفر قناة السويس عن طريق سخرة العمل من فلاحى مصر ، وكيف تعرضوا لقسوة العمل حتى الموت ، انطلق لسانى مقاطعا (هذا يا أستاذ ما كان يحدث فى نظام الفردة فى قريتنا) واستحسن الاستاذ تلك الملاحظة وأثنى عليها .

ولعلي لا أكون مبالغا ان قلت أن معايشة نظام الفردة كان له اثر عميق رسخته المعرفة وأنضجه الوعى فيما بعد بقيمة العدل فى حياة البشر . ولعل تشجيع الاستاذ قد ألقى بذرة من البذور الأولى فى العلاقة بين المقروء والخطاب النظرى من ناحية وبين معطيات الواقع ، فضلا عن ضرورة التنظير المباشر من مفردات الواقع وحركته مما أحرص على اصطناعه كمنهج من أهم مناهج التفكير والتفسير والتفعيل .

وأعود لاستكمال أهم الملامح المميزة لقرية سلوا التى عايشتها وتأثرت بها خلال ايام الطفولة والشباب . لم يتجاوز عدد سكان القرية فى أوائل العشرينيات ثلاثة آلاف ، وقد تنامى العدد حاليا حيث يقدر بحوالى عشرين ألفا ، وكان يحيط بها مجموعة من النجوع مرتبطة بها اداريا لوجود (نقطة البوليس) فى سلوا . والعمل الرئيسى الذى كان يقوم به حوالى ٩٩ فى المائة من السكان كان الزراعة . باستثناء ثلاث عائلات تعمل فى التجارة من بقالة وأقمشة . والملكيات الزراعية صغيرة للغاية ، حجمها فدان فى المتوسط ، وما بين طرفى خمسة أفدنة وبضعة قراريط للعائلة التى يبلغ عدد أفرادها ستة فى المتوسط . كذلك كان يهاجر بعض الافراد للعمل فى القاهرة والاسكندرية ، وأطلق عليهم (مصراوية) للاشتغال فى أعمال الحراسة أو الخدمة فى المنازل أو المقاهى .

سلوا تعتمد على نفسها

والقرية فى جملتها كانت تمثل نمطا من أنماط ما يعرف بالاكتفاء الذاتى واقتصاد الكفاف . تأكل مما تزرع من خبز الذرة الرفيعة والشعير ولم تكن تعرف من غموس الخضراوات إلا الملوخية والويكة (البامية) والقرطم مع اللبن والمِش . أما خبز القمح فهو فى المناسبات وللضيوف مع لحم الدجاج أو الحمام الذى يربى فى البيوت . كذلك لا يعرف أكل اللحم الضانى إلا يوم السبت الذى ينعقد فيه السوق والذى يأتى اليه الجزارون من المدينة كما يفد اليه تجار الأقمشة ، ويتم فيه بيع المواشى والدواجن ويسعد فيه بعض الاطفال بشراء الفول السودانى والحمص والحلوى . وكانت القرية تستخدم الزيت مما يتم عصره من زيت السمسم والخس فى معصرة العمدة . وكانت تنسج اغطيتها وزعابيطها (لباس الرجال الشتوى) وملاءات النساء من صوف غنمها لدى نساج القرية . ولم تكن تستورد من السلع الا الشاى وقمع السكر والسجائر والصابون والجاز وأقمشة المحلة الكبرى، وكلها من الانتاج الوطنى . وكان الشراء يتم أحيانا بالمقايضة عن طريق الشراء بالحبوب أو البيض أو الدواجن . وبناء المساكن من أحجار الجبال وطين الارض ، وسقوفها من جذوع النخيل وجريده ، وكذلك الاسِرّة من خشب النخيل والاشجار وليفها ، ومخازن الغلال من الطين وكذلك الصحون

والمواجير . والخلاصة ان ثقافة القرية المادية وسلعها المحدودة كانت سلعا محلية الى جانب ما يأتى من المدينة يوم السوق أو فى المتاجر ، ولم تعرف قط سلعا مستوردة من خارج مصر .

كذلك الشأن فى مجال الخدمات ، لم تعرف القرية حتى الاربعينيات الوحدة الصحية ، ولم تعرف من الدواء الا أعشاب الشيح والحرجل وحلف البر والحجامة والبن للجروح . ولم يكن فيها من المؤسسات التعليمية الا الكتاب ، واحدا فى الناحية الشرقية وآخر فى الناحية الجنوبية ، الى جانب المدرسة الالزامية الحكومية للبنين والبنات . أما الخدمات الترويحية فكانت ألعابا تقليدية : المصارعة والكرة الشراب وسباق الجرى والحجلة برجل واحدة . وكان الاطفال يصنعون ألعابهم من الطين يشكلون به نماذج للحمير والخيل والابقار واشكالا من البوص، كما كان البنات يصنعن الاطباق من سعف النخيل . ولقد كان يوما تاريخيا حين جاء صراف القرية ، وهو من أهالى جرجا ، بذلك الساحر الصوتى (الجرامافون) وتجمع حوله حشد غفير من الاطفال والشباب والرجال ليسمعوا غناء شجيا يصدر من تلك الآلة . ولم يكن القوم يعرفون أيا من أسماء المغنين ، وما كان يعنيهم ذلك كثيرا حيث اكتفوا باغانيهم المرتجلة المرددة (لما قابلنى وسلم عليّ .. سلم عليّ) وسط نقر الطبول ودق الدفوف والكفوف .

الصدمة الثقافية

لكن تلك الآلة المغنية أحدثت لدىَّ - وأنا لم أتجاوز الخامسة من عمرى - أول صدمة ثقافية . وكانت كذلك بالنسبة لمن استمعوا اليها ، وقد تردد بينهم تعقيبا عليها فيما بعد (يا ألله !!! الخواجات ما غلبهم إلا الموت) . واختزنت تلك المقولة فى عقلى الباطن حتى انطلقت حين قرأ لنا استاذنا الجليل محمد شفيق غربال من تاريخ الجبرتى تعليق هذا المؤرخ عند زيارته للمعمل العلمى الذى أنشأته الحملة الفرنسية بعد مجيئها الى مصر بما يشير الى ما أصابه من صدمة ثقافية حين عبر عن ذلك بأنه رأى عجبا وشاهد أعمالا (لا قِبل لأمثالنا بها) على حد تعبيره . ولا بأس من الاستطراد هنا لأشير الى أن كثيرا من أساتذتنا فى كلية الآداب (جامعة الملك فؤاد الأول إذ ذاك) كانوا يحضرون معهم المراجع الاصلية أو المهمة يقرأون منها فقرات حثا لنا على الاطلاع عليها حتى لا نقتصر على كتب جامعية معينة . ولم نعرف فى تلك الأيام كتبا أو مذكرات مقررة ، وان وجدت فقد كانت نادرة وغير مقررة .

كاتب القرية

والحديث عن مصادر المعرفة فى القرية يتركز حول المشافهة التى تنقل التقاليد والأعراف والمواصفات المصطلح عليها من تراث الآباء والأجداد ، وقليلا من أحوال المدينة وطرائفها ممن يترددون عليها أو

من ابناء (المصراوية) وهم يحكون لنا أحوال القاهرة والاسكندرية . ولم تكن القرية تعرف من الكتب الا المصحف الشريف ، وكتيبات تحوى بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعضا من كتب الفقه والتوحيد ، وكانت فى حوزة عدد قليل من أهل القرية يعدون على أصابع اليدين ممن يتقنون القراءة ويحفظون القرآن . ولا عجب فقد كانت الأمية مصدرا للتماثل بين القوم كما كانت أزياؤهم . ولم يكن عدد القراء فى طفولتى يتجاوز المائة بمن فيهم من يقرأون قراءة عاجزة . ولقد كان من حظى ان يكون والدى (رحمه الله وطيب مثواه)متقنا للقراءة والكتابة ، حسن الخط ، قدير التعبير حتى كان كاتب القرية المفضل فى التواصل مع (الحكام) فى تحرير الشكاوى والمطالب ، وفى اللقاءات معهم حين يفدون اليها لماما .

وأذكر أنه لم تعرف القرية الصحف إلا الجريدة التى كانت يفرضها الحزب الحاكم منذ الثلاثينيات على العمدة ، لكنها أخذت فى الانتشار لدى بعض الناس منذ بداية الحرب العالمية الثانية ، وكان والدى يشترى الاهرام ، وان لم يكن بانتظام ، مما أتاح لى الاطلاع على مجريات الحرب والتحدث عنها فى مجالس الأهل ، ومنذ أن أتقنت القراءة كان والدى يشجعنى على المشاركة فى الاحتفال بليلة المولد النبوى عن طريق قراءة سيرة مولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى كتاب اسمه (السيرة للمناوى).

وقد كانت تلك المشاركة في (منضرة / دوار) العائلة مجالا لتلقى الدعوات والثناء لى من المستمعين من الأهل لما تميزت به قراءاتى من وضوح وأنا أكمل العاشرة من العمر . وذلك كان مبلغ ما توافر لدى من مصادر المعرفة في نطاق القرية من كتب ، وحتي التحاقي بالمدرسة الثانوية لم أعرف قصص الأطفال ولا كتب الروايات أو التاريخ أو أى كتب للثقافة العامة ، باستثناء الكتب الدراسية المقررة في المرحلة الابتدائية . لقد كان مناخ القرية الثقافى فى عزلته وبتأثير ضيق ذات اليد قائما بثقافته الدينية المحدودة ، ومعتزا بمعارفه وخبراته في الفلاحة وحكاياته المتوارثة.

ذلكم هو السياق الثقافى الريفي الذى عايشته وتشكلت بأنماطه وصيغه ومدخلاته قبل أن تشاء الصدف أن أذهب الي المدينة ، لقد كان لانعدام المعرفة بقواعد الصحة ولسوء التغذية أن رافقتنى النحافة والتباين الواضح بين الطول والوزن حسب المعايير والمقننات الطبية حتى اليوم . وقد حذرنى من ذلك الطبيب السياسى عضو الحزب الوطنى القديم الدكتور محجوب ثابت اثناء الكشف الطبى لدخول الجامعة وأوصانى بأن أشرب فنجانا من السمن البلدى كل صباح !! وغلف معارفى ذلك التوجه الدينى الايمانى الذى قرأته في تلك الكتب الصفراء والتى حفظت بعض مسلماتها دون فهم حقيقى . وكانت

أحاديث القرية ومسئوليات التنشئة من وظيفة (المرسال) لقضاء الحاجات وغيرها من الواجبات المحددة هى مصادر الخبرة . وكان الأدب والطاعة واحترام الكبير والاجتهاد فى الفلاحة ورعاية الماشية أهم سمات الغلام الصالح ؛ ولذلك لم أنقطع عن المشاركة الحقيقية فى العمليات الزراعية أثناء عطلة الصيف حتى نهاية دراستى الجامعية فى مصر .

الكُتَّاب .. البداية

وفى ذلك المحيط الريفى كان الكُتَّاب أول مراحل التعليم والتهذيب . ومن حسن الحظ ان الكتاب الذى التحقت به فى سن الخامسة لم يبعد عن بيتنا الا بضعة أمتار . وهو لا يختلف عن النمط الشائع الذى رسمه طه حسين فى الايام . وكان شيخه الضرير يعتمد على العريف فى تنظيمه وادارته ، يقوم بتلك المهمة تطوعا وأجره عند الله تعالى ، ويمثل هذا الكتاب الذى عرف باسم (الخلوة) صورة للاكتفاء الذاتى ، ألواحه خشبية تمسح الكتابة عليه بالماء ، وتعاد بتغطية سطحه بطبقة خفيفة من الطفلة ، ويكتب عليه بقلم البوص من ساق نبات الذرة ، بحبر مصنوع فى البيت من هباب المصباح الذى تخبز عليه الفطائر مضافا اليها بذور القرض من الاشجار ، ومصروفاته رغيف ذرة أو شعير تقدم للشيخ كل يوم أو يومين حسب حالة أسرة المتعلم ، ورغيف القمح عند حفظ بعض الأجزاء من القرآن الكريم ، وأوقاته مرتبطة بمواقيت الصلوات ، والتى

لم تحكمها عقارب الساعة التى لم تكن قد عرفت بعد ، وإنما كان امتداد الظل أو انكساره هو المؤشر لتحديد الوقت.

وكان التعليم كما هو معروف مقتصرا على حفظ القرآن الكريم وعلى تعلم الحروف تسميعا وكتابة ، وقد تمكنت خلال السنتين فى الكتاب من اكمال جزء (عم) ومن اكتساب مهارة محدودة فى القراءة والكتابة . وكان العريف بين الحين والآخر يقص علينا قصصا طريفة نحفظ من خلالها بعض الآيات الكريمة . منها قصة العمدة الذى عزم أربعة من حفظة القرآن على العشاء ، وكان على صينية الأكل بطة كبيرة ، وطلب العمدة ألا يأخذ أحد نصيبه من البطة إلا بعد أن يأتى بآية قرآنية بها اسم ذلك الجزء . تعجل أولهم بقوله (**بسم الله الرحمن الرحيم : فك رقبة**) فأخذ الرقبة ، وقال الثانى : (**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**) فأخذ الجناح، وقال الثالث (**رب اشرح لى صدرى**) فأخذ الصدر ، أما الرابع فلم يفتح الله عليه بشيء ... وأشار عليه العمدة بأن ينام معه فى (المنضرة)فإذا تذكر آية فعليه أن يوقظه ويتلو الآية ليأخذ ما يناسبها . نام القوم لكن الشيخ الرابع لم يرد النوم عليه وتحرق شوقا لبقية البطة ، فقام والتهم ما تبقى ، فلما استيقظ العمدة فى الصباح عنف الشيخ على عدم التزامه بما اتفق عليه من شرط لكن الشيخ بادره (**بسم الله الرحمن**

الرحيم : فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) . وأذكر كذلك قصة المرأة المتحدثة بالقرآن أى التى لا تجيب عن أى سؤال إلا بآية قرآنية كريمة ، وهى فى طريقها الى الحج ؛ ومن أمثلة تلك القصة حين تسأل : ما اسمك فتقول (بسم الله الرحمن الرحيم . واذكر فى الكتاب مريم) وما اسم اكبر ابنائك (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) هل ترغبين فى بعض الطعام (إنى نذرت للرحمن صوما) وأين تقصدين (ولله على الناس حج البيت) وكيف تعرفين الطريق (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وتستمر قصة المرأة المتحدثة لتجيب عن الاسئلة فى عشرين آية كنا نحفظها الى جانب ما نحفظ من ألواحنا المقررة . ومقصد استطرادى هنا هو التأكيد على دور القصة والسياق المتصل بالواقع المفهوم أو المبهر فى تخيله وقيمته بالنسبة للتعلم فى مرحلة الطفولة .

الطاعة والالتزام

وعندما بلغت السادسة جمعت بين المدرسة الالزامية صباحا والكتاب بعد الظهر . وكانت تلك المدرسة قد أنشئت فى القرية منذ ثلاث سنوات تطبيقا لقانون التعليم الالزامى الصادر عام ١٩٢٤ ، ومدتها اربع سنوات ، ولا يقود الانتهاء منها الى أى من مراحل التعليم الحديث ، وكان مدرسوها من المدن المجاورة ، معظمهم متبرم بعمله فى هذه

القرية التى تقسو الحياة فيها ، وأتذكر أن أحد المدرسين طالما أسقط علينا تذمره بالضرب والتخويف ، ولا أنسى تلك المسألة الحسابية الشفهية والتى يطلب منا حلها فى العبارة التالية (أمك سممتك (أطعمتك) بيضتين الصبح ، ثم سممتك أربع بيضات الضهر ، يبقى اتسممت كام بيضة ؟) . واذا تأخرنا فى الاجابة عنفنا الاستاذ بقوله (بلادكم قرف) . وكان علينا أن نصمت وأن نطيع . وكأنما استوعب الاستاذ الهدف من انشاء المدارس الالزامية اذ ذاك كما تشير احدى الوثائق الرسمية وهو تعليم أهل الريف الطاعة والتزامهم بموقعهم الاجتماعى . وكأنما كان الطيب الصالح فى روايته (موسم الهجرة الى الشمال) يعكس ذلك الهدف حين أشار الى أنهم يرسلوننا الى المدارس لكى نقول لهم نعم)!!

وتأتى المصادفة الخارقة حين التقى والدى (رحمه الله) بأحد المدرسين من مدينة ادفو ، وتباحثا فى شأن مستواى فى التحصيل ، فأثنى هذا المدرس (وهو غير مدرس التسمم المشار اليه) عليّ ثناء جما ، ونصح بأن أكمل تعليمى فى المدرسة الابتدائية فى بندر إدفو ، وأن سنى سوف تكون مناسبة مع بلوغى السابعة وأننى سوف أنجح فى امتحان القبول ، وتساءل الوالد عمن يرعى هذا الغلام الصغير فى الغربة . وكان الاستاذ كريما بأن تعهد بأن أقيم مع أسرة والده التى ستعتبرنى أحد أبنائها .

ولست أذكر ما انتابنى من مشاعر عندما أبلغت بهذا القرار . وكل ما أذكره أن والدى قال لى ان من يحصل على الشهادة من هذه المدرسة سوف تمنحه الحكومة لقب (أفندى) ولم تجد والدتى (رحمها الله) تعبيرا عن موقفها غير ما كانت تدعو به طوال حياتى الدراسية (ربنا يبارك أقلامك ، ويوتق حزامك ويعلى مقامك).

وفى خريف عام ١٩٢٧ / ١٩٢٨ ركبت القطار لأول مرة مع والدى متجها الى مدينة ادفو ، حيث نجحت فى امتحان القبول ، وفى الكشف الطبى ، الذى حيرتنى فيه تلك الحلقات وفتحاتها ، ولم أتحقق من المطلوب الا بعد شرح الطبيب الذى لم يدرك الفجوة الثقافية بينى وبينه . وبدأت الدراسة فى مدرسة (الأفندية) وأنهيت عامى بترتيب من العشرة الأوائل . لكن تلك السنة لا أذكر منها ما تميز عن تمدرسى السابق إلا قص الورق الملون أشكالا وأنواعا ولصقه على كراسة طويلة ، كما أذكر استخدامى للأقلام الملونة (الكرايون) فى رسم الجزيرة وشبه الجزيرة والصحراء بالألوان الخضراء والزرقاء والصفراء . كذلك أذكر معاناتى فى الغربة ومشقة الاعتماد على نفسى فى استكمال احتياجاتى من الطعام وغسل الملابس ، وطول المسافة من حجرتى فوق السطوح الى المدرسة ذهابا وايابا . وكانت العودة من القرية الى المدرسة بعد العطلة مجالا للتعبير بالدموع عن تلك المعاناة .

وشعر والدى بما أقاسى ، وبالصدفة البحتة التقى بأحد مقاولى البناء فى القرية وتباحث معه فى شأنى ، فاقترح عليه أن أنتقل الى المدرسة الابتدائية فى العاصمة أسوان . ولم يكن فى مديرية أسوان كلها فى ذلك الوقت إلا ثلاث مدارس ابتدائية . والتحقت بمدرسة أسوان فى السنة الثانية واستقر بى النوى فى ضيافة أحد نجارى المراكب فى حى شعبى اسمه الشنقراب على الحافة الشرقية للمدينة ، حيث تقيم فى الصحراء الممتدة بعده قبائل البشارية التى كانت تتردد على المدينة بلباسها الملفلف وشعرها الأشعث ، مما كان يثير الاستغراب والتفكه لدى سكان الحى . وكنت تلميذا مجتهدا خلال السنوات الثلاث أكثر راحة وأوفر تكيفا . واستمتعت الى جانب الدراسة بالاشتراك فى (القسم المخصوص) وهو فريق الجمباز بالمدرسة . ومع ذلك فالبيئة المنزلية فقيرة فى ثقافتها الا من أحاديث (القفطلة والنجارة) للسفن ، لا كتب غير الكتب المدرسية ، لا صحف ولا سينما (حيث لم تكن موجودة أصلا فى المدينة). وكانت مغامراتى الترويحية فى الذهاب الى مشاهدة الخزان كما كانت (البربا) أو معبد ادفو فى السنة السابقة .

أفراح النجاح

بيد أن السنة الرابعة كانت مليئة بمجالات الاشباع والثقة بالنفس .

فقد حصلت ضمن المتميزين فى القسم المخصوص على (منبه) أول آلة تكنولوجية أمتلكها . كذلك تم اختيارى لكى ألقى كلمة التلاميذ فى الحفل الختامى الذى أقامته المدرسة فى نهاية العام ، وكانت مكافأتى ساعة جيب (ماركة تاڤانس) ممثلة للآلة التكنولوجية الثانية التى امتلكتها . ولعل والدى كان أكثر سعادة منى بما أحرزت ، وازدادت سعادتنا حين كان ترتيبى أول المدرسة ، وهو ترتيب (١٨٠) فى القطر من حوالى (٧) آلاف فيما أتذكر . وهكذا كنت أول تلميذ من القرية يذهب الى المدرسة الابتدائية ويحصل على الشهادة الابتدائية ليلقبه أهل القرية (وليس الحكومة) بلقب أفندى تمييزا عن لقب (الشيخ) السائد فيها . وانعقدت الأفراح والتهانى فى منضرة العائلة ، والكل يتساءل ماذا سيحدث بعد ذلك لتعليم هذا الغلام ؟ .. هل سيتوقف عند هذا الحد ، أم أنه سيواصل المرحلة الثانوية التى لا توجد لها مدرسة فى مديرية اسوان كلها ؟ .. واذا كانت مصاريف المدرسة الابتدائية والاقامة لم تتجاوز ثلاثة جنيهات فى الشهر ، فهل يستطيع والده أن ينفق عليه مدة خمس سنوات فى محافظة أخرى وبتكاليف باهظة للتعليم الثانوى ؟ . على أننى لم أكن واعيا بتلك الأبعاد ، وكنت مستغرقا فى فرحتى بما حققت ، وبما انفتح أمام عقلى وشخصيتى من آفاق جديدة وثقة بالنفس ودخول فى عالم الأفندية .

بدايات النضج

لقد كنت فخوراً بأنني أول تلميذ من قرية سلوا بمديرية أسوان يخترق عزلة القرية وفقر الموارد والبيئة ليحصل على الشهادة الابتدائية وينفذ إلى مدارس الأغنياء بمصروفاتها وتكاليفها المعيشية . وهأنذا أتطلع إلى المدرسة الثانوية التى لم تكن موجودة إلا فى عواصم المحافظات بدءا من محافظة قنا ، لكن مصروفاتها باهظة (٢٠) جنيها للخارجى ، (٤٠) جنيهاً للداخلى ، وكانت أقرب المدارس الداخلية فى سوهاج .

وكانت مصروفات المدرسة الداخلية تعادل إذ ذاك ثمن فدان من الأرض الزراعية الخصبة . وتتدخل المصادفة مرة أخرى ليصدر من وزارة المعارف – تيسيرا لطلاب أسوان ، منذ العام الفائت – قرار بأن يدفعوا ربع المصروفات فى أى مرحلة دراسية ، أى عشرة جنيهات ، ربع فدان . وملكيتنا فدانان وأربعة قراريط وستة أسهم . لكن قرار التضحية من الوالدين كان قد اتخذ ؛ لأن على العبد التدبير وعلى الله التيسير .

والتحقت بمدرسة الملك فؤاد الأول الثانوية بسوهاج ، ودفعنا القسط الأول كاملاً مع الرسوم (١٢) جنيها حتى يتم اعتماد انتمائى إلى مديرية أسوان ، والنظر فى طلب المجانية الموثق بدرجات التفوق ومعه

(شهادة الفقر) معتمدة من العمدة والمشايخ وخاتم المديرية . وتمت الموافقة على المجانية ، ورد إلى القسط المدفوع فبعثت إلى والدى بعشرة جنيهات واحتفظت بالجنيهين . وأذكر أننى اشتريت منهما كتاب «النظرات والعبرات» للمنفلوطى وأحد كتب الرحلات لمحمد ثابت وكتاب حدائق الإنشاء (لا أذكر مؤلفه) وكانت هذه الكتب الأربعة أول نواة لمكتبة خاصة وقراءة حرة . وسددت من الباقى ثمن الناموسية وأكياس المخدات والملايات وكيس الغسيل الذى كان مفروضاً أن يتحمله الطالب ، وهى أشياء حضارية لم يكن لى خبرة بها أو باستخداماتها من قبل .

التفوق .. الثقة بالنفس

وكانت هذه المدرسة بالنسبة لى واحة فيحاء ، مقارنة بما عانيته من حياة فى المدرسة الابتدائية . طعاما جيدا منتظما ، ونوما مريحا ، ومجالات متنوعة للرياضة ، وأوقات منظمة للاستذكار ، وأساتذة مصريين من أعلى المستويات ، كان من بينهم من أصبح رئيساً لجامعة عين شمس ورئيساً لتحرير مجلة الجازيت المصرية ، فضلاً عن أساتذة من بريطانيا وفرنسا . ومع هذه الراحة والنشوة كانت تنتابنى أحيانا مشاعر النقص وسط الغالبية العظمى من الطلاب الموسرين من أبناء كبار ملاك الأطيان وكبار الموظفين والتجار . وكان زيى يشى بتواضع

حالتى لكن تفوقى الدراسى كان سنداً لثقتى بالنفس ولتقدير الزملاء والمدرسين . ولقد ولدت مشاعر التباين الاجتماعى قدراً من ميكانيزم الاقتحام التعويضى ، وبخاصة فى مجال الألعاب الرياضية التى كانت ممارساتها عن طريق اشتراك نقدى خاص ، وكنت أقحم نفسى إقحاماً لأشارك في تلك الألعاب كلعبة تنس الطاولة وكرة القدم والسلة والتنس أحيانا . وقد انتهى بى المطاف بعد سنتين إلى أن أصبحت فى الفريق الأول للمدرسة فى تنس الطاولة وفى كرة القدم والسلة وذلك دون تكلفة أو رسم اشتراك .

وكانت المجانية تمنح على أساس التفوق فى كل سنة مقرونا بشهادة تثبت استمرار حالة الفقر ، وكان ذلك شأنى خلال سنوات الدراسة . لكن تكاليف الحياة الأخرى وبخاصة الملابس والسفر ومصروف الجيب اقتضت فى السنتين الثانية والثالثة تضحية ببيع بعض ما يملك الوالد من أرض وبما لدى الوالدة من كردان الذهب . ونجحت فى السنة الثالثة بتفوق فى شهادة الكفاءة ، واخترت الشعبة الأدبية فى السنتين الرابعة والخامسة لما كان معروفاً عنها بأنها مدخل للقيادات السياسية فى ذلك الحين . وتأتى السنة الأخيرة الخامسة (١٩٣٦ - ١٩٣٧) وهى سنة التقدم لشهادة البكالوريا ، لتتفاقم الأزمة المالية فى مصر ، وتلغى المجانية من المدارس مهما كانت أوضاع الطلاب . ودفع الوالد القسط

الأول بعد تضحية أخرى من بيع الأرض . وتأتى المصادفة مرة أخرى ليمن الله على الملك فؤاد بالشفاء إثر عملية جراحية ، فيصدر منحته بإعفاء العشرة الأوائل فى كل مرحلة تعليمية من المصروفات . وهكذا كان فضل الله علىّ عظيماً .

جنيه واحد شهرياً

ولمصروف الجيب منذ السنة الثالثة بالمدرسة حتى نهاية تعليمى الجامعى مصادفة أخرى سعيدة . ففى صيف عام ١٩٣٣ أثناء العطلة الصيفية يزور القرية مدير المديرية . وكان ذلك حدثا مهيبا يتطلب خطيباً يرحب بالضيف الكبير ويشكره على تشريفه لديارنا . ووقع الاختيار على (الافندى) الوحيد من أهل القرية . وألقيت خطابى لابساً جلبابى الريفى وعمامتى الصعيدية . وتساءل المدير عن هذا الفتى الفلاح ، فقيل له إنه طالب من القرية وحاصل على شهادة الكفاءة وقد جاءت المعلومة مفاجأة للبيه المدير ، فاستوثق من العمدة عن صحة كونى من أبناء القرية ثم استدعانى ليعلن تشجيعه لى ، وليطلب من مجلس المديرية أن يمنحنى مكافأة كانت جنيها كل شهر ، زيدت إلى جنيهين عندما التحقت بالجامعة .

وكان الجو الاجتماعى والعلمى والسياسى خصباً ومخصباً خلال سنوات الدراسة الخمس . نمت صداقات ومنافسات ، واحتدمت

مناقشات ، وعقدت مناظرات ، وأتيحت لى فرص واسعة لقراءة الصحف والمجلات مما كنت أشتريه أحيانا ، أو أستعيره من الغير أحيانا أخرى. وكانت الصحف والمجلات الحزبية وبخاصة صحيفة البلاغ الوفدية والصرخة لمصر الفتاة والسياسة للأحرار الدستوريين من أكثرها انتشاراً بين الطلاب ، وأشدها إثارة للجدل واللجاجة بينهم . وقد كان من بين أهم قراءاتي الحرة الكتيبات التى كان يصدرها حزب مصر الفتاة عن الشخصيات الاسلامية والقيادات الوطنية لأهمية موضوعاتها ورخص ثمنها . ولما كانت لغة الحزب شديدة متوهجة فى مقاومة الاحتلال البريطانى وفى تشجيع الصناعة الوطنية فيما عرف بمشروع القرش وصناعة الطربوش محليا ، فقد كنت من بين المتطوعين لتوزيع طوابع القرش بالقرية خلال العطلة الصيفية ، كما حظيت باستقبال عدد من المرشحين لعضوية مجلسى النواب والشيوخ من مختلف الأحزاب والحديث معهم فى منضرتنا بالقرية . ومن خلال أحداث الحركة الوطنية والحزبية بدأت تتبلور لدى بعض الاهتمامات بالقضايا السياسية التى كانت تموج بها الساحة المصرية والمحلية فى ذلك الحين ؛ وكانت هى الأيام التى كنا نردد فيها نشيد مصر الخالد (اسلمى يا مصر إننى الفدا) تتعالى به طبقات اصواتنا وتندفع معه قبضات أيدينا .

وأذكر للمدرسة الثانوية ومدرسيها القيام بواجبهم بكل الأمانة

والجهد فى إحكام عملية التعليم والتعلم ، وحفزنا على الجد والاجتهاد ، فلم نعرف الدروس الخصوصية على الإطلاق . وتخرج فى المدرسة عديد من أوائل الطلاب فى شهادة البكالوريا ، ولقد جاء ترتيبى السادس فى القطر فى تلك الشهادة دون أن يصيبنى قلق أو توتر رغم أن انعقاد الامتحان العام كان يتم فى مدرسة أسيوط الثانوية لعدد من مدارس الصعيد ، كذلك كان للنظام المحكم أثره فى فاعلية العملية التعليمية وكفاءتها ، فما قفز طالب فوق الأسوار ، وما تخلف عن المدرسة دون تقديم عذر مكتوب من ولى الأمر أو من طبيب . كذلك وفرت المدرسة اهتماماً خاصاً بالمتفوقين ، فكانت تصرف لهم كتابين أو ثلاثة لقراءتها خلال العطلة الصيفية وتقديم ملخصات عنها . أذكر هنا قراءتى من خلال هذا الأسلوب كتاب : على هامش السيرة (جـ١) لطه حسين ، ومازلت أحفظ بعض عباراته ذات الايقاع الشعرى (كان عبد المطلب سمح الطبع ، رضى النفس ، حلو العشرة ، عذب الحديث – وعاش تبع ما شاء الله له أن يعيش ، ومات حين قضى الله عليه بالموت) . ومن بين قراءاتى من كتب ذلك الاجراء كتاب فؤاد صروف ، «أساطين العلم الحديث» ، و«ابراهيم الكاتب» لعبد القادر المازنى ، وقصة «زينب» لمحمد حسين هيكل ، و«محمد الانسان الكامل» لجاد المولى ، و«مجنون ليلى» لشوقى ، وغيرها من الكتب التى لم تكن ذات اليد ميسورة لشرائها فى

تلك الفترة لولا اهتمام المدرسة . وكنا نرد الكتب سليمة إلى المدرسة فى أوائل العام مع ما سجلناه من ملخصات لها كانت موضع مناقشة مع الأساتذة المعنيين . وأتساءل : هل يمكن لمدارسنا وجامعاتنا أن تقوم بمثل هذا الإجراء البسيط ، اهتماماً بالفائقين حتى تنمو طاقاتهم إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه ؟ .

ويبقى فى الذاكرة من فترة الدراسة الثانوية حدثان مهمان كان لهما تأثير خاص .

أولهما زيارة الأستاذ على الجارم ، كبير مفتشى اللغة العربية للمدرسة ، وكانت الحصة التى جاء فيها إلى فصلنا درساً فى متن اللغة حيث كنا نتعرف على المرادفات للفظ معين ، وما يرتبط به من تعبيرات نثرية أو شعرية . وكان اللفظ وقتها متصلا بصفة مسرور ومغتبط وجَذِل . وشارك الجارم فى الشرح وأضاف إلى صفة جذل الواردة فى الكتاب صفة جذلان ، كما ورد فى قول الشاعر :

من سالم الناس يسلم من غوائلهم
وبات وهو قرير العين جذلان

وأردف قائلا بأن الكتاب المقرر لا يحوى كل المعرفة ، وإنما هو بدايتها ، وعلينا أن نستكمل معارفنا من كتب وقراءات إضافية . أتذكر هذا الإيحاء مقارنا بما يسود اليوم من الالتزام الحرفى بالمقرر تدريسا

وامتحانا . وأليس هذا هو مضمون ما نردده من أهداف التعليم وما تسعى الوزارة حالياً إلى تأكيده من أهمية التعليم الذاتى ؟ .

والحدث الثانى كان زيارة فاروق ولى العهد وأمير الصعيد لمدرستنا وتدريب مجموعة من الطلاب على مقطوعة زجلية لإنشادها فى حضرته مطلعها :

أيا نعسه وخبرينى يا بوى عا النور دا جاى منين

دا النور لعلط فى عينى يا أبوى وحياة سيدنا الحسين .

واحتفالا بتلك المناسبة تستمر المقطوعة :

وطبخنا مهلبيه وعطينا للجيران

فرقنا الطحينيه ، واضحك لى يا زمان

عيقولوا دمقرطانى ، ويحب الناس كتير

لقيتك بحر طامى ، يروى حاجة الفقير

وعلى أثر الاحتفال احتدم النقاش بين الطلاب حول مصداقية ذلك الزجل ، ونوع النفاق الذى تضمنه .. ومع ابتهاجى بالمشاركة فى تلك المناسبة الملوكية ، إلا أن النقاش قد أشعرنى بما يمكن أن يكون من فجوة بين الخطاب الرسمى ومجريات الواقع وأحواله منذ ذلك التاريخ .

وتنتهى المدرسة الثانوية بالحصول على شهادة البكالوريا التى أذاعت الصحف أسماء العشرة الأوائل فيها وكان لظهور اسمى من بينهم وقع عميق لدي ولدى والدي ، بل وللقرية كلها . وبدأنا على الفور نتلمس الطريق إلي جامعة الملك فؤاد الأول فى القاهرة عام ١٩٣٧ ، ويبدأ التفكير فى هموم المصروفات والنفقات ، وقد قررت الالتحاق بكلية الآداب لأن مصروفاتها عشرون جنيها تقل عن الحقوق بعشرة جنيهات ، وطرقنا أبواب المجانية مع التفوق وشهادة الفقر ، ويسر الله لنا بعد سداد القسط الأول واستقرت الإقامة مع اثنين من بندر أسوان فى شقة بالجيزة ، وتطوع والد أحد الزميلين وكان من كبار تجار أسوان بدفع الإيجار الشهرى للشقة ، والتحقت بقسم التاريخ بعد السنة الأولى التى كانت مقرراتها عامة لجميع الأقسام . ومنذ السنة الأولى فتح لى الأساتذة طاقات من الفكر والتفكير لاتزال تمثل رصيداً هائلا من رأسمالى العلمى .. ويكفى أن أذكر أسماء أولئك الأساتذة الاجلاء ممن لم تكن لهم كتب مقررة مع سعة ما أنتجوه : ابراهيم بيومى مدكور ، أبو العلا عفيفى ، سليمان حزين ، مصطفى عامر ، محمد عوض محمد ، عبد المنعم الشرقاوى ، محمد شفيق غربال ، عزيز عطية سوريال ، محمد مصطفى زيادة ، عبد الحميد العبادى ، أحمد بدوى ، سامى جبره ، باهور لبيب ، عزت عبد الكريم ، حسن ابراهيم حسن ، ابراهيم

نصحى ، سهير القلماوى ، شوقى ضيف . هذا إلى جانب ما كنا نختلسه من أوقات لسماع طه حسين وأحمد أمين ممن كانوا يدرسون لطلاب الصفوف المتقدمة فى قسم اللغة العربية .

وبدأت الاستمتاع بأسلوب المحاضرة الجامعية ، وبتدوين المذكرات فى الكشاكيل . وتشاء المصادفة أن تتوثق العلاقة فى السنة الأولى مع المرحوم الاستاذ عبد المنعم الصاوى - الذى أصبح وزيراً للثقافة فيما بعد - وكنت كثيرا ما أجلس بجواره فى المحاضرات العامة فى السنة الأولى . وكان من طرائفه أن يقوم بتثمين بعض العبارات أو الألفاظ التى يقول بها الاستاذ المحاضر بين حدين من القيمة ؛ فهذه الكلمة تساوى قرشاً ، وتلك العبارة تساوى شلنا ، وكان الحوار يدور بيننا بعد المحاضرة فيما نختلف عليه من تقييم . ولقد تجاوز تقديرنا للشلن فى محاضرات الدكتور حزين ، متعه الله بالصحة وأدام عطاءه ، حيث كانت الجغرافيا العسيرة تتحول إلى أسلوب سلس يصك فيه الاستاذ الجليل مصطلحات جديدة كالحركات التكتونية والأخاديد والمداخل الجربية والبرارى وغير ذلك مما أسهم فى تعريب هذا العلم .

المكتبة والامتياز

وفتحت المكتبة أبوابها للإطلاع على هدى ما كان يوصى به

الاساتذة ، وكان أمناء المكتبة على استعداد دائم لتقديم العون لكل طالب ، وكانوا خير مرشد للمراجع المتصلة بالمقررات أو كتابة المقالات سواء من الكتب أو دوائر المعارف ، وما كان مسموحاً بقراءته داخل المكتبة أو ما يسمح بإعارته . وقد كانت المكتبة موئل طلاب الامتياز على وجه الخصوص ممن يحصلون على تقدير امتياز خلال سنوات الدراسة منذ السنة الثانية حتى نهاية السنة الرابعة ، فيمنحون درجة الليسانس الممتازة ، وكانوا يدرسون مقررات إضافية إلى جانب المقررات العامة . وقد أسعدنى الحظ وواتانى الجهد لأكون من بين طلبة الامتياز . وقد شاركتنى فى ذلك زميلة فاضلة هى الاستاذة الدكتورة سيدة الكاشف أستاذة التاريخ الاسلامى بجامعة عين شمس . وأذكر أن الاستاذ شفيق غربال قد أهدى كلا منا بعض الكتب تشجيعا لاستمرارنا فى التميز ، ومن بين ما أعتز به من ذلك الإهداء كتاب الجبرتى : عجائب الآثار، الذى سجل فيه تاريخ مصر أثناء الحملة الفرنسية وعصر محمد على. وأتساءل مرة أخرى : أى تشجيع وتقدير يلقاه الطلاب الممتازون من أساتذة جامعاتنا الاثنتى عشرة فى هذه الأيام ، وهل تقدم لهم مناهج اضافية تحفز طاقاتهم لمزيد من التحصيل والاستيعاب ؟ وأتساءل كذلك أليست المكتبة وتوظيفها الأمثل لكل من الطلاب والأساتذة هى نصف الثلث الأول من وظائف الجامعة ، وأعنى به وظيفة التعليم والتعلم

فضلا عن كونها عنصراً فعالاً فى وظيفتيها الأخريين ، البحث العلمى وخدمة المجتمع وما تتضمنه من اشعاع ثقافى . وما أفقر مكتباتنا فى هذه الأيام ! وما أقل من يترددون عليها كذلك !

وفى الجامعة ترسخت على مدى سنواتها قيمة التواصل مع الجنس الآخر ، وتقدير إمكاناته وطاقاته المتكافئة مع الذكور حين ألفيت ما لزميلتى فى قسم الامتياز من عقل راجح وشخصية واثقة معتزة وقدرة على المثابرة والتفوق ، وكان غيرها كثيرات من المتفوقات على زملائهن فى أقسام أخرى . وفى الجامعة أيضا بدأ تذوق الطلبة الريفيين من أمثالى لطعم الفنون ، وبخاصة المسرح والموسيقى . أذكر الدكتور محمد مندور ، وقد أحضر الجرامافون ليسمعنا فى فترة الظهيرة اسطوانات لموسيقى بيتهوفن وباخ وتشايكوفسكى وموزارت ، شارحاً لنا ما بها من حركات وايقاعات وهارمونى وما تستخدمه الاوركسترا من آلات . وبدأنا الاستماع من قبيل حب الاستطلاع ، ولم تنته تلك الجلسات حتى تكون لدينا إدراك لقيمة تلك الكلاسيكيات من الموسيقى وقدرة على تذوقها والاستمتاع بها .

ولا يفوتنى ما تذوقته من طعوم الحرية الأكاديمية خلال الفترة الجامعية . أناقش الدكتور حسن ابراهيم حسن فى إشارته لمرجعى نيكلسون ونللينو فى هامش حديثه عن عام الفيل ؛ وأنه كانت تكفيه

الاشارة إلى سيرة ابن هشام ، دون حاجة إلى مراجع أجنبية لأن ذلك الحدث أمر تعلمناه فى الكتاب ويعرفه جميع المسلمين . وبرحابة صدر يقول : معك الحق ، ولعلي أردت أن أشجعك على الاطلاع على هذين المصدرين . ويتحدث الدكتور ابراهيم نصحى عن الرخاء الذى كانت تنعم به مصر أثناء عصر البطالسة ، فأسأله : أى فئة كانت تنعم بذلك الرخاء ؟ .. ألم تكن غالبية الشعب المصرى مسخرة لخدمة الحكام البطالسة وطبقة التجار الاغريق ، أما بقية سكان مصر فقد كان شأنهم كما يقول الشاعر :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والماء فــوق ظهــورها محمول

فيضحك بعض الطلبة فى المدرج لهذا الشعر فى محاضرة عن التاريخ اليونانى ، وتأتى استجابة الاستاذ ثناء عليّ ، وعلى ثقافتى الأدبية التى كونت لدى هذا الوعى التاريخى الناقد .

أما زاد سلسلة اقرأ ومجلتى الرسالة والثقافة (وثمن كل منهما قرشان) فكان ثقافة جامعية أخرى . وقد بهرتنى جزالة لفظ الزيات وايقاعاته الموسيقية ، وسلاسة طه حسين وثقافته العريضة العميقة ، ووضوح أحمد أمين ووهج صياغته وتشبيهاته ، وكذلك استمتعت بما كان يكتبه فريد أبو حديد ، واسماعيل مظهر ، وبملاحم سيد قطب ومصطفى

صادق الرافعي والعقاد . ومازلت أذكر مقالين في الثقافة أولهما بقلم عبد الحميد العبادى يعتب على أحمد أمين تسميته لأول خلفاء بني العباس باسم السفاح ، وبالوثائق التاريخية يشير إلى أن ذلك اللقب إنما أطلقه الحاقدون على قيام تلك الخلافة ، ويرجو من أحمد أمين ، مذكرا (لقد كنت قاضياً زمناً ما) أن ينصف ذلك الخليفة ، ويجيء رد أحمد أمين رداً كريماً مقدراً تلك الملاحظة وواعداً باستقصاء الحقيقة في ضوء ما أشار إليه زميله الاستاذ الجامعي المؤرخ . وتلك كانت سمات الحرية الأكاديمية بين الاساتذة والطلاب وبين الاساتذة أنفسهم . ولم ينتفخ الاساتذة استعلاء على طلابهم ، بل لم يبخلوا عليهم بما يستحقونه من ثناء مفجر لطاقاتهم ، وأذكر ما قاله طه حسين في مناقشة رسالة عبد الرحمن بدوى مثنيا على جهده (وأن ما أحدثته في عالم الفلسفة مناظر لما أحدثه كوبرنيكس في عالم الفلك) .

بيد أن كل هذه الأجواء العلمية والاجتماعية والقيمية ، لم تحل شواغلها وأنشطتها عن المشاركة في صخب الحياة السياسية وتموجاتها . وكانت القضية الوطنية متمحورة حول إجلاء القوات البريطانية عن مصر ، ويمثلها شعار (الاستقلال التام أو الموت الزؤام) وكانت كليتا الآداب والحقوق ومدرجاتهما ساحات للحوار السياسى عامة والمعارك الحزبية خاصة ، كما قدمت الآداب شهيديها مرسى والجراحى . واحتدمت المظاهرات في الحرم الجامعي وخارجه . ولقد

أثرى ثقافتى السياسية ما عايشته من خبرة مع معظم الأحزاب والجماعات السياسية فى فترة الجامعة ، خصوصاً بعد أن تلاطمت أمواجها مع قيام الحرب العالمية الثانية . ومع انتهاء المرحلة الجامعية يقودنا الطريق إلى معهد التربية للمعلمين ، ضماناً للتوظف ، فإذا بنا نصل إلى آفاق معرفية جديدة وإلى عمالقة من الأساتذة فى علوم التربية وعلم النفس ، وبفضلهم استقرت تلك العلوم وأصبحت لها قيمتها فى الدوائر العلمية الجامعية فيما بعد ، حين تحول المعهد إلى كلية ثم كليات للتربية فى الجامعات المصرية . وعلى يدى الاساتذة اسماعيل القبانى والدكتور عبد العزيز القوصى ومحمد فؤاد جلال انكشفت أمامى ساحات جديدة للمعرفة والتنظير والتطبيق والهوايات .

وقد أتاح لى عملى بالمدرسة النموذجية بحدائق القبة أن أسجل لدراسة الماجستير فى التاريخ مع الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وكان موضوع الرسالة (علاقة مصر المملوكية بالدول الافريقية) وانتهيت منها عام ١٩٤٥ ، وغصت خلالها فى كتابات المقريزى وأبو المحاسن ابن تغرى بردى والسيوطى وابن خلدون وابن اياس وابن بطوطة وغيرهم كثير . ومن المراجع الأجنبية جاستون فيت وكاترمير ، وبدج وهوجين وغيرهم ممن أرخوا لتلك الفترة ، وقد عدت إلى مراجعة هذه الرسالة فى أوائل هذا العام فألفيتها جديرة بالنشر ، ولعلها تظهر إلى الوجود فى الأشهر القليلة القادمة . وقد اكتشفت أثناء عملى بها مخطوطة فى دار

الكتب بعنوان (التعريف بابن خلدون) ورجحت أنه كاتبها ، وهى جديرة بالتحرير والنشر.

ولقد تعلمت من أســتاذى الدكتور زيادة قيمة الإحكام فى الكتابة من خلال تدريبــات متكررة فى كتابة الفصل الأول ، كما علمنى التدقيق فى الأحكام وفى تقيـيم المراجع ، وفى ترجيح الآراء ، وتفسير مجريات الأحـداث وترابطها ، وغير ذلك من عدة الكتابة العلمية فى التاريخ .

السفر إلى لندن

ومع هذه الرسالة انقطع عهدى بصناعة التاريخ وانتقلت إلى صناعة التـعليم وجاء ذلك فى أواخر عـام ١٩٤٥ حين وضـعت الحـرب أوزارها ، وخيرت بين بعثة إلى انجلترا فى التاريخ وبعثة فى أصول التربية . وقد تغلب الاستاذ القبانى بحجته فاخترت مجال التربية ، والتحقت بجامعة لندن حيث أتممت رسالة الماجستير فى موضوع (عدم تكافؤ الفرص التعليـمية فى مصر) عام ١٩٤٩ ، ورسـالة الدكتوراه فى اجتـماعيات التربيـة عن (التنشئة الاجتـماعية فى قرية سلوا) عام ١٩٥٢ . وكأنما كانت تلك الرسالة عوداً على بدء ، أكملت من خلالها الشوط الأكبر من تكوينى الثقافى . ونظراً لضيق المساحة ، فلن أستطيع تفصيل ما تكون لدى من زاد ثقافى خلال تلك البعثة .

وأختتم حكايتى بأن التكوين الثقافى للمرء متصل معه وبه من المهد

إلى اللحد كما يقولون ، وإن كانت للأجواء التى يعيشها خلال مراحل الطفولة والشباب آثارها العميقة ، وذلك فى إطار المناخ المجتمعى العام بتموجاته وحدوده وفرصه . ومن ثم فلم يكن مناص من أن يتأثر تكوينى بالنقلات الحضارية التى عايشتها من سلوا إلى سوهاج إلى القاهرة إلى لندن ، ومن أوائل العشرينيات إلى أوائل الخمسينيات ، وأن تتفاعل طاقاتى مع عوامل المصادفة المحضة ومعاناة الاستجابة الملائمة للمواقف ، والإفادة من فرص التمدرس فى مختلف المؤسسات التعليمية .. وبحمد الله تسير القافلة وتتجدد الاستجابات لأمواج الحياة بكل ما فى بحارها من مد جزر ..

صلاح أبو سيف

سر سعادتى موسيقى البشر

ولدت فى حى شعبى ، هو حى بولاق أبو العلا ، ولهذا الحى عاداته وتقاليده ، وأجواؤه الخاصة ، بحيث تشعر أن أهل الحى يشكلون عائلة واحدة يحرص بعضهم على بعض ، ويتكاتفون معا فى مختلف المناسبات .

علمنى هذا قيما أخلاقية مازلت أحملها فى داخلى حتى الآن ، منها التلهف على مساعدة الآخرين ، وأن نعطيهم ونقرضهم دون أن نطلب منهم وثائق مالية ، بل تكفى كلمة شرف واحدة .

ولدت عام ١٩١٥ ، أى بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وإبان قمة الاحتلال البريطانى لمصر ، مما مكننى أن أرى أشياء لا يمكن نسيانها ، حيث كان جنود الاحتلال يمرون فى حوارينا فوق جيادهم ، أو بداخل سياراتهم ، فكنا إما أن نهرب منهم خوفا ، أو نتتبع تحركاتهم فى دهشة.

وما لا أنساه عن هذه الفترة ، أن الإنجليز كانوا يعلقون قوانينهم وأوامرهم الجديدة على ملصقات ، فكان أهالى الحى يسرعون بتمزيقها، مما أدى بالإنجليز إلى أن يخصصوا جنديا منهم لحماية الملصق ، وذات يوم اقترب أحد الأهالى بهدف قراءة الملصق ، فضربه الجندى البريطانى بالسونكى فى معدته ، ورأيت بنفسى ، فى تلك السن الصغيرة ، معدة تخرج من البطن .

ومن الرجال الذين لا أنساهم ، كان خالى عبد الرحمن فهمى ، وهو غير السياسى المعروف ، والذى كان يعمل ناظر مدرسة ، ويهتم بالسياسة ، فقد هاجمت الشرطة المصرية ، تحت لواء البريطانيين ، منزلنا فرأيت زوجة خالى تضع منشورات زوجها فى «مشنة» العيش ، وعندما جاءت الشرطة للتفتيش ، وجدت عينى تنظر بتركيز إلى «المشنة» وكان هذا منظرا سينمائيا تكرر فى بعض أفلامى مثل «لا وقت للحب » ورغم أن الشرطة لم تعثر على المنشورات ، فإنهم اصطحبوا خالى معهم .

فى عام ١٩٢٥ ، غير إسماعيل صدقى نظام التعليم فى مصر ، بأن زاد سنوات الدراسة الابتدائية إلى خمس سنوات ، ولذا فإن إدارة المدرسة جعلتنا ندرس عامين دراسيين ، فدرست السنتين الرابعة والخامسة فى سنة واحدة ، مثلا «رابعة» فى الصباح و«خامسة» فى

المساء ، وذات يوم قررت عدم الذهاب الى المدرسة المسائية ، وكان أمامى وقت فراغ ، فقمت بدورة فى شوارع القاهرة ، ووجدت قدمي تسوقانى إلى حى عابدين فشاهدت مظاهر الحياة هناك ، ومنها سينما «إيديال» ورأيت صورا جذابة ، أنا الذى لم أكن أعرف شيئا اسمه سينما ، وبالمصادفة كان معى قرش ، هو ثمن التذكرة ، فوجدت نفسى أشترى تذكرة ، وأجلس فى أول صف ، باعتبار أن أول صف هو الأفضل كما فى المسرح .

كتب تغير مسيرة حياتنا

وجدت أن كل الجمهور يجلس فى الصفوف الخلفية، مما أعطانى إحساسا بالتفوق ، ورأيت فيلما عن : شارلى شابلن فى البنك ، وفيلما إيطاليا يقوم فيه ايلمو لينكولن بدور طرزان ، والثالث مسلسلا يحمل اسم السفينة الغامضة ، تتوالى فيه الأحداث ، وينقطع فجأة عند مشهد من أجل رؤية بقية المسلسل فى الأسبوع القادم .

عدت إلى المنزل ، كى أروى روعة ما شاهدت ولآخذ أجمل علقة لحقت بجسدى فى حياتى ، وفى اليوم التالى حكيت لكل زملائى عما رأيت ، فقررنا الذهاب إلى السينما ، وتصورت أننى سوف أرى عروضا جديدة ، وأننى سوف أكمل المسلسل ، ولكننى عرفت أن البرنامج يتغير كل أسبوع ، ولكن هذا لم يقلل من إحساسى بالمتعة التى أصابتنى فى المرة الأولى . وهكذا بدأ عصر «الفرجة الجميلة»

اكتشفنا أن هناك حفلات فى الساعة الثالثة ، مما لا يجعلنا معرضين للضرب ، وأصبحت زبونا دائما لهذه السينما ، رغم ابتعادها عن المنزل ، ثم اكتشفت أن هناك سينما الشعب فى شارع الحمام (قريبا من شارع الألفى الآن) . وكان أصل هذه السينما حماما من حمامات الخديو ، وكان الدخول بخمسة مليمات ، وتذكرة ترام ، وربما أن سبب ذلك اتفاق بين السينما وإدارة الترام على راحة الزبائن .

أبى لديه سرج من ذهب

كان التحاقى بمدرسة «الاتحاد الوطنى» ببولاق فاتحة لأن أتعرف على زملاء لى يعشقون السينما ، ولأننى لم أكن أفهم أن السينما ليست سوى ممثل ، فقد وددت أن أصبح ممثلا ، ولذا قرأت كتابا عن «كيف تكون ممثلا» باهتمام شديد ، لأصبح ممثلا ، ولكننى اكتشفت أن العنوان خادع ، وأنه يدور حول صناعة السينما ، وجذبنى فصل عن «المدير الفنى» أو المخرج، وفى بداية الفصل إشارة إلى أنك إذا دخلت الاستوديو ستجد شخصا يجلس على مقعد فى حالة تأمل ، وعليك ألا تقترب منه ، لأنه المدير الفنى (المخرج) الذى يعلم الممثلين ، وينفذ السيناريو ، إنه صانع الفيلم . وقد دفعنى هذا إلى أن أقرر أن أصبح «مخرجا» . لأنه صانع الفيلم الرئيسى .

وبدأت أبحث عن كيف يكون المرء مخرجا ، فرحت أسأل من يكبرنى

سنا من الأقارب، وبدأت في قراءة المجلات الفنية ، مثل «مجلة المسرح» و «الصباح» و « أبو الهول» . في تلك الفترة كانت المدارس الثانوية تعتني بتعليم اللغات ، فبدأت أرتاد المكتبات للبحث عن مجلات متخصصة فوجدت مجلتين مهمتين هما Picture . Picture Show Goer . وكانتا من المجلات الغالية الثمن ، لكن المكتبات كانت تقوم فيما بعد ببيعهما بسعر رخيص ، مما مكنني من شرائهما ، وكانت المشكلة تتمثل في اللغة التي تعتبر بمثابة باب للعبور إلى هذا العالم ، ومكنني ذلك من تحصيل معلومات عن السينما بشكل عام .

وبعد الصف الثاني الثانوي ، أحسست بأن المسألة سوف تطول ، وتبعا لظروفنا المالية والعائلية ، ورغم أن أبي كان عمدة يتمتع بثراء مالي، ولكنه كان منفصلا عن بيتنا . ورغم أنه كان لديه سرج من الذهب، وآخر من الفضة ، وتبعا لعدم رغبة أمي في الذهاب للمعيشة في الريف ، وكانت - رحمها الله - من أوائل المصريات اللاتي دخلن المدارس وتعلمن بها ، في وسط هذه الضائقة المالية ، كان السؤال هو : كيف يمكن الحصول على هذه المجلات ؟ فقررت أن ألتحق بالمدرسة التجارية ، لسرعة الانتهاء من الدراسة ..

٣٥ جنيها لدراسة السينما في الخارج

وتستمر رحلتي مع الثقافة والفن ، فالتحقت بمدرسة التجارة ، ثم بدأت في مراسلة الصحف ، أترجم لها من المجلات الانجليزية

ما يجذبنى، فنشرت مقالات باسم «صلاح الدين أبو سيف» فى مجلة «الصباح» وبقية المجلات التى كانت تظهر فى تلك الفترة .

كانت اللغات هى اهتمامى الأول فى تلك الآونة ، أما بقية المواد فلم تكن تهمنى ، وفى تلك الفترة قابلت السيد أبو النجا ، الذى كان مدرسا فساعدنى على نشر بعض أعمالى فى مجلته المدرسية ، وقد سألنى ذات يوم عن مقال سينمائى سلمته له «من أين نقلت هذا المقال؟» .. ورفض نشره ، رغم أنه كان من تأليفى .

وعقب تخرجى عملت بالصحافة الفنية فى مجلة «الراديو والبعكوكة» فضلا عن جريدة «الوادى» .. وكان كل همى هو تدبير مصاريف المعيشة. ولم تكن الصحافة مصدرا للمال ، لكن رئيس التحرير عزت المفتى ، قرر أن يدفع لى راتبا شهريا قدره ١٥٠ قرشا . مما دفعنى إلى رفض جميع الوظائف الأخرى . إلى أن أجبرتنى ظروفى أن أعمل موظفا فى المحلة الكبرى فى شركة مصر للغزل والنسيج التابعة لبنك مصر .

ولأننى موظف فى شركة فقد بدأت أتمكن من شراء مجموعة كتب ومجلات مثل مجلة المسرح .. لعبد المجيد حلمى ، وأول مجلة سينما باسم «الصور المتحركة» فضلا عن المجلات الإنجليزية ، فى الوقت نفسه دفعتنى دراستى للسينما إلى قراءة العلوم ، والأدب والفنون الأخرى ،

فضلا عن دروس الموسيقى التى تلقيتها فى عزف البيانو وقراءة النوتة الموسيقية .

كانت هناك سينما المحلة تعرض فيلمين كل أسبوع ، وقد كتبت عنهما مقالا نشرته فى جريدة « روز اليوسف» وأثار المقال ضجة ، مما أدى إلى رفض صاحب المحل دخولى السينما ، فقد ذكرت أن السينما ليست شاشة بيضاء ، ولكنها شاشة سوداء .

فى تلك الفترة ، شجعنى زملائى على السفر للخارج لدراسة السينما ، وقام بعضهم بجمع مبالغ كى أتمكن من السفر ، وبالفعل جمعوا «٣٥ جنيها» . وأثناء هذه الأحداث ، كان طلعت حرب قد تمكن من بناء استوديو مصر . واستعانوا لبناء الاستوديو ببعض المصريين ، من الذين درسوا بالخارج، ومنهم نيازى مصطفى ، وعن طريق المصادفة، وفى المحلة ، رأيت نيازى فى المكتب ، قادما من القاهرة لمقابلة مدير الشركة بشأن عمل فيلم تسجيلى عن شركات بنك مصر .

شيوعيون .. من أهل الحارة

هذه مصادفة حياتى ... اندهش نيازى مصطفى وأنا أحييه باسمه ، ورحت أحدثه عن السينمائيين العالميين ، وعن مصطلحات السينما ، ولذا راح يطلبنى كى أساعده فى عمل فيلم تسجيلى عن شركة المحلة ، وبعد عودته إلى القاهرة ، أرسل خطابا إلى الشركة ليطلبنى للعمل معه فى

استوديو مصر ، لكن مدير الشركة رفض حرصا على مصلحتى . ولكنه بعد إلحاح منى ، وافق على نقلى إلى استوديو مصر .

كان أول ما فعلته هو أن أعدت لهم مبلغ الـ ٣٥ جنيها ، وفى استوديو مصر ، بدأت حياتى العملية ، كان نيازى مصطفى هو رئيس قسم المونتاج ، وكنا كثيرا ما نتحدث فى شئون السينما ، وتقنياتها ، وقد أدى هذا إلى إحداث وقيعة عن طريق الزملاء . فلم تسر الأمور حسب ما كنت أتمنى ، رغم إعجابى الشديد بنيازى مصطفى .

فى تلك الفترة ، كان الألمان هم الذين يتولون إدارة استوديو مصر وكان هناك مصريون تابعون للألمان ، يفكرون على طريقتهم ، ولكننا شكلنا مجموعة ضد الأفكار النازية ، فأطلقوا علينا لفظ «شيوعيون» .. أنا وكامل التلمسانى وعلى عابد ، وعندما بدأنا فى العمل اتهمونا أننا نظريون ، ولن نستطيع تكملة الفيلم ، لأن علاقتنا بالسينما نظرية ، ورفض الفنيون الألمان مساعدتنا ، مما دفعنا إلى الاستعانة بعناصر أقل أهمية .

حاسة للخوف من القنابل

ونجح فيلم «العزيمة» .. استطاع أن يصنع فى السينما المصرية تاريخا . وبينما كنت فى انتظار العرض جاءتنى فرصة للسفر إلى فرنسا فى بعثة لدراسة السينما ، وللأسف لم تكن هناك معاهد سينما

إلا فى موسكو ، أما فى فرنسا ، فكانت الدراسة العملية بعيدة عن المعاهد ، وعندما سافرت إلى باريس ، كان اللقاء المنتظر بين بولاقى ومدينة ضخمة ، مختلفة فى أخلاقياتها ، وثقافتها ، وعندما وصلت إلى مارسيليا ، وبينما أنتظر القطار دخلت إحدى دور السينما ، ورأيت كيف يكون العرض المستمر لأول مرة ، ورأيت حولى ، على المقاعد ، مشاهد لم آلفها من قبل ، وتصورت أننى دخلت المكان خطأ ، فقد كان كل من حولى مشغولين بممارسة الحب المكشوف وسرعان ما أدركت أننى لست فى مصر .

وفى باريس ذهبت إلى استوديو «كلير» الذى يعتبر من أهم استوديوهات العالم ، وبدأت فى دراسة المونتاج ، وهناك شعرت بالوحدة الشديدة ، فكل العاملين معى كانوا من الجنس الآخر . مما دفعنى للالتحاق بقسم آخر ، هو الإخراج ، وقابلت مخرجا تعامل معى باعتبارى افريقيا من المستعمرات ، وظل على هذا الحال إلى أن قام بتصوير مشهد فى أحد أفلامه يدور فى أحد المقاهى ، وأحسست بأن هناك شيئا غير صحيح فى المشهد وأخبرته أن الممثلة التى تتنكر فى زى رجل قد تصرفت كامرأة ، وليس كرجل ، مما جعله يعيد إخراج المشهد. وكان هذا بداية لأن أكون قريبا منه .

فى تلك الفترة كانت سينما دورسلين تعرض برنامجا لمدة

أسـبوعين ، بشكل تجريبى ، كأن تعرض أفلاما من ثقافات مختلفة ، لمخرجين قرأت عنهم ولم أتمكن من رؤيتـها بعد ، مثل فيلم «المدرعة بوتمكين» . فقد تمكنت من رؤية المشـهد الشـهير الذى يدور فى سلم الأوديسا ، وكانت هذه السينما بمثابة أحسن مدرسة لى للتعرف على السينما الحقيقية ، فقد كنت أدون ملحوظات على الأفلام ، وخاصة المونتاج ، وما إلى ذلك . وقد أدركت أن المونتاج هو أساس صناعة السينما .

وارتبطت بالحياة الباريسية إلى أن قرأت يوما خبرا مثيرا عن اندلاع الحرب . وأنا الذى تصور أن المفاوضات السياسية سوف تنتهى إلى السلام .

وبدأت القنابل تسقط على باريس . وكان ذلك بداية الفزع بالنسبة لى ، وبدأت أدخل المخابىء خوفا من القنابل ، وتولدت لدى حاسة الشعور بسقوط القنابل ، حيث كنت أشعر بدنو سقوط القنابل فأهرب إلى الملاجىء .

وتعلمت الحب على أصوله

بدأت شوارع باريس تخلو من الرجال ، حيث ذهبوا جميعا إلى الحرب ، وكنت أتصور أن الحرب سوف تنتهى . ولكن الوقت طال . وعرفت أن الباخرة «النيل» قادمة من أجل جمع المصريين ، وسافرنا

بالقطار إلى مارسيليا واستغرقت الرحلة أربعة أيام . وفى القطار ، كانت هناك مجموعة من الألمان تتحدث فيما بينها بحماس . وسألنى أحدهم عن الساعة بالألمانى ، فرددت عليه بالألمانى ، مما جعلهم يتصورون أننى فهمت كل هذا الكلام السرى الذى كانوا يتبادلونه .. وكانت أعجوبة فعلا أن أتمكن من الهروب .

كان علينا الانتظار تسعة عشر يوما كاملة للإبحار من مارسيليا فوق ظهر الباخرة ، واحتشد في المركب أغلب المصريين الذين كانوا فى أوربا ، ومنهم طه حسين وزوجته ، وأحمد الصاوى محمد ، وراح الحديث يجمعنا ، ما أمتعه من حديث فى أوقات الانتظار .

أصبح علىّ أن أترك ورائى أول قصة حب فى حياتى ، حيث تعرفت أنا الشاب الصغير على امرأة فى الخمسين . علمتنى كأنها معلمة كيف يكون الحب والجنس . وقد استلهمت من قصتى معها فيلمى «شباب امرأة» فيما بعد ..

وعندما وصلنا إلى الاسكندرية ، فوجئت بأن الحرب لم تقترب من بلادى .. وفى القاهرة بدأت معاودة العمل فى قسم المونتاج ، وبدأت فى عمل أفلام تسجيلية ، وأفلام قصيرة كمخرج ينتجها الاستوديو مثل فيلم «نمرة ستة» الذى قام ببطولته اسماعيل ياسين عام ١٩٤٢ . والذى يعتبر أول خبطة من خبطات جنون الفن . ووراء هذا الفيلم قصة

إعجاب، وصداقة مع أندريا ڤينيو المدير الفنى للاستوديو ، وكنت دائما ما أعرض عليه أفكار أفلامى . وشاهد لى فيلما تسجيليا استوحيته من كتاب عن «الدوشة» فى مصر تحت عنوان «القاهرة بلد الدوشة» ، وذلك فى شكل رسوم كاريكاتورية ، هذا الكتاب لم يعجبنى وقد اعتبرته إساءة إلى مصر . فعملت فيلما تسجيليا أؤكد فيه أن هذه ليست «سيمفونية القاهرة » ، ومع الأسف هذا الفيلم احترق ، وليس له وجود .

نمرة ٦

فى تلك الفترة ، كان برنامج العرض فى بعض دور السينما مصريا كاملا ؛ فبالإضافة إلى الفيلم الطويل تعرض دور السينما الجريدة المصرية الناطقة وفيلما تسجيليا مصريا أيضا . وكانت هناك حاجة ملحة إلى فيلم جديد . وأبلغنى ڤينيو بالأمر ، وتولدت الفرصة وأصبح على أن أخرج «نمرة ستة» فى أيام معدودة .

فى قلبى .. جسر ووتر لو

وكان أسرع فيلم فى تلك الفترة ، وأثار هذا دهشة الأجانب والمصريين ، لكن البعض حاول وقف التجربة بدافع الغيرة ، وفى صباح يوم العرض ، فوجئت بخبر فى الجرائد بأن الرقابة رفضت الفيلم ، فأسرعت إلى مبنى الرقابة ، التى كانت تشرف عليها وزارة الداخلية ،

وهناك التقيت بالكاتب أحمد شكرى . وعرفنا أن مدير الاستوديو هو الذى وقف ضد الفيلم بحجة أن الفيلم يسىء للأطباء .

كنت فى تلك الفترة قد أصبحت رئيسا لقسم المونتاج ، وقد كان ذلك سببا فى أن أتأخر فى الإخراج لأن الإدارة رأت أنه من الصعب أن يجدوا بديلا عنى . ولكن ذلك أتاح لى فرصة اتساع الأفق سينمائيا ، باعتبار أن المونتاج هو بؤرة الفيلم ، فالمونتير هو الذى يصلح أخطاء المخرج والمصور ، لدرجة أننى وصلت فى المونتاج إلى درجة التشبع ، وقررت أن أصبح مخرجا ، وهددت بالاستقالة إلى أن التقيت مع عقيلة راتب وأنور وجدى اللذين كانا قد وقعا عقد احتكار مع الاستوديو ، وكانت عقيلة تتمنى أن تقدم قصة فيلم مستوحى من «جسر ووتر لو» وعندما شاهد حسين سعيد رئيس مجلس ادارة الاستوديو شريط الفيلم استدعانى من أجل تحويله إلى فيلم عربى .

لم يكن فى نيتى أن أبدأ عملى كمخرج بالاقتباس . لكن كانت الفرصة متاحة لإخراج أول فيلم ، ولذا بدأت أكتب السيناريو بنفسى ، وحولته إلى فيلم مصرى مائة فى المائة .

وكان أول فيلم «دائما فى قلبى» الذى استبدلت فيه عماد حمدى بدلا من أنور وجدى ، وكان ذلك خطأ كبيرا ، لكن المرء كثيرا ما يتعلم من أخطائه .

د . لطيفة الزيات

تجربتى مع الكتابة

كانت الكتابة بالنسبة لى ، على تعدد مقاصدها، فعلا من أفعال الحرية ، ووسيلة من وسائلى لإعادة صياغة ذاتى ومجتمعى ، وإن تعددت فى ظل الإطار ذاته أوجه الحرية التى مارستها فى الكتابة .

وقد عنت كتاباتى السياسية، التى تم بعضها فى إطار عملى بوصفى رئيسة للجنة الدفاع عن الثقافة القومية، طرحى لترددى وراء ظهرى ، واكتشافا على الورق، وفى مواجهة الذات لموقفى من الأحداث ، وتحديدا أدق وأعمق لهذا الموقف الذى اكتسب البلورة من خلال الكلمات. كما عنت هذه الكتابات السياسية إشهارا لموقف يتعارض والموقف السائد. وبمدى ما يتطلبه هذا الموقف من تجاوز للمخاوف والنتائج التى قد تترتب عليه، بمدى ما أمارس

حريتى ، وأنا إذ أحدد موقفى وأشهره المرة بعد المرة ، أتلقى التعريف ، وتتبين ملامح هويتى ، وأمارس الحرية وأنا أتصور وجودى يتجسد صلبا خارج حدود ذاتى الضيقة .

وفى كتاباتى النقدية يختلف الأمر ، فبحكم المنهج التحليلى الذى انفرد بى لفترة، ولم يعد ، ألغى ذاتيتى وأخضع نفسى مكتملة لمنطق العمل الأدبى ، أيا كان منطقه مخالفا لمنطقى، وحين جمعت الى جانب تحليل النص مناهج أخرى فى بحثى عن (صورة المرأة فى القصص والروايات العربية) تحررت ، وصوتى يظهر جنبا إلى جنب مع صوت الآخر . ومنطقى جنبا إلى جنب مع منطقه .

وعلى كل، فعملى فى مجال النقد الأدبى كان فى كل الحالات حرية من حيث هو توكيد لذاتى ولقدراتى ، ومن حيث كان وصلا واتصالا بالآخر والآخرين، ومن حيث حاولت أن اوصل متعتى بالعمل الفنى إلى الآخرين وتبقى متعة الوصل والاتصال متعة لممارسة حريتى فى كل ما أكتب ، وإن اختلف هدف ما أكتب ، وأكون حرة، فحسب ، حين أصل وأتصل وترتبط المتعة ذاتها بعملية التدريس التى ما زلت أقوم بها .

وتبقى الحرية المصاحبة لعملية الإبداع حرية فريدة . وفى كل عمل ابداعى صدر عنى كنت أعيش بوعى حريتى وأنا أكتبه، وأبلور بلا وعى مفهومى للحرية فى طيات هذا العمل .

وفى الباب المفتوح ١٩٦٠ (طبعة ثانية، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩) يرتبط مسار الفرد بمسار الوطن ارتباطا عضويا ويتدرج الاثنان فى كل مقبول ومفهوم في خط صاعد من البداية الى النهاية رغم كل المنحنيات، وفى تطور اجتماعى تاريخى سواء على مستوى الوطن أو مستوى الفرد .

وتطرح الباب المفتوح العلاقة الجدية بين حرية الفرد من ناحية وحرية مجتمعه من الناحية الأخرى والشروط الضرورية لتحقق الحرية على المستويين، وتذهب الرواية إلى أن الفرد لا يجد نفسه حقا، ولا يجد حريته بالتالى، إلا إذا فقدها بداية فى كل أكبر وأهم منه، وهو ، فى الإطار الروائى، النضال من أجل تحرر الوطن من بقايا الاستعمار، والفرد فى هذه الرواية فى تصالح نسبى مع مجتمعه ، وحريته تتمشى مع حرية وطنه ولا تتعارض مع هذه الحرية .

وفى مجموعة «الشيخوخة وقصص أخرى» (المستقبل العربى ١٩٨٦) تعرض قصص المجموعة لصراع الذات ضد الذات بغية التوصل لتحقيق الحرية، وصراع الوعى الحق والزائف، وصراع المكتسب في حرية ضد الموروث عن طريق التربية . وتصبح وجهة القيم والسلوكيات هى الجبهة التي يرصدها العمل القصصى . وتُصوِّر معركة الإنسان من أجل الحرية فى هذه المجموعة بوصفها معركة تستطيل ما استطال عمر

الإنسان، وهو يسقط عنه المزيد من حبائل التربية والترويض ، ويتجاوز دائما وأبدا المزيد مما قدر له طبقيا ومجتمعيا إلى ما يقدره هو لذاته، والحريـــة الفردية فى المجموعة لا تكون أبدا حرية مبذولة ولا حرية نهائية .

وفى الرواية القصيرة «الرجل الذى عرف تهمته» (١٩٩١) (تصدر عن دار شرقيات للنشر فى اكتوبر ١٩٩٤- وقصص أخرى) ، يقف الفرد العادى الممثل لملايين الناس عاريا إزاء واقع اجتماعى قامع، يصادر حرية الفرد بالتوقيف فى السجن ، وبالتصنت والتجسس على بيته بالصوت والصورة، وبتزوير شرائط التصنت والتجسس عن طريق المونتاج تزويرا يؤدى الى الإدانة . وتثير هذه الرواية القصيرة سؤالا كبيرا يمتد ما امتدت . هل يتأتى للفرد ، أى فرد، أن يتمتع بحرية ما حتى أدناها ، فى ظل واقع بوليسى قاهر تتعدد وسائل قمعه وآلياته القاهرة المحسوسة وغير المحسوسة ؟

وإلى أى مدى يُسأل الإنسان العادى بسلبيته وانطوائه على ذاته عن هذا الوضع المتفاقم الذى يطول الكل فى الواقع لا مجرد مجموعة من المشتغلين بالسياسة ؟ ...

تجربتى فى السجن !

وقد أخضعت رجلا عاديا ، ليس له فى العير ولا النفير كما يقال لجانب من تجربتى فى السجن بعد حملة ١٩٨١ ، وكان اكتشاف عملية

التسجيل التي فرضت على بيت أخي محمد عبد السلام الزيات وبيتي ، واكتشاف عملية تزوير شرائط التسجيل بهدف جمع أدلة إدانة ، بالضرورة ، اكتشافا مؤلما، وهذا أقل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد، ولكن يتبقى في كل تجربة، أيا كانت درجة إيلامها، عنصر كوميدي يدعو إلى الفكاهة والسخرية، وهذا هو العنصر الذي استخدمته في كتابة «الرجل الذي عرف تهمته» محاولة لانتزاع الضحكات من موقف فاجع، ولإمكانية التعامل مع واقع قاهر وقامع .

وفي وجه أوضاع قاهرة لا تؤذن بالتغيير ، لم أعد أملك سوى النقد المر الساخر والضاحك أحيانا ، ووجدت نفسي أكتب كما لم أكتب من قبل رواية يمكن أن تدرج في إطار الأمثولة "Parable"، أو في إطار الهجاء الاجتماعي "Satire". وحين استطعت أن أعلو على تجربتي وأن أرقبها من الخارج وأنا أضحك وأضحك الآخرين منها، امتلكت بسخريتي هذه حريتي .

وتنشغل حملة تفتيش : أوراق شخصية (دار الهلال ١٩٩٣) وهي لون غيرتقليدي وأشبه بالروائي من السيرة الذاتية ، بقضية الحرية في أكثر من اتجاه، وتجمع في معظمها بين محورين أساسيين يتناولان علاقة الذات بالذات وبالآخر من ناحية ، وعلاقة الذات بالموضوع أي بالواقع القاهر من ناحية أخرى، في ظل سعي الى الحرية يصيب أحيانا، ويخيب أحيانا أخرى، نتيجة لمجموعة القيم والسلوكيات الزائفة

التى نرزح تحت وطأتها ؛ نتيجة لقصورات فى شخصية يتناولها الإقدام والإحجام، الجرأة والخوف، اختيار الأصعب والاستسلام إلى الأسهل، الحقائق والأوهام عن الذات والآخرين .

وتعرض مسرحية بيع وشرا (الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤)، لمشكلة حرية الفرد من زاوية شديدة الأهمية ، فالحرية ليست رهينة بطبيعة النظام الاجتماعى أو العامل الموضوعى فحسب ، بل هى أيضا رهينة بالفرد وبمدى القيم الاجتماعية التى تتحكم فيه، والنوازع التى تتسلط عليه . والإنسان يفقد حريته تماما إذا ما خضع لرغبة تسيطر عليه وتحيله إلى عبـد لها . والنزوع الى التملك والمال والقوة التى تصاحب المال ، والرغبة المجنونة فى الاقتناء تحيل بعض شخوص مسرحية بيع وشرا الى مجرد آلات مسلوبة الارادة معدومة الحرية، وإلى عبيد لا تبقى ولا تذر ، تضحى حتى بحياة الفرد على مذبح التملك ومزيد من التملك . ومثلما تعرض بيع وشرا لغـريزة تملك المال تعرض لغريزة تملك البشـر، تلك الغريزة التى تحيل الناس ، المالك منهم والمملوك ، الى عبيد .

وتعرض الرواية الحالية «صاحب البيت» التى ستنشر فى روايات الهلال اكتوبر ١٩٩٤ ، لألوان عدة من ألوان القهر المحسوسة وغير المحسوسة، التى تزل بالانسان ، وخاصة المرأة ، نتيجة لنشأته ونوع التربية التى يتلقاها فى هذه النشأة ، والترويض الذى ينزل به حتى

يتواءم مع مجتمع قاهر يرفض الاختلاف ويتطلب التواؤم ويصر على تحويل الناس إلى قطيع من الماشية تقاد فتنقاد. كما تعرض صاحب البيت للتفرقة ما بين الحب والرغبة فى التملك ، وترصد العلاقة بين الجنسين القائمة على الضياع فى الآخر أو الاستحواذ على الآخر كلون من ألوان العبودية وفقد الندية والفردية .

وفى حملة تفتيش : أوراق شخصية، أقول وأنا فى الثامنة والخمسين، وأنا فى طريقى إلى السجن ألمح حريتى مكتملة فى آخر الطريق وتصالحى مع الذات بعد مشوار طويل. ولم تكن هذه الحرية بالحرية المبذولة ولا بالحرية النهائية. يتأتى على الآن وقد طعنت فى السن، أن أعاود بالفعل الحر والهادف ، تأكيد حريتى المرة بعد المرة، بفعل حر بعد فعل ، سواء تمثل هذا الفعل فى موقف أو كلمة .

وأفقد حريتى فى كل مرة أقول فيها لنفسى : طال المسار وآن لى أن أستكين .

★★★

من الباب المفتوح ١٩٦٠ الى الشيخوخة وقصص أخرى ١٩٨٦ ، تغيرت أنا ، والعالم من حولى يتغير ، كزلزال لا يتوقف إلا حينا قصيرا ليبدأ فى التغير من جديد .

وفى منتصف الثمانينات وأنا أكتب الشيخوخة وقصص أخرى

(١٩٨٦) كنت كمن يقفز الى البحر معصوب العينين . وتأتى أن تكون الدائرة التى أتوجه إليها بالخطاب الروائى دائرة أضيق نتيجة للتعددية فى القيم، والتعددية فى الوجدان، وتأتى أن أعرف ، دون أن أعرف مسبقا، نوعية النغمة التى يستجيب لها المتلقى .

وفى ظل المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى بدأت سنة ١٩٦٧ وتستمر الى اليوم، تعقدت رؤية الحقيقة ! وبدت سبل الخلاص مسدودة الى حد الاختناق ، وضعف العامل المشترك فى القيم فتعددت سلالم القيم من شريحة الى شريحة من شرائح المجتمع، وضاعت لغة الوجدان المشترك والناس ينقسمون على أنفسهم فى جزر منعزلة تفتقر الى الحد الأدنى من الوحدة الوطنية والشعور بالانتماء .

وتأتى ، وقد تعقدت رؤيتى للحقيقة وتعقد الواقع الاجتماعى من حولى ، أن يختلف أسلوب الباب المفتوح عن أسلوب الشيخوخة وقصص أخرى ، وأن أبدأ ، بداية من الأخيرة ، فى طرق باب التجريب لأجد أشكالا جديدة تمسك بالواقع الجديد .

★★★

بنيت الباب المفتوح بنيانا معماريا عضويا ضخما ، يتطور فى طبيعية وفقا لقانون الضرورة من خلال الصراع وانفراج الصراع، ويبدأ وينتهى بنقطة ذات دلالة ، ونقطة النهاية فى الرواية تسلم القارىء إلى بداية جديدة وإلى امتداد فى عمق الزمن وفى عمق التاريخ .

ورغم أنى قد وقفت عن يسار النظام قبل ثورة يوليو وبعدها ، واعترضت على الكثير وناوأت الكثير ، فإن الواقع فى مجموعه قد بدا لى - رغم كل الأخطاء والقصورات - منظما ، ومفهوما ، ومنطقيا ، ومبررا . وكنت أتمتع بهذه النظرة المستقبلية التى ترى التاريخ فى حركته وتملك تجاوز اللحظة الحاضرة ورؤية اسباب الخلاص ووسائله فى المستقبل .

ومع مجموعة الشيخوخة وقصص اخرى (١٩٨٦) استحال عليّ هذا الجسد العضوى الذى يشق طريقه فى يسر وحتمية من بداية الى وسط الى نهاية ، رغم حنينى الدائب له ، وللرؤية الكلية للحقيقة التى ترتبط به . مع الشيخوخة لم تعد الأسئلة تلقى إجاباتها ، ولم تعد البصيرة قادرة على تجاوز حلكة الحاضر ، ويأتى استخدام تقنيات جديدة للتعبير عن الرؤية الجديدة .

ومزجت بين الأسلوب التسجيلى (فى هيئة يوميات أو مذكرات) وبين الحكى (فى هيئة قصة أو عمل ابداعى) وتداخلت الأزمنة والأمكنة ، وتعددت أوجه الحقيقة بدلا من أن تندرج فى وجه واحد موضوعى ، واحتبس الصوت بالحجة ونقيضها وأصبح التطلع الى التجاوز هو الهدف الأسمى: تجاوز اللحظة الآنية الى ما بعدها ، والاستمرار - رغم كل شىء وفى وجه كل شىء - وجاء الاسلوب مثقلا بأكثر من مستوى من مستويات المعنى .

وفى حملة تفتيش : أوراق شخصية ١٩٩٣ لم يواتنى الشكل العضوى وأنا أنسج من صراع رئيسى قصة حياتى، تداخلت الأزمنة وتضاربت وتداخلت الأنواع الأدبية وتضاربت ، وتعددت الصور للحقيقة الواحدة ، لا تلغى واحدة منها صلاحية الآخرى .

القاء الضوء على الحدث

ولكتاب حملة تفتيش : أوراق شخصية ، حكاية أود أن أرويها . فى فترة احتجازى بسجن القناطر ١٩٨١ ، وإثر حملة تفتيش فى العنبر الذى أقيم فيه ، كتبت قصة قصيرة بعنوان حملة تفتيش ، وهى القصة التى ترد فى نهاية الكتاب وكخاتمة له، ويستمد منها الكتاب ، عنوانه الرئيسى .

وفى هذه القصة تجرى عملية التفتيش على مستويين ، مستوى مادى يشير الى حملة تفتيش واقعية تجريها ادارة السجن، ومستوى معنوى يشير الى غوص الراوية فى أعماق ماضيها واستدعاء فترات متباينة من عمرها بدت عند بداية الحدث جزرا منعزلة بعضها عن البعض ومتضاربة بعضها والبعض . والحدث الخارجى - أى حملة التفتيش المادية - هو بالطبع الذى يستدعى الحدث الداخلى ، والتفاعل فيما بينهما تفاعل دائب .

ومن خلال التفاعل بين المستويين المادى والمعنوى لحملة التفتيش

المزدوجة البعد ، تتصالح فترات العمر التي تبدو في البداية متضاربة ومتناقضة ، وتتنظم وهي تندرج في كل مقبول ومفهوم يجعل الراوية تشعر بعد نهاية الحدث بنوع من التحقق والتكامل . وتختم الراوية قصة حملة تفتيش قائلة : أستطيع الآن أن أنظم أوراقي التي رقدت مخلوطة في مخابئها السرية. وتكون أوراق العمر قد انتظمت فعلا. والخاتمة بالطبع تستمد أهميتها في القصة القصيرة من حيث انها تلقي الضوء على الحدث القصصي مكتملا ، الخارجي منه والداخلي على السواء ، واستخدام الفعل الماضي في كلمة (رقدت) يشير الى متغيرات حدثت ما بين البداية والنهاية ، متغيرات أدت إلى انتظام أوراق العمر بعد انقسام، ففي بداية قصة حملة تفتيش تشير الراوية الى عجزها عن تنظيم أوراقها التي ترقد مخلوطة في مخابئها السرية، ولكن شيئا ما في التجربة النفسية التي تمر بها الراوية أثناء حملة التفتيش المادية قد أحدث تغيرا أكسب الراوية القدرة ، التي انعدمت في بداية الحدث القصصي ، على تنظيم أوراقها التي تخرج ابان الحدث من اطار السرية الى اطار العلنية ولا تبقى كما كانت مخلوطة في مخابئها السرية، بل تندرج كما لم تندرج من قبل في كل مفهوم ومقبول .

وبعد خروجي من السجن قرأت هذه القصة على كل من الدكتورة رضوى عاشور وأمينة رشيد، وكان رد الفعل مشجعا ، وأضافت رضوى

قائلة : إما أن تستكملى القصة وإما أن تنشريها على ما هى عليه ، ولم يمر عليّ قول رضوى العابر مرورا عابرا ؛ من حيث مس شعورا كنت أشعره فعلا. وتركت القصة لسنوات دون أن أنشرها بعد أن استقر فى اعتقادى تدريجيا أنها تطالب بالاستكمال من حيث هى أقرب ما تكون الى نهاية عمل دون الخلفية والتبرير الذى يجعل هذه الإشارات إشارات دالة، والقصة تنطوى على صراع عمرى الرئيسى الذى تندرج فى إطاره الأحداث الرئيسية فى حياتى سواء الخاص منها أو العام ، كما تنطوى القصة على حل لهذا الصراع الرئيسى الذى اقتضانى على مستوى الحياة قدرة هائلة على مواجهة الذات بكل سلبياتها ونواقصها، وقدرة هائلة على التجاوز والاستمرار من خلال هذه المواجهة .

ولاحظت وأنا أعاود قراءة بعض أوراقى الشخصية أن عملية الكتابة فيها تنطوى على وحدة فنية تتجاوز بكثير وحدة الشخصية ، وأنها فى معظمها تنطوى على نفس النمط الأسلوبى الذى تنطوى عليه قصة حملة تفتيش ، أى نمط ربط الخاص بالعام وتفاعلهما معا، ونمط التسلل من الحدث الخارجى الى الحدث الداخلى ، من الظاهر الى الباطن فى حملة تفتيش دائبة ومضنية للذات بغية تجاوز قصورات هذه الذات والتصالح مع حقيقتها . ورغم تنوع هذه الأوراق الشخصية واختلاف المناسبات التي كتبت فيها والأهداف التى استهدفتها لاحظت ثانيا أنها تندرج فى معظمها بطريق مباشر أو غير مباشر فى إطار صراع رئيسى فى

حياتى كنت واعية به وأنا أكتبها ، وأن هذا الصراع الرئيسى هو ذات الصراع الذى يلقى الحل فى قصة حملة تفتيش ، ويتراوح هذا الصراع بين الإقدام على الحياة والعكوف عنها ، بين الانبساط الى الخارج واحتضان الحياة،بين الانطواء والتمحور على الذات، بين الإقبال والإحجام ، بين الاختيارات الشخصية الحرة ، واللواذ بالتوائم مع الآخرين .

وانفرج الوضع مع خروجى بهذه الملاحظات ، كانت شروط الرواية، تتوافر بلا وعى فى بعض الاوراق من وحدة فنية للحدث الى صراع رئيسى يتأزم وينطوى على الانفراج . ولم يتبق سوى اكتمال خط التطور الرئيسى بإضافة الجديد الذى لم يدرج من قبل ، وإعادة ترتيب الاوراق فى شكل فنى دال يقول أكثر مما تقوله جميع تفصيلاته، واستكمال عملية الكتابة والتعديل هنا وهناك ، ونقل ما هو على مستوى اللاوعى بالشكل الفنى الكامن إلى مستوى الوعى، وكان .

وقد ألزمت نفسى والتزمت بشكل أقرب ما يكون الى شكل الرواية وبصراع رئيسى ينفرج بعد سلسلة من التعقيدات ، وبالعوامل المبررة والمحركة لهذا الصراع فى أوضاع العمر المختلفة على السواء ومنها وضع النشأة ، وشكل هذا الالتزام عنصر الاختيار فيما ضمنت وفيما لم أضمن ، واستبعدت من الكتاب كل ما ليس له علاقة بمفردات هذا الصراع ومبرراته ، وبقدر ما اندرج فى هذا الصراع وأدى الى تأزمه

أو انفراجه ، ويصح هذا على فترة النشأة بمثل ما يصح على بقية فترات العمر .

ومع الشكل الروائى تمتعت بحرية أن أضمن وألا أضمن ، ولم أكن فى موضع الرصد لتفاصيل حياتى ، بل فى موضع اختيار ، لما هو دال فى الإطار العام ومحمل بالمعنى ، ولم أكن فى موضع تغطية لأحداث حياتى، بل فى موضع بلورة رؤيتى للمسار العام لهذه الحياة، ولم أكن فى موضع تسجيل ، بل فى موضع البحث عن أرضية مشتركة مع القارىء ، وفى موضع التغنى بالمعاناة الانسانية المشتركة والتجاوز الإنسانى المشترك .

لقد تغير كل شىء، وبقيت الرغبة فى بلورة رؤيتى للواقع، وبقيت الرغبة التى لا تقل إلحاحا، فى إشراك القارىء فى هذه الرؤية وإقناعه بصلاحيتها ومحاولة التأثير فيه لكى يتبناها ، فإن فعل تحقق هدفى من الكتابة ، وسقطت وحدتى، أو ما أتوهم أنه اختلافى وتفردى، فأنتمى من جديد، وأشبع هذه الرغبة الملحة فى حياتى ، الرغبة فى الانتماء بكليتى ، بسرى وعلنى، بباطنى وظاهرى .

وكانت هذه هى الرغبة الأم التى حركتنى دائما وأبدا، ولم تكن التقنيات ، فى أى فترة من فترات إبداعى ، مرتبطة بتجريب من أجل التجريب ، وإنما كانت التقنيات مهمة وحاسمة من حيث نجاحها أو إخفاقها فى إيصال رؤيتى للآخرين، وفى الوصل ما بينى وبين الآخرين.

الفهـــرس

رقم الايداع
٢٥٥٣ / ٩٨
I. S. B . N
977 - 07 -0576- 4

روايات الهلال تقدم

يوميات ضابط فى الارياف

تأليف

حمدى البطران





الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس . 92703 Hilal.V.N



استمتع بالسفر بأحدث الطائرات
ودعم اقتصاد بلدك
أكثر من رحلة اسبوعياً إلى
مدينة عالمية ومحلية
سماء بلا حدود

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب نخبة متنوعة من الشخصيات المتألقة فى مجتمعنا ذات الاسهام البارز فى حياتنا الفكرية.. تقدم تجربتها ورحلة حياتها الثرية من خلال الحديث عن تكوينها، فهم يستدعون الصور المتناثرة من هنا وهناك .لنقترب من حياتهم ؛ ونتعرف على ملامح عصرهم ونشاهد كيف كان التكوين الفكرى والثقافى لكل منهم، وإلى أى المدارس ذهبت هذه النخبة، وعلى أى الاساتذة تتلمذت؟ وماهى الفنون التى شكلت ذوقها وحسها الجمالى؟ وماهى الكتب التى تأثرت بها ؟ .

نضع هذه التجارب الثرية أمام الاجيال الشابة لعلها تكون هاديا لهم، وما أحوجنا أن نقرأ ونتعرف على طريق التفوق والنبوغ، طريق العمل الجاد المثمر الذى يكلل بالنجاح والتمييز..

فهذه تجارب لنخبة كافحت وناضلت وتفوقت وأصبحت لها بصمات مهمة فى حياتنا الثقافية والعلمية، وهى مجموعة من الشخصيات تمثل فكر وثقافة. هذا العصر الذى نعيش فيه ولكنهم تتلمذوا وتعلموا فى مناخ يختلف عنا ، له سماته الخاصة.. شربوا من معين واحد تقريبا.. تغذوا فى الصبا بقصص تدور حول معنى المعاناة، والشموخ ومراعاة كرامة العلم وأهمية الدين.